رِهَام راضي
حكمة بكر
رواية
الرواق للنشر والتوزيع

حِكمة بَكر

رِهَام راضي

نسخة إلكترونية خاصة بكندل أمازون

تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

التصحيح اللغوي: محمد عبد الغفار

رقم الإيداع: ٢٢٦٨٧ / ٢٠٢٠

الترقيم الدولي: ٠ - ١٠٢ - ٨٢٤ - ٩٧٧ - ٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

١٨٦ عمارات امتداد رمسيس ٢ أمام أرض المعارض مدينة نصر

هاتف: ٠٢٢٠٨١٢٠٠٦

facebook.com/alrewaqpublishing

instagram.com/alrewaqpublishing

www.alrewaqpublishing.com

إهـداء

إلى ابنتي «جميلة»..

إليكِ أنتِ، أنتِ سِرُّ السعادة وكلُّ أسباب الابتسامات الحقيقية..

مصدر القوة ونقطة ضعفي الوحيدة..

لأجلك أنتِ أستمرُّ في كتاباتي..

فأنتِ الحياة..

أحبُّكِ يا ابنة عمري من أعماق قلبي.

رِهَــام

أنا باوَحِّد اللي خلق الناس

خلق مسلمين ونصارى

وناس نامت على فَرش وِكناس

وناس ع المعايش حيارى

ابن عروس

الفصل الأول

ـ إيه دا؟! روحي يفقرك ربنا يا بت «يَمنى».

تحفظ جُدران البيت بغرفه الثلاث وصالته هذا الدعاء.

أسرع سرب من النمل في مسيرته، مُتسابقًا إلى جحره المختبئ بزاوية عتبة باب الشقة، غير مكترث بالفتات المتناثر على الأرض، اختبأ فور سماعه لعنات «بَكر».

اهتزت طاولة الطعام وما عليها من صحون بضربة شديدة من قبضة يده، حتى إن ستائر الشرفة بدت وكأنها ارتعدت برجفة لم يسببها هواء!

ولولا صوت هدير المواصلات القادم من الشارع وضجيج البشر، لسَمِع كل من يقطن حي السيدة زينب دعاء «بَكر» على زوجته.

كانت الساعة قد تعدت الثانية عشرة ظهرًا، وقفت «حِكَم» في المطبخ تغسل الأواني المتسخة وقد وصل إلى سمعها صوت زوجها الغاضب وسبابه.. ولأنها اعتادت كل هذا، لم تُبدِ أي اعتراض أو تأفف على ما يقوله «بَكر»، فضَّلت الصمت.

حتى في داخل عقلها، لا أفكار، ولا شيء يجول بخاطرها.

تتخدَّر خلاياها كأنها نائمة، ساكنة تمامًا وكأنها لا تسمع شيئًا.

على الرغم من كل هذا السكون، فإنَّ «حِكَم» في حقيقة الأمر امرأة ثرثارة للغاية، لسانها لا ينضب من الكلمات، ولديها كثيرٌ يمكنها قوله.

يُمكنها، بلا تفكير، أن تتحدَّث مع كوب شاي، وأن تناقشه بجدية في رغبتها في شراء أكواب جديدة غير تلك التي تمتلكها منذ سنوات كثيرة، أو أن تشكو لقرص دواءٍ صداعًا ينتابها،

ترجوه بتوسُّلٍ صادق في مساعدتها للتخلُّص منه.

وكانت أحيانًا عندما تشاهد مسلسلها المفضل، تتدخل في الحوار وتناقش أبطاله، وكأنها واحدة منهم وشاشة التليفزيون هي عينها. تنفعل كثيرًا، تضحك وتبكي، وتصرخ لتُحذر من عدو يتربص ببطل العمل..

أما عندما تكون مع زوجها «بَكر»، فإنها تتحول خرساء، لا تعرف شيئًا آخر سوى أن تظل صامتة. لغتها التي تمرَّست لسنوات في التحدُّث بها معه. وكم من مرة ابتلعت كلماته القاسية دون أي رد فعل. حتى وجهها لا يبدو عليه عادةً أيُّ مشاعر، لا سعادة ولا حزن.

كلمات هذا الدعاء هي الأفضل لـ«بَكر»؛ فلا شيء يفوق الفقر قسوةً من وجهة نظره.

ولأنه كافح وتعلَّم التجارة منذ ريعان شبابه، حتى أصبح له محله الخاص لبيع الملابس، يشعر أن سلاحه الأقوى يكمن في دعائه الدائم على منافسيه في تجارته بالفقر، وكأنَّه ولي من أولياء الله وكأن دعاءه سيُجاب لا محالة.

لكن زوجته المسكينة كانت تتلقى لعناته الدائمة دون ذنب تقترفه أو أي منافسة له تُذكر.

لثلاثين عامًا عاشتها معه لم تعترض يومًا.

في أحيان كثيرة تقول لنفسها إنه لا يحق لها الاعتراض؛ فـ«بَكر» صاحب الفضل عليها؛ إذ انتشلها من مُعاملة أهلها القاسية في صعيد مصر.

حُرِمت «حِكَم» التعليم ولم تدرس سوى عامٍ في كُتَّاب قريتها، وكانت تخدم والديها منذ نعومة أظفارها، خاصة بعد أن حملت والدتها في توأمين وأنجبت ولدين.. لتصبح واجبات «حِكَم» أكبر بكثير من عمرها آنذاك، غايتها العظمى هي إرضاء كل فرد من أفراد أسرتها وطاعتهم.

فكانت تستيقظ مع صياح الديوك في ساعات الفجر الأولى؛ لتنظيف الدار وكنسه، وتنفيض الحصير من الأتربة.

ثم تُخرج الدواجن التي يقومون بتربيتها من الحظيرة، تلاعبها وهي تركض حولها بعشوائية، في انتظارها لكي تضع لها الماء والخبز المُندَّى وبقايا الطعام من الليلة السابقة.

كما كانت تحضِّر الإفطار لوالدها؛ حيث إنه كان يستيقظ مُبَكرًا قبل شروق الشمس، فكانت تسلق له ثلاث بيضات، تمد يدها برفق داخل الحظيرة؛ لتأخذ من البيض الطازج الموجود في العُشش.

تضعها بداخل قدر من الصفيح فوق وابور الجاز، ثم تُقدّمها لأبيها في صحن فخار صغير، وبجانبها تضع كسرات من الخبز وقطعة من الجبن القديم الذي سكنه بعضُ الدود الأسود.

بعد ذلك، وبينما يتناول إفطاره، تضع «حِكَم» كنكة صغيرة بها ماء وملعقتان من الشاي الخرز، تراقب غليانه في حماسٍ لتصبَّه في الكوب وتُقلِّب فيه خمس ملاعق من السكر.

وكان استيقاظ والدها الباكر لعمله مزارعًا في إحدى مزارع قصب السكر.

اعتاد آنذاك، في أغلب الأيام، ترك كوب الشاي الذي تُعِده له «حِكَم» بعد إفطاره؛ لأنه يفضل أن يشربه مع المزارعين قبيل بدء عملهم، ولقرب داره من الأرض التي يعمل فيها، كان عادة ما يأمرها بعمل براد من الشاي وإحضاره له، لتخرج بعده بلحظات قليلة تتبعه، وهي تحمل صينية بها البراد والأكواب الصغيرة الفارغة والسكر، تقترب وتناولها أباها الذي افترش الحشائش في الغيط مع زملائه، يتبادلون أطراف الحديث عن حال قريتهم بضحكات صادقة.

تعود بعدها راكضة تلهث، لترتشف كوب الشاي الذي تُرك، وكل همها أن تصل قبل استيقاظ والدتها.

وعلى الرغم من أن «حِكَم» تعلم تمام العلم أن هذا الكوب لن يُشرَب أبدًا، كانت تعده لوالدها وتنتظر لحظة خروجه لترتشفه بدلًا منه خلسةً؛ لأنها تشعر أنه من العيب أن تشربه في هذه السن الصغيرة، هذا ما قالته لها والدتها.

كانت «حِكَم» أيضًا تساعد والدتها في أغلب الأوقات في حمل الصغيرين وملاعبتهما، وكانت شديدة التعلق بأخويها، حتى إنها ذات يوم، عندما خرجت والدتها لتحضر شيئًا من السوق، عادت لتجدها تحمل أحد الرضيعين اللذين تركتهما لها، وقد وضعته على صدرها تحاول إرضاعه ضاغطة على ثديها الصغير الذي لم يكتمل بعدُ، كما ترى أمها تفعل.

لم يكُن من أمها آنذاك سوى الصراخ في ابنتها «حِكَم»، وضربها ضربًا مُبرحًا بنعلها، دون إدراك منها لمشاعر الأمومة والتصرف العفوي الذي قامت به الصغيرة كي تُهدئ من روع أخيها.

ومن بين كل هذه الذكريات المرهقة، لا تنسى «حِكَم» يوم لقائها «بَكر».

كانت تركض خلف دجاجة هربت من دارهم، فإذا بشاب طويل للغاية، رأته في ارتفاع النخل لِقصر قامتها، ضاقت عيناها وهي تنظر إليه، ووضعت كفها فوقهما تحاول رؤيته وقد بدت الشمس عمودية فوق رأسه.

وبدا لها عريض المنكبين، شديد السمرة، تلمع بشرته تحت أشعة الشمس، له شارب غزير كاد يخفي شفته العليا، وبجانب حاجبه الأيسر ندبة واضحة.

فتح الشاب قدميه على اتساع جلبابه في وقفته؛ ليعترض طريق الدجاجة، أمسك بها ليعطيها «حِكَم». كادت تمسكها منه، فجذب يده بسرعة يُلاعبها دون أن يعطيها الدجاجة ثم سألها:

ـ انتي بت مين يا بت؟

لم ترد عليه، احمرَّ وجهها وكتَّفت يديها بحياء، فلم تكُن أبدًا تُحدِّث الغرباء.

أخفضت رأسها وابتعدت خطوة للخلف، فتعثرت قدماها في جلبابها لتسقط على ظهرها، ضحك «بَكر» بصوت مرتفع ومد يده يرفعها.

مكثت آنذاك تنظر إلى يده في حذر، بينما ظل هو يتأمل قسمات وجهها الصغير بشفتيها المكتنزتين، وأنفها الصغير المدبب، وضفيرتي شعرها الذهبي الطويل.. تاه فجأة في لون عينيها البنيتين اللتين لمعتا في ضوء الشمس كشُعلة المصابيح في الليالي الكالحة.

انفرجت شفتاه حتى ثناياه ضاحكًا بلا صوت:

ـ يا بت! مدي كفك يا واكلة ناسك!

رفضت أن تُلبي طلبه، هبّت من مكانها، لتقف دون مساعدته، ونفضت ملابسها التي اتسخت من تراب الأرض.

تسمَّرت بضع لحظات في الأرض، مكتوفة اليدين تنظر إليه في صمت، ثم ركضت بخجل لتعود إلى دارها فركض خلفها:

ـ يا بت استني، خدي الفرخة يفقرك ربنا!

التفتت إليه.

ـ قوليلي اسمك وأديكي الفرخة.

ابتسمت في خجل دون أن ترفع عينيها فيه، فظهرت غمازَّتا خديها.

أجابت بصوت لا يكاد يُسمع:

ـ «حِكَم».

ألقى الدجاجة على صدرها لتلقفها، ومشى مُبتعدًا عنها وهو يتلفَّت إليها ضاحكًا.

مرَّ أسبوع لتعرف من والدها أن «بَكر راوي» ابن عائلة العدوي قد تقدَّم لخِطبتها، وأنه كما تقول والدتها «يا حليلك يا بختك»؛ فهو تاجر مُقتدر ويعيش في مصر.

وتقصد بها القاهرة، يأتي منها في زيارات متقطّعة إلى أهله في الصعيد.

سرعان ما وافق والداها، خاصة لأن أخويها الصغيرين قد كبرا قليلًا، ولم تعُد الأم في حاجة مُلحَّة لبقاء ابنتها معها..

ولأن زواج ابنتهم سترة، ودون سؤالها إن كانت تريده أم لا، فهي لا تمتلك حق الاختيار، الموافقة أو الرفض، تزوجها.

كان عمرها آنذاك لم يتعدَّ أحد عشر عامًا، بينما كان هو في الثامنة والعشرين.

قرر أن يأتي بها إلى القاهرة في قطار التاسعة صباحًا، مشت جانبه بفستان بسيط أبيض ارتدته لزفافها، كُمَّاه يُغطيان أناملها لشدة اتساعهما، طويل للغاية، كادت تسقط على وجهها ألف مرة بسبب طوله هذا، ظلت طوال طريقها تجرجر فيه من عتبة دار أهلها حتى باب غرفتها في بيت «بَكر».

وعلى الرغم من اعتقاد «حِكَم» في تلك اللحظة أن حياتها كانت أشد قسوة من الفتيات الأخريات مثيلاتها في قريتها، فإنها وجدت نوعًا آخر من القسوة مع زوجها، الذي كان سؤاله الأول لها بعد زواجهما ولم تفهم مغزاه آنذاك، هو إن تم ختانها أم لا، أومأت برأسها إيجابًا بخوف ونظرة حيرة، ليبتسم ابتسامة ارتياح.

كان سؤاله هذا وهي تجلس بجانبه في القطار، فاختلط ضجيج عجلات القطار فوق القضبان بصوت صراخ في عقلها، لم تبادره بابتسامة كتلك التي صدرت منه، أصابها سؤالُه

بوجوم، ودفعها لتتذكر طوال ساعات رحلتها إلى القاهرة ألمًا لن تنساه، ذلك الألم الذي سببته لها الداية أم صبيحة التي قامت بختانها هي وأخريات من فتيات القرية.

هي حتى لم تكُن تعرف آنذاك لِمَ فعلوا بها هذا، تأوَّهت وأنّت في أعماقها.

ما الحكمة خلف هذا التعذيب المميت؟ وكيف منح هؤلاء أنفسهم حق انتقاص ما خُلقت به؟!

تساءلت في صمت: لِمَ لا يُسمح لي سوى الشعور بالأوجاع دون غيرها؟!

بدأت حياتها معه بسؤال مؤلم للغاية، وبواقع عاشته ليلتها كان أشد ألمًا، يخلو من أي مشاعر أو محبة ظاهرة، وبلا موده.

تتذكر «حِكَم» أيضًا رؤيتها نفسها في المرآة للمرة الأولى في بيت «بَكر»، فلم يكُن في دار أهلها أي مرآة، ولم يسبق لها رؤية نفسها من قبل.

بدت مذهولة كمن اكتشف انعكاس وجهه في بركة ماء راكدة منذ دهور قبل الميلاد.

ولولا تطابُق حركاتها مع انعكاس صورتها، لظنَّت أن فتاة أخرى لا تعرفها تقف أمامها.

جلست وقتًا طويلًا على الكرسي أمام التسريحة، تتحسَّس قسمات وجهها باستغراب واستكشاف وبراءة، تنظر إلى ملامحها، خديها شديدي الحمرة، والشامات الصغيرة عليه.

تمط شفتيها وهي تتأمل لونهما الورديّ، ثم تفتح فمهما، تنظر إلى أسنانها، وتُخرج لسانها ببلاهة.

تبحلق عيناها باندهاش، تقربهما من المرآة وهي تنظر بعمق إلى لونهما البني، تُبحر فيهما دقائق طويلة وكأنهما اكتشاف، وكأنها تُبصر للمرة الأولى.

تشد رموشها الطويلة بأطراف أناملها، حتى إن بعض رموشها تساقطت من شدِّها لها، ففزعت لتصرخ: «واااه».

لحست، آنذاك، بسذاجةٍ طرف إصبعها بلسانها؛ لتحاول أن تعيد إلصاق الرموش المتساقطة بجانب باقي الرموش.

وقفت من جلستها بعد كل هذا، تمشِّط شعرها وقد أسدلته وانفكت الضفائر. تتأمَّل كل شيء فيها، تنظر إلى جسدها الذي لم تكُن قد اكتملت أنوثته آنذاك، وتذكرت نفسها بين يدي «بَكر» في الليلة السابقة لاكتشاف المرآة.

جميلة، شعرت في تلك اللحظة بأنها جميلة للغاية، وأنها ليست «عِفشة» كما كانت تناديها إحدى الفتيات من قريناتها لمضايقتها.

بل إنها أدركت أنها ربما أكثر جمالًا من كل فتيات قريتها، لكنها ربما الأقل حظًّا.

ولم تكُن «حِكَم» قد بلغت آنذاك، كان بلوغها بعد عام ونصف العام من زواجها.

كما أنها لم تحمل أي مشاعر عندما حدث ذلك لها، سوى نفورها من نفسها ونفور زوجها منها لأيام عندما أعلمته، فظلَّت في حيرة لا تعرف ما حل بها أو ما تفعل.

ولا تنسى خلافهما الأول الحقيقي بعد زواجها بعدَّة أشهر، عندما احترقت منها صينية اللحم بالبصل، فظل زوجها «بَكر» يصرخ فيها طوال اليوم.

وقال لها آنذاك:

ـ أنا عارف وفاهم كويس، في البلد بيقولوا إن «يَمنى» أمك هي اللي ممشية البيت مش أبوكي، فإياكي تكوني فاكرة هنا هتمشِّي البيت بسلو أمك وتحرقي لُقمتي واسكت لك، روحي يفقرك ربنا يا بت «يَمنى»!

كأنه الدرس الأول الذي تعمَّد إعطاءه لها: العقاب على ما لم تقترفه.

لم تسلم طوال طفولتها من معاملة أمها القاسية، والآن تلاحقها لعنة تلك القسوة. فكان لا يكف عن مقارنتها الدائمة بأمها التي عُرفت بقوة شخصيتها، ويقول «بَكر» عن أمها ساخرًا:

ـ «يَمنى».. عُمدة الصعيد!

الفرق القوي، الذي تحمد الله عليه، أن «بَكر» لا يمد يده عليها أبدًا كما كانت تفعل والدتها.

شعرت بأن هذا الأمر كان أهم مميزات زواجها منه، وإن كانت كلماته أحيانًا أشد إيلامًا من صفعات والدتها، لكنها على الرغم من كل سبابه ولعناته، تشعر بطيبةٍ دفينٍ في قلبه، ودفء وطمأنينة خلف نظرة عينيه الحادة، فأصبحت شديدة الاهتمام بطعامه وشرابه منذ ذلك اليوم، على الرغم من امتعاضه الدائم.

مرَّت أعوام عليهما بلا أبناء، تحمَّلت فيها الأمرَّين، فكلما حملت في طفل مات في أحشائها في شهوره الأولى، حتى اعتادت عيناها رؤية الدماء تنسال من بين قدميها إلى الأرض.

كما أصبحت نحيلة هزيلة الوجه، اختفت حمرة خديها، وأصبح وجهها شديد الشحوب لنزيفها المتكرر.

وكان «بَكر» يمقت زيارة الأطباء، فظلت هكذا حتى فقدت الوعي ذات مرة أمام عينيه، ليحملها مُضطرًا إلى المستشفى القريب منه، أخبره الطبيب بأن لديها أنيميا حادة وتحتاج إلى أدوية وغذاء جيد، وراحة.

وفَّر لها «بَكر» كل ما قاله الطبيب عدا الراحة. لم ترتَح «حِكَم» للحظة، بل عادت من المستشفى ليأمرها زوجها بأن تحضِّر له العشاء وبكل جمود وكأنَّ شيئًا لم يحدث لها.

لم يربت حتى على كتفها لتطمئن، لكنها امتنَّت له لأنه حملها بين ذراعيه إلى الطبيب، وفكرت آنذاك أنه لو كان قد حدث لها ذلك في دار أهلها، لتركوها ملقاةً على الأرض حتى

تفيق.

ظلت هكذا حتى أنعم اللهُ عليها بابنتها الأولى بعد سبع سنوات من زواجهما ليسميها والدها «نجية». وبعدها بعام أنجبت ابنها. شعرت بعد إنجابه بسعادة متوارثة لإنجاب الذكور. وسمَّاه أبوه «عدوي» على اسم عائلته.

قرر «بَكر» الاكتفاء بالاثنين، وأمرها بمرافقته لزيارة الطبيبة لتركيب وسيلة تمنع حملها.

كان قراره، على الرغم من حدته المعتادة عليها، إشفاقًا على حالها وصحتها التي تآكلت في تكرار حملها، كما أنه شعر أن الله قد حباه بابنةٍ وولد فاكتفى بهما، قائلًا لها ولنفسه إنه لا يريد أبناء غير ذلك.

وكانت «حِكَم» على عكسه؛ تود لو أن تنجب أبناء آخرين، وحدّثته مرة وحيدة عن رغبتها تلك، ولكنه رفض بشدة ونهرها دون أن يُخبرها ما حِكمته في الرفض، انصاعت لأوامره ولم تناقشه مرة أخرى.

حتى إنها، بعد ذلك بأعوام قليلة، شكّت في حملها على الرغم من وسيلة المنع، فارتعدت لخوفها من زوجها، وقررت أخذ وصفة شعبية من أحد العطارين كادت تودي بحياتها.

مضت أعوام تلو أخرى وهي تعيش في بيته في حي السيدة زينب؛ لقرب موقعه من المحل الذي يملكه. لا تفعل شيئًا سوى تربية ابنيها وخدمتهما، وتلبية رغباته التي لا تتوقَّف، دون أي احتواء منه أو كلمة طيبة تُقال، كما أنه أصبح لا يسافر كما كان يفعل من قبلُ؛ فهو يتيمٌ منذ طفولته، وقال لها في الأسبوع الأول من زيجتهما إنه في حقيقة الأمر لا يحب إخوانه الذين استولوا على أرضه.

قال لها إن كل زياراته سابقًا كانت لبحثه عن عروس، وقد أتى بالعروس، ليس له شيء آخر هناك ليعود إليه.

ومثلما ابتعد عن جذوره بإرادته الحرة، انقطعت علاقة «حِكَم»، بلا إرادة منها، بكل مَن في قريتها من أقربائها.

حتى إنه عندما مرض والدها، أعلمها «بَكر» بالأمر، لكنه لم يسمح لها بالسفر لرؤية أبيها، مرت الشهور ليخبرها بوفاته دون أن يسمح لها بالبكاء.

فتعلَّمت ادعاء الجمود وعدم إظهار المشاعر، نسيت مع الأيام والدتها وأخويها اللذين تركتهما طفلين صغيرين، وإن مروا من أمامها الآن لن تعرفهم.

حتى لهجتها الصعيدية اندثرت ولم يبقَ منها سوى بضع كلمات، وكأنها خُلقت وحيدة، وهذا البيت وصاحبه كل ما تعرفه في هذه الدنيا.

والآن بعد كل هذه الأعوام، تقف بجسدٍ مهمل ممتلئ قليلًا، ترتدي فوقه جلبابًا أزرقَ باهتًا، مشمِّرة كُمَّيه لغسل الأواني، وقد ابتل منتصفه من ماء الحوض.. وطرحة سوداء ملفوفة فوق رأسها وكأنها عمة صعيدية موروثة، يظهر من أطرافها الأمامية بعض الشيب؛ فقد عرف طريقه مُبَكرًا إلى خصلات شعرها.

وبرائحة عرق تفوح كلما رفعت يداها لتضع صحنًا في مصفاة الصحون المعلّقة أمامها.

تمر بخاطرها أيام طفولتها، ونسيم المزارع في الصباح الباكر وهي تركض لتشرب كوب شاي أصبح باردًا بسعادة.

بينما لا تزال تسمع صوت «بَكر» بثبات انفعالي وهو يدعو عليها بالفقر، بعد أن أحضرت له إفطاره، وكان السبب وراء لعناته أنها لم تنفض الرَّدَّة من الخبز البلدي، فاتسخت ملابسه!

***

وردٌ مجفف كئيب وُضع في منتصف طاولة الطعام.

نظرت إليه «حِكَم» وهي ترفع الصحون بعد إفطار زوجها، وقالت:

ـ ما انزل أجيبلي شويِّة ورد بلاستيك أحمر زي اللي عند أبلة سنية، أهو ينوَّر السفرة بدل المقلحف دا.

حدّثت نفسها وهي لا تزال سارحة فيه..

كيف ظل ذلك الورد المجفف على هيئته طوال تلك الأعوام دون أن يتفتت، دون أن تسقط منه ورقة واحدة، لا روح فيه، جاف سيتناثر إن اقتربت منه؟!

لكنه ظل متماسكًا أمام صيحات «بَكر» اليومية وضربات قبضته العنيفة على الطاولة، تسللت السنوات إليه وأخذت لونه مثلما تسللت إلى حمرة وجه «حِكَم»، فانسلت الحياة منهما وأصبحا باهتي اللون.. تكره ذلك الورد لأنه يُذكِّرها بنفسها.

ولم تكُن هذه هي المرة الأولى التي تُحدث «حِكَم» نفسها عن رغبتها في التخلُّص منه، لكنها أبدًا لا تفعل شيئًا غير ذلك.

وكان عمر الورد القديم من عمر زواجهما، لم يتغيَّر منذ لحظة دخولها هذا البيت، لا شيء آخر أيضًا قد تغيَّر سوى شراء شاشة تليفزيون جديدة، وغرفة نوم لابنتها «نجية»، أما ابنها «عدوي» فكان أثاث غرفته موجودًا منذ أن سكنت «حِكَم» البيت.

اعتاد «بَكر» تناوُل إفطاره وقت الظهر، قُبيل خروجه من البيت إلى محله، وعادةً يعود في المغرب لتناول وجبة الغداء، ومن ثَمَّ الخروج مرة أخرى.

ولا تراه «حِكَم» إلا في صباح اليوم التالي؛ حيث إنه اعتاد العودة بعد منتصف الليل، وهي في أغلب الليالي تنام مُبَكرًا.

تشعر «حِكَم» بسعادة لأن زوجها أصبح لا يتناول وجبة العشاء كثيرًا في البيت مثلما كان في سنوات زواجهما الأولى، لتعده في ليالي البرد القارسة بعد إيقاظها من نومها العميق،

بعين نائمة وجسد يرتعش من البرودة.

أما عن ابنيها، فقد ورثت «نجية» عن «حِكَم» شعرها الذهبي الغامق وشفتيها المكتنزتين، وغمازّتي وجهها، لكن عينيها كأنهما عينا أبيها، شديدتا السواد ومتسعتان، كما أنها شديدة النحافة، وعادةً ما تُفضل ارتداء ملابس واسعة للغاية، فيظن جسدها أنه تائه بداخلها. وتبدو تعبيرات وجهها أحيانًا كمن أصابها توحد، قليلة الكلام، وعادة لا تحب أن تنظر في عين مَن يحدثها، ودائمًا ما تنهرها والدتها قائلة:

ـ يا بنتي نفسي مرة تبصيلي وانا باكلمك!

والتحقت «نجية»، للدراسة بعد الثانوية العامة، بكلية البنات، ولم تكُن تفعل شيئًا سوى المذاكرة، حتى إنها تكره مشاهدة التليفزيون وتكره تكوين الصداقات، لكنها تحب النوم جدًّا وكأنه هواية لها تمارسها باحتراف.

أما «عدوي»، فكان بدوره لا يحمل أي شيء من ملامح والدته، ولو سار بجانبها بدا وكأنه غريب عنها، لكنه يحمل ملامح أبيه السمراء وشعره الأسود الثقيل، كما أنه يكره الاستحمام منذ صغره ولا يحب شرب الماء!

ويكره الدراسة كما يمقت اسمه الموروث.

لم يحصل على مجموع يؤهِّله للثانوية العامة، وكان دائم الرسوب، حتى أصبح لا يهتم بإكمال دراسته، وكان أبوه، هو الآخر، لا يكترث لأمر دراسته، ويرى أن نجاح الرجل هو تجارته والسعي وراء كسب المال وليس شهادته، بل كان ينهر «حِكَم» أمام ابنها في صغره إن قامت بالشكوى منه قائلًا:

ـ دا هيبقى راجل يا مرة! بُكرة يكبر ويبقى كسيب زي أبوه.

وعلى الرغم من منحه ابنه كل الصلاحيات التي قد تخلق إنسانًا عاصيًا متمردًا، يعيش حياته هائمًا على وجهه بلا هدف، فإنه في قرارة نفسه كان يميل لابنته «نجية»، ودائمًا ما يفتخر أمام مَن يعمل في محله وأصحابه بها؛ كونها ستصبح مُدرِّسة في يوم من الأيام.

حتى إنه عندما يرى قطعة ملابس مميزة، يطلب من صبيه «عبده» أن يحضّرها ليأخذها معه عند عودته إلى بيته قائلًا له:

ـ دي للأستاذة «نجية» يا واد، مش عايز حتة فتلة فيها طالعة ولا داخلة.

وعلى الرغم من فخره هذا بابنته، لا يكترث أبدًا لمن يقول إن ابن فُلان من التجار أمثاله أصبح مهندسًا أو طبيبًا، بل إنه يسخر سخريةً لا مثيل لها مِن كل مَن يلتحق بكليات القمة قائلًا:

ـ دا قُصر ديل.. حمير بقوا دكاترة ومهندسين عشان صمُّوا شويِّة كتب!

ثم يرفع صوته ليسمعه كل مَن يمر أمامه وهو يقول:

ـ التجارة هي أصل الرجولة!

وكان هذا أحد أسباب العداء لمنافسه الأكبر، الحاج علي صابر؛ حيث إنه يملك المحل المقابل له، الذي التحق كل أبنائه بكليات القمة، وكان «علي» يتفاخر بصوت مرتفع قائلًا:

ـ دا أنا بادفع مصاريف عيالي بالعملة الصعبة!

يتعجَّب «علي» من ثقة بَكر العدوي، الصعيدي الذي أتى بـ«فردة شبشب مقطوعة»، كما يقول عنه، ولم يظهر عليه الغنى أبدًا ولا التجارة التي يتحدث عنها، فعلى الرغم من كبر محله وذياع صيته، لم يشترِ سيارة، ولم ينتقل من بيته المتواضع في حي السيدة زينب، بينما الحاج «علي» أصبح يسكن في فيلا بأحد التجمعات السكنية في القاهرة الجديدة ويملك من السيارات أفخمها، كما يرتاد أبناؤه أفضل الجامعات.

وللحقِّ، فقد كان وضع «بَكر» غريبًا ومثيرًا للتساؤل، حتى ملابسه لا يجدد فيها شيئًا، وحذاؤه، لولا تلميع زوجته الدائم له، لأظهر عمره الحقيقي الذي تعدَّى أكثر من خمسة عشر عامًا، ولولا تخليه عن الجلباب الصعيدي منذ سنوات وارتداؤه القميص والبنطال، لظنَّ من يراه أنه أحد عاملي البناء وليس رجلًا له ماله الخاص وتجارته المربحة.

وضعه المتواضع هذا يثير التساؤلات، ولكنه ليس بخيل؛ فلا أحد في حي السيدة يقوم بأعمال خير مثله، بل إنه قام بتجهيز وتزويج أحد الصبية العاملين بالمقهى الذي بجانب محله، فقط لأن هذا الصبي كان يهتم بشيشته ويجهِّزها له فور حضوره!

كما أنه يشفق على الفقراء السارحين في السيدة ويمنحهم المال، لا تخرج يده من جيبه خالية أبدًا، أمام أي عابر سبيل منهم.

وعلى الرغم من أن كل مَن يعرفه يعرف أنه رجل صعيدي أصيل يغار على أهل بيته بشدة، فإنه لم يأمر «حِكَم» يومًا بألَّا تختلط بأحد من الجيران أو يضع لها قيودًا في دخولها أو خروجها من البيت؛ لأنه يعلم في قرارة نفسه أنها لا تعرف شيئًا في القاهرة سوى حي السيدة زينب والعمارة التي تسكنها، وهل يُؤمر السمك ألَّا يترك المياه؟!

ومن الخير المعروف عنه: إلزامه زوجته بعمل أرغفة الخبز باللحم، لتوزيعها بنفسها على فقراء السيدة زينب أول جمعة من كل شهر، ويرسل لها صبيه «عبده» لمساعدتها.

وكانت «حِكَم» تقطن الطابق الثاني ولا تحتك بأحد في العمارة التي تسكنها سوى جارتها في الطابق الأول أبلة «سنية» كما تناديها.

«سنية» امرأة عجوز تُوفي عنها زوجها منذ سنوات بعيدة ورحل عنها أبناؤها، منهم من تزوج ومنهم من سافر للخارج، لتعيش وحدها هي وقطتها «مستكة»..

وتتعمد «سنية» الاستيقاظ مُبَكرًا يوم الجمعة الأولى من كل شهر، فور أن تشم رائحة المرق المميزة من طبخ «حِكَم»، تُسرع بعكازتها ما إن تسمع قدميها على الدرج؛ لتفتح الباب

وكأنها تلقي بكيس القمامة، وتمنحها «حِكَم» رغيفًا باللحم، فتتظاهر «سنية» برفضها وأنها شبعانة لتحلف عليها «حِكَم» قائلة:

ـ والله ما انتي كاسفة أيدي يا أبلة «سنية».

ولم تدرك «حِكَم» أبدًا، لسذاجتها وتكرار هذه الصدفة، أنها صدفة تحدث عمدًا.

ولكن كان أكثر ما يلفت حاسة شم «حِكَم» في الفترة الأخيرة: الرائحة الكريهة التي تخرج من بيت «سنية» إذا وقفتا في مدخل البيت للتحدُّث، فتلعن الأخيرة قطتها التي تتبول في أرجاء البيت، وعندما تنصحها «حِكَم» بالتخلُّص منها تصرخ «سنية»:

ـ يا لهوي يا «حِكَم»! عايزاني أسرَّب «مستكة»؟! اسكتي يا بت، دي هي اللي مسلياني.

وعرضت «حِكَم» ذات مرة على «سنية» أن تنظف لها البيت، وكانت كلما اقتربت من غرفة النوم ازداد انبعاث الرائحة، لتقول صاحبة البيت إن قطتها تبوَّلت على السرير، فتعرض «حِكَم» عليها رفع المرتبة لتعريضها للشمس في شرفة البيت، تسقط المرتبة في الشارع وتلعنها «سنية»!

ولم تدرِ «حِكَم» أن القطة بريئة براءة الذئب من اتهامات صاحبتها، وأنه في حقيقة الأمر...

«سنية» هي التي تتبوَّل على فراشها، كونها تشعر بالكسل ولا تذهب إلى الحمام في منتصف الليل.

وتكتفي «حِكَم» بجلسات النميمة معها على الرغم من رائحة بيتها الكريهة بمعرفة أخبار كل سكان العمارة، سواء من مشاجرات الحاج «أشرف» الذي يسكن الدور الرابع مع زوجته سليطة اللسان، أو مصائب المراهق الذي يسكن أمامها وضرب أبيه إياه، أو القصص المثيرة التي تسمعها عن «عايدة» التي تعمل راقصة في أحد الملاهي الليلية والتي تسكن في الشقة المقابلة لـ«حِكَم».

كما لا تخلو أحاديث «سنية» من حكايات مكتب المحامي محمد خميس بالطابق الأرضي، فتروي لها قصصًا تحبس الأنفاس عن بعض القضايا التي تأتيه، وتسرد ما تقوله بأدق التفاصيل، بل ولا تنسى «حِكَم» قضية المرأة التي قطّعت زوجها إربًا ووزَّعت لحمه على المساكين بحي السيدة، وظلت مُدةً خائفة من مكتبه كلما نزلت من بيتها، تنظر تجاهه بقلق، كيف يحوي هذا المكتب قضايا مخيفة كتلك، بل إنها وكلما أعدت أرغفة اللحم للفقراء، تذكرت قصة «سنية» وتأففت فَزِعةً.

وبين فترة وأخرى تسأل «حِكَم» عن الجديد في القضايا التي تأتي مكتب السيد «خميس»، لكنها لم تكُن تعرف أن هذه القصص كلها من صنع خيال العجوز «سنية».

وفي أغلب الأيام، تنتظر لحظة خروج «بَكر» من البيت، لتركض على الدرج نزولًا إلى الدور الأول، ثم تقف في المطبخ تغسل لها الصحون المتسخة، وهي تستمع بإنصات وتعجب وتركيز وفم مفتوح، وكأن «سنية» هي باب «حِكَم» الوحيد على العالم بقصصه الغريبة وعشوائيته.

تتظاهر «سنية» في كل مرة بأنها تجذبها من يدها:

ـ ماتتعبيش نفسك يا «حِكَم»، دول هما طبقين هابقى أغسلهم أنا بعدين.

لكن «حِكَم» تصر على تنظيف المطبخ لها ثم تعد كوبين من الشاي لهما لتكملا حديثهما.

وكثيرًا ما تُفكِّر سارحةً في حال «سنية»، تشعر أنها سيدة مسكينة للغاية، تخاف من الزمن والمستقبل وما سيأتي به لها.. هل سيرحل عنها زوجها وأبناؤها يومًا لتعيش في بيتها وحيدة مع قطة؟!

تُفكِّر في ذلك، لتتذكَّر بعدها الرائحة الكريهة التي كانت في بيت «سنية»، فتهز رأسها لا إراديًّا في نفور..

كيف يمكن أن يكون للمستقبل رائحة نَتِنة؟!

***

ـ لا يا بابّا بقى بليز! مش هينفع خالص أعتذر عن الكامب، انت كده بتحرجني قدام كل جروب صحابي في الكوليدج.. مش أسلوب بجد.

ـ كوليج إيه ونيلة إيه؟ يعني إيه مش هينفع يا حبيبتي؟! ماتقولي حاجة لبنتك يا «هدى»..

تأففت هدى ثم قالت:

- C’est trop, Ali!

مش معقولة يا «علي»، «لولي» خلاص مش بيبي صغيرة، ماتخليها تروح، يعني هيحصلّها إيه؟! ما كل زمايلها وصاحباتها رايحين!

جلست «هدى» تضع قدمًا فوق أخرى، تتصفح إحدى مجلات الموضة، وفي حقيقة الأمر لم تكُن تكترث إن كانت ابنتها «لينا» ستذهب أم لا، هي لا تريد أن تشعر بأي تشتيت أو إزعاج حولها؛ حتى تستطيع التركيز أي حقيبة جديدة ستشتريها في رحلتها المقبلة إلى باريس.

لذا، شعرت بأن تلك الإجابة ستُنهي هذا الحديث على الفور، كونها تعلم أن «لينا» ابنتها لن تكف عن إلحاحها على الذهاب في رحلة الجامعة، وأن والدها في النهاية سيرضخ لرغبتها.

تنهد «علي» دون تعليق على رد زوجته، فقفزت «لينا» بسعادة ثم اقتربت منه لتقبِّل خده وهي تقول:

- Merci Pappa.

ورن هاتفها المحمول في تلك اللحظة، فتركتهما مُسرعةً لتصعد إلى غرفتها.

مكث «علي» ينظر إلى زوجته وهو يسند ذقنه على قبضتي يديه:

ـ ما هو لو ترمي الهباب اللي عمالة تشوفيه دا وتركزي معايا، كنتي هتفهمي إن ماكانش ينفع خالص بنتنا تطلع الرحلة المطينة دي.

ألقت «هدى» المجلة على المنضدة أمامها بعصبية:

ـ هباب؟.. ومطينة؟!

تنهدت بقوة، ثم أردفت:

ـ إيه دا بجد؟! إيه الألفاظ دي يا «علي» يا حبيبي؟ مش ناوي أبدًا تطلع من جو السيدة دا شويَّة؟ أُفّ! عمرك ما هتتغير.

ـ أُفّ؟! لأ، الله يرحم أبوكي يا «هدى»، هو محل السيدة دا يا هانم مش سبب كل الهنا اللي انتي فيه وولادك الباشوات اللي بيدرسوا في كندا، وبنتك اللي في أغلى جامعة في مصر، والبيت الطول بعرض دا! والمجلة اللي قارفانا بيها، واللي كل اللي فيها متلقح عندك فوق ودواليبك هتطرشق من كتر اللبس؟!

وبعدين قلتلك ميت مرة: كله إلا محل السيدة، إياكي تجيبي سيرته تاني.

ابتسمت «هدى» واقتربت تربت عليه بهدوء:

ـ يا حبيبي أنا ماقلتش حاجة، Deja يعني، ما انت فتحت لحد دلوقتي أكتر من ١٠ فروع، دا غير المصنع اللي انت أكبر شريك فيه مع اخواتك، أكيد حبيبي مش دا سبب كل اللي احنا فيه! المحل دا مابيجبش مصروف ولادك في الشهر، فليه متمسك بيه؟ صدقني مش جايب همه.

نظر إليها دون أن يعلق على ما قالته، ثم قام وتركها:

ـ النهارده ماتعملوش حسابي على الغدا، عندي اجتماع في المصنع وهاتأخر.

ـ أوك حبيبي.

نادت الخادمة وطلبت منها إحضار كوب من عصير البرتقال، ثم أمسكت المجلة لتتصفحها مرة أخرى.

«هدى» امرأة شديدة الذكاء، تعرف جيدًا كيف تتعامل مع مَن أمامها، وكيف تُنهي النقاش وقتما تحب، ويظن مَن تُحدّثه أنه هو مَن أنهاه.. وكانت، على الرغم من بلوغها الخمسين من عمرها، شديدة العناية ببشرتها ولا تتلكأ في تجربة كل جديد من جلسات شد الوجه وحقن علامات التجاعيد..

وكان والدها صديقًا لوالد «علي» ويعملان في تجارة الملابس معًا.

كما أنهم كانوا جيرانًا في طفولتهم، وبعد وفاة والدها وتدهوُر أحوال أسرتها المادية، خاصة بعد استيلاء أعمامها على إرثها هي وإخوتها، عرض والد «علي» عليه خطبتها، وفاءً لشريكه الذي طالما كان يمازحه برغبته في تزويج «علي» بابنته، ولم يعترض «علي»، فقد أمضى سنوات مراهقته آنذاك وهو يراقبها في أثناء ذهابها وعودتها من المدرسة، وكانت تروق له بمشيتها العسكرية وهي تحتضن حقيبتها، بل كان يشعر أنه من المستحيل أن تقبل به فتاة في مدرسة الراهبات الفرنسية. بينما هو بالكاد يعرف نطق كلمتين أو ثلاث باللغة الإنجليزية.

لكنه، بعد زواجهما، أدرك أنه هو الذي كان حلمًا لها، ليس حبًّا فيه، وإنما حبًّا في ماله وأنه سيحقق أحلامها وتطلعاتها.

ولم يكُن نصيب «علي» من ميراث أبيه سوى محله بحي السيدة زينب، وكان هذا بالاتفاق مع إخوانه؛ كونه مَن كان دائم الوجود مع والده فيه، وقد استطاع بمثابرته وجدِّه فتح فروع أخرى له تربح أضعاف هذا المحل، ثم قام بعد ذلك بمشاركة إخوانه في مصنع

للملابس، وكان بمثابه طوق نجاة لهم، فأصبح الشريك بالنسبة الكبرى، وعلى الرغم من كل هذا، يعلم علم اليقين أن الباب الذي أتى بكل هذا الخير إليه، والذي لولاه لم يصل إلى أي شيء، هو محل السيدة.

***

ـ خلاص بقى يا حاجة «سنية»، والنبي ما كان قصدي.

بدا على «سنية» غضبها الجم من «حِكَم» بعد سقوط المرتبة في الشارع.

ـ طب هافضل واقفة ع الباب كدا؟ يعني مانفسكيش في كوباية شاي من بتاعة «حِكَم»؟ طب دا مفيش حد فيكي يا سيدة زينب يعمل كوباية شاي تظبط الراس زي كوبايتي.

ـ اتفضلي يا اختي ادخلي، آدي اللي جالنا من كوباية الشاي.

دخلت خلفها «حِكَم» وأغلقت الباب، ثم خلعت طرحتها لتلقيها على الأريكة المتهالكة في صالة «سنية»، واتجهت نحو المطبخ..

ـ ياه يا أبلة «سنية»! يعني أسيبك يومين بس ألاقي حال البيت يتقلب كده ولا كأننا منضفين؟!

ـ منضفين إيه يا مأسده؟! هو اللي عملتيه من فوق الوش يومها دا تقولي عليه تنضيف؟

خادمة.. في قرارة نفسها تعامل «سنية» «حِكَم» على أنها خادمة، وتدفع لها أجرها باستماعها إلى شكواها من زوجها أو بسرد قصص مثيرة عن سكان العمارة ولا شيء آخر، أما «حِكَم» فلم يكُن لديها من الفطنة ما يجعلها تدرك حقيقة ما تكنُّه لها «سنية»، فلم تعتقد للحظة أن ما تفعله أمر مبالغ فيه، لقد اعتادت ذلك منذ طفولتها وترى أنه من واجبها أن تساعد امرأة مُسنة تعيش وحدها..

حتى إن عقلها لن يستطيع استيعاب أن «سنية» لا تحبها وعادة ما تتنفَّس الصعداء فور خروجها من بيتها.

ـ ربنا يسامحك يا أبلة، طب بذمتك مش لما المرتبة اتهوت من الريحة المنتنة دي بقت أحسن؟

ـ آه يا اختي، أهي اتهوت من شخاخ «مستكة» ووقعت في الشارع، لزق فيها شخاخ قطط السيدة كلها..

ضحكت «حِكَم» من قلبها.. فعلَّقت «سنية»:

ـ بتضحكي عليَّ يا بت؟! طب دا أنا من ساعة ما عيال الشارع طلّعوا المرتبة وانا جتتي مش جايباني أنام عليها أبدًا، وبانام على الكنبة برَّه..

شعرت «حِكَم» بالضيق لما قالته جارتها، وخرجت مسرعة تهرول من المطبخ.

ـ رايحة فين يا بت يا «حِكَم»؟

ـ هاجيب طشت من الحمام وبشويِّة صابون هاغسلهالك.. هارجعهالك فُلّة.

***

حلَّ منتصف الليل على «بَكر» وهو لا يزال على كرسي العرش، كما يلقبه صبيه، فقد كان صبيه «عبده» يعتني بهذا الكرسي عناية خاصة، يَنفُضه كل دقيقة في عدم وجود سيده، وفور أن يرى «بَكر» قادمًا من أول الشارع، يركض لإحضار قطعة قماش مخصصة لتنفيض الكرسي، حتى إنه ذات يوم وهو يقف مع أحد الزبائن، وما إن لمحت عيناه «بَكر» من بعيد، هرع ينفُض الكرسي بقطعة الملابس التي كان يعرضها على الزبون! ولم يكُن لقب كرسي العرش من فراغ؛ فقد حرص «بَكر» على اختيار كرسي خشبي عملاق ليضعه أمام محله؛ فلا مكان له بالداخل!

له بطانة سميكة لونها بني قاتم، وظهره عريض بحواف من الأرابيسك وكأنه كرسي مُقرئ، وكان «عبده»، حين يغلق المحل، يضع فوق الكرسي مفرشًا بلاستيكيًّا كبيرًا لحمايته؛ خوفًا من أن تعتليه قطط وكلاب الشوارع التي تتسكع ليلًا أو أن يتسخ من أيدي المارة والمتسولين.

وبجانب هذا الكرسي طاولة صغيرة للغاية، لا يتناسب حجمها مع هيبة الكرسي، وبالكاد تكفي لفنجان قهوة وكوب ماء.

وبالجانب الآخر يضع شيشته، ويمضي الوقت وهو جالس على كرسيه، يدخن الشيشة ويحيِّي المارة أمامه برفع يده وهو ينفث دخانه.

وقد كان «عبده» شديد الإخلاص والولاء لـ«بَكر»؛ لأنه أواه من الفقر المدقع، ونجَّاه من كثيرٍ من السوء الذي ربما كان ينتظره، وشر الشوارع المجهول.

فلم يكُن «عبده» يعرف أهلًا له منذ مولده إلا امرأة عجوزًا كانت تسرح به في السيدة زينب منذ أن كان طفلًا رضيعًا، ولا أحد يعلم إن كانت من أقاربه أم لا، حتى توفيت ذات يوم على الرصيف، وهو جالس بجانبها ولم يكُن قد تعدى وقتها خمس سنوات.

حملها مَن حملها مِن الناس في الشارع دون أن يراه أو يلتفت إليه أحد، رحلت عن الدنيا وهو مكانه ينظر حوله لا يعرف أين يذهب أو ماذا يفعل، لم يبكِ وقتها ولم يكُن يعرف أي شيء، ظل جالسًا على الرصيف وحيدًا، ينظر حوله نظراتِ تائهٍ وسط زحام البشر أمام عينيه، فإذا به يسمع صوت «بَكر» يناديه من الرصيف المقابل له، فقام حينها يركض نحوه بلا تفكير.

فلم تكُن تلك المرة الأولى التي يراه فيها، تذكره «عبده» جيدًا آنذاك، وله موقف معه لا ينساه أبدًا، حين نهر «بَكر» العجوز قبيل وفاتها بأسابيع قليلة؛ لأنها تجلس تحت لهيب

الشمس في يوم صيفي شديد الحرارة، ولم تبحث عن ظل لـ«عبده» الذي احترق وجهه من أشعة الشمس وبدت ملامحه كطفل يحتضر، يتذكر صوته جيدًا وهو يقول:

ـ الواد هيموت منك! اترزعي يا ولية في حتَّة ضلة ولا خديه في حضنك الله يفقرك.

وعندما سمعها تقول: «قوم يا واد يا مرقس تعالى على حجري»، يتذكر جيدًا رد «بَكر»، قال لها آنذاك: «مرقس»؟! طب ما لما هو «مرقس»، جاية ليه تشحتي قُدّام باب السيدة يا ولية؟ ما تروحي اليمَّة التانية!

أشاحت العجوز بوجهها ولم ترد، وظلت عينا «عبده» تتابع «بَكر» وهو يرحل، يفكر في كلماته ولا يفهمها، لكنه أحبه وحفظ وجهه لحظتها؛ لأنه لفت نظر العجوز لمعاناة الصغير، وأصبحت تراعي أن تحتضنه وتضع يدها فوق رأسه خشية من أن ينهرها أحد آخر بدلًا من أن يعطيها ما فيه النصيب.

تذكر كل هذا بذاكرة طفل وركض إلى «بَكر» الذي يناديه، لينقذه من شروده وخوفه.

أنقذه في البداية من ضربة شمس محتملة.. وظهر لينقذه مرة أخرى من ضربات المجهول في ظلام الشوارع.

أحضره معه آنذاك إلى المحل وكان أول ما قال له:

ـ بص يا واد، أنا هاسمّيك «عبده»، تكبر بقى تطلع عبد الله، عبد المسيح.. دي تخصك.

وأخبره آنذاك بما كان يُقال عن المرأة العجوز وتضارب الأقوال في حي السيدة؛ فمن الناس مَن يقول إنها جدته وتسرح به لأكل العيش، وآخرون قالوا إنها اختطفته وهو رضيعٌ عُمره أيام.

حدّثه «بَكر» كثيرًا ثم اختتم كلماته وهو ينظر إلى عينيه، بمقولة يتذكرها «عبده» كل ليلة:

لا تخَف.. يومًا ما سيرشدك قلبك.

هزّ رأسه إيجابًا دون أن يفهم ما الحِكَمة المستترة خلف كلماته، ودون أن يفهم أي شيء آخر، وكيف يفهم طفلٌ ذو خمس سنوات ما تعنيه تلك الكلمات، كل ما أدركه حينها أنه منذ تلك اللحظة سيصبح اسمه «عبده».

اشترى له ملابس بدلًا من ملابسه البالية التي كان يرتديها، وحذاء جديدًا بعد أن كان حافي القدمين.

وكان «بَكر» يُعامل «عبده» بطيبة وقسوة في الوقت ذاته، تارة يصرخ فيه لأن بعض الأشياء في المحل ليست مُرتبة كما علَّمه، وتارة أخرى يشتري له بعض الحلوى في طريقه إلى المحل؛ لأنه في قرارة نفسه يدرك صغر سنه.

يشعر «عبده» في قرارة نفسه هو الآخر أن معلمه في الحياة هو الحاج «بَكر»، وكان درسه الأول له حينما شعر بالغيرة، عندما قرر «بَكر» إحضار صبي آخر لمساعدته بعد مرور خمس سنوات على عمله بالمحل، وفور أن أخبره «بَكر» بذلك بكى، بكى بكاء طفل يبلغ عشرة أعوام.

ضحك «بَكر» وقتها على بكائه.. وقال له:

ـ ماتخافش يا واد، انت الريس على أي حد ييجي هنا، بس اتعلم حاجة مهمة، المَرَة تعيط وتولول عادي، العيال اللي قدّك تعيط، قطط الشوارع، الراجل يعيط بس لو أمه ماتت، أما الرّيّس بقى مابيعيطش.. فاهم؟ المريسة ماتمشيش مع البُكا يا واد..

عايز تفضل الكبير هنا وتبقى الريس ع اللي ييجي معاك، لو جبتلك عشرة يساعدوك ماتخافش، دا انت تقوى أكتر وتخشنّ كدا وتفرد نفسك.. ساعتها أنا همشيهم لما أحس انك قدها.

وتعلَّم «عبده» الدرس جيدًا ولم يبكِ بعدها أبدًا.

مرت السنوات ليكبر «عبده» على يد سيده حتى اشتد ساعده، وأصبح شابًّا يافعًا شديد الوسامة، شعره ثقيل ناعم، وابتسامته عريضة، كما أنه خفيف الظل، لا يضحك «بَكر» من قلبه مثلما يضحك على قصص «عبده» وطرائفه.

واختار «عبده» أن يعيش هكذا، دون أن يبحث عن أصله، وبلا رغبة لديه في ذلك، أصبح المحل موطنه والسيدة زينب بكل شوارعها وحواريها هي كل ما لديه، ولا أهل له سوى «بَكر».

أحسَّ «بَكر»، مع مرور الأعوام، بعاطفة الأبوة تنمو بداخله تجاه «عبده»، يعلم أنه حتمًا أفضل من ابنه «عدوي»؛ لقد ضل الأخير طريقه وخيَّب ظن أبيه الذي اعتقد أنه سيرث صفات المثابرة منه، وجينات «الجدعنة».

فأصبح يُعامله بلا اكتراث، لا يلومه على خطأ ولا يرشده إلى صواب. يدرك «بَكر» في نفسه، تمام الإدراك، أن الصلاح يأتي من القلوب، وأن الدنيا هي المُعلم الكبير وهي مصنع الرجال.

***

غاب النوم عن عيني «حِكَم» على غير العادة، مكثت تتقلَّب في سريرها بتأفُّف ثم قررت أن تقوم. وجدت ابنتها «نجية» تجلس في صالة البيت في صمت، ولولا إضاءات الشارع التي دخلت بشكل خافت من خلف النوافذ الخشبية لما رأتها.

ـ باسم الله! إيه اللي مسهرك يا بنتي لحد دلوقتي؟ وقاعدة في الضلمة كدا ليه؟ بتحضّري أرواح؟!

ـ لا مافيش يا ماما، عادي قاعدة، شويّة كدا وهادخل انام.

ـ طب شغّلي يا بنتي التليفزيون شوفيلك حاجة ولا سلّي نفسك.

ـ مش عايزة.

تنهدت «حِكَم» بلا حيلة:

ـ طب قومي اعملي لنا كوبايتين شاي، عبال ما ادخل الحمام، وتعالي نقعد في البلكونة شويّة.

أومأت «نجية» برأسها إيجابًا وقامت لتعد الشاي، مرت دقائق قليلة لتعود وهي تحمل كوبًا واحدًا، ووضعته على الطاولة الصغيرة التي تتوسط الكرسيين، بينما ظلت «حِكَم» سارحة في الشارع، تأكل من لُب البطيخ المجفف بجانبها.. عادتها في الليالي الصيفية أن تضعه في صينية على سور الشرفة حتى يجف.

ـ ماعملتيش لنفسك ليه؟

ـ مش عايزة يا ماما.

ـ مسممم.. مش طالعة لأمك خالص يا «نوجة»، دا أنا لو يعصروني أنزّل شاي، من وانا حتة عيلة قد كدا، كنت اشرب كوباية الشاي حتى لو باردة متلجة واتمزّج بيها.

ابتسمت لها «نجية» في وقفتها دون أن تعلق على كلماتها، فأشارت لها «حِكَم» على الكرسي الخشبي الذي أمامها:

ـ اقعدي معايا شويّة لحد ما يجيلك نوم.

أطاعت «نجية» طلب والدتها، جلست وهي تسند ذراعها إلى السور، تنظر إلى الشارع الذي بدأ يخلو من الزحام، وخفَّ صوت أبواق السيارات الكثيف، مقارنةً بساعات الذروة بالسيدة زينب.

كانت تلك المرة من المرات القلائل التي تطلب فيها «حِكَم» الجلوس مع ابنتها، ففي العادة «نجية» لا تشاركها الحديث وتعيش كأنها وحيدة، لا تتحدث كثيرًا ولا تفعل شيئًا يُذكر، وعلى الرغم من هذا، «نجية» لديها فطنة مختبئة وعقل واعٍ لا يكف عن التفكير، لكنها اختارت بإرادتها هذا الاختباء، ارتدت عباءة السكون، وفضلت نظرات البلاهة على أن تدخل في نقاش طويل مع أي إنسان.

تحمل الردود المنطقية وعبء قولها في آن واحد..

وكان الوحيد الذي يعلم جيدًا هذا الأمر هو أباها؛ فقد كانت الوحيدة من أهل بيته التي يحب التحدث معها، ولو لدقائق قليلة في يومه، فيخبرها بأحداث متفرقة تخصُّ تجارته، أو يشكو لها أمها لأنها لم تكوِ له قميصه جيدًا، بينما تظل «نجية» أمامه مبتسمة بلا إجابات مريحة، فقط بضع كلمات مقتضبة.

وأحيانًا ما كان «بَكر» يداعبها وهي تمر أمامه بالبيت قائلًا:

ـ آه منك يا سُهنّة انتي.. فاهمة كل حاجة وعاملة عبيطة.

كما كانت «نجية» الوحيدة على وجه الأرض التي سلِمت من دعوات أبيها بالفقر وسبّاته.

وظلت «نجية» جالسة أمام أمها في الشرفة، تنظر بلا هدف إلى السيارات المارة في الشارع، إلى أن توقفت سيارة صوت أغانيها مرتفع، وهبطت منها جارتهم «عايدة».

نظرت «حِكَم» بإمعان تتابعها ثم قالت:

ـ ربنا يحفظ بناتنا.

التفتت «نجية» إلى والدتها تسألها:

ـ مِن إيه يا ماما؟

هبّت «حِكَم» واقفة من جلستها لتتابع «عايدة»، وقد بدا أن جسدها سيقع من الشرفة إن مالت أكثر من ذلك..

ـ مش شايفة الملعونة اللي ساكنة قصادنا؟ راجعة بعد نُص الليل! وماعرفش مين اللي موصّلها دا، طب والله المفروض يطردوها من العمارة.

رحلت «نجية» بعينيها مرة أخرى تنظر إلى آخر الشارع.. استطردت «حِكَم»:

ـ انتي عارفة يا «نوجة».. أبلة «سنية» قالتلي إن البت دي بتشتغل رقاصة، آه والله، عشنا وشفنا يكون لينا جارة غزيّة! لأ وإيه، البت لما أتكعبل فيها ع السلم تضحكلي أوي، دي خرعتني آخر مرة لقيتها باصّالي وهي فاشخالي ضبَّها كأنها ملبوسة، ولا كأنها تعرفني!

زفرت «نجية» بلا أي تعليق منها، وكلمات أمها لا تتوقف:

ـ بس باقولك إيه، أنا ولا بعبرها.. بابص الناحية التانية علطول، أنا ماعرفش يا اختي تجيلها قد إيه دي! تفتكري من سنك يا «نوجة»؟

ـ ماعرفش.

ـ هي شكلها من سنك، لأ ولّا سنك إيه، دي أهو يجيلها كام سنة هنا لوحدها، هو شكلها اللي مابيتغيرش ولا كأنها بتكبر، لا لا مش بت عشرينات خالص، يمكن من سني أنا؟

مسممم وهو الواحد لو واخد باله من نفسه... دي البت اللي بشوفها في المسلسل التركي بيقولوا عندها خمسين سنة وتشوفيها ولا كأني مخلفاها!

رفعت «نجية» رأسها تحاول أن تشتت انتباهها عن كلمات والدتها، تنظر إلى السماء بظلمتها والقمر الذي ظهر بضوء باهت، فعلى الرغم من صفاء السماء وخلوها من أي سحب، حالت عوادم السيارات والأدخنة دون رؤية لونها الحقيقي..

أردفت «حِكَم»:

ـ الغريبة إن أبلة «سنية» قالتلي إنها وارثة الشقة دي عن أمها، مع إن من يوم ما أبوكي جابني هنا ماشوفتش للشقة دي صاحب لحد ما البت دي ظهرت، لأ وتخيلي يا «نجية» ولا حد بيقولها رايحة فين ولا جاية منين من سكان العمارة، دا حتى الحاج «أشرف» باشوفه بيسلم عليها في الشارع عادي..

أنا الصراحة بابقى حاطة إيدي على قلبي؛ لا تُقطر «عدوي» أخوكي في الطلعة ولا النزلة وتلف عليه.

شهقت «حِكَم» بشكل مفاجئ وسط ما تقوله:

ـ شوفي البت! قومي قومي يا «نوجة» شوفي بسرعة! البت مميلة جسمها في الشارع، وكل دا واقفة ترغي من شباك العربية، طب يا اختي نزلتي ليه من العربية لما ماخلصتيش كلامك؟ هه؟ يا لهوي يا «نجية»، دي حدفت جسمها كله جوّه ناحية اللي بيسوق، يا لهوي! تفتكري بتبوسه دي ولا إيه؟! قومي يا بت بصي معايا.

ـ ...

ـ أهي اتزفتت دخلت العمارة، ربنا ينجينا.

عادت أخيرًا لتجلس على كرسيها..

ـ هو اخوكي ماجاش لحد دلوقتي ليه؟ مش عارفة الواد دا ماله! ربنا يهديه، وابوكي راخر كمان.. دي الساعة عدت واحدة!

ـ أنا داخلة انام يا ماما، عايزة حاجة؟

ـ شوف البت؟! هتسيبيني لوحدي كدا؟

ـ ادخلي انتي كمان نامي.

تثاءبت «حِكَم»:

ـ عندك حق يا «نوجة»، هادخل انام، دا يا دوبك عشان هاصحى بدري، بس مش عارفة.. مش عارفة إيه اللي مسهرني كل دا، ما انتي عارفاني، دا أنا بانام مع الفراخ.. مسم.. ياه! فين أيام تنويم الفراخ وبيتك بيتك، ولا يمكن عشان شربت قهوة النهارده عند أبلة «سنية» بعد الشاي؟ أنا أساسًا ماليش فيها و...

ـ أنا بانام على نفسي يا ماما، تصبحي على خير.

***

جلس «بَكر» على كرسيه يدخِّن الشيشة وهو ينظر بتفحُّص إلى الزبائن المزدحم بهم المحل الذي أمامه، بينما لم يحضر كثير من الزبائن إلى محله اليوم.

ـ ولا يا «عبده».. «عبده»!

ركض «عبده» من داخل المحل فور أن سمع صوت «بَكر»..

ـ هو فيه إيه النهارده؟ مولد السيدة؟!

نظر «عبده» إلى اتجاه عيني «بَكر»، ففهم قصده.

ـ عاملين عروض يا عم «بَكر»، ادُّوا عيل شوية ورق مطبوع يوزعه ع الناس من أول الشارع.

ضرب «بَكر» «عبده» ضربة خفيفة بعصا الشيشة.

ـ إعلانات يعني، عاملين إعلانات، ناس بتفكر، وانت قاعد طيشة، وشايف المحل بينشّ، وقاعد زي الست المحتاسة جوّه يفقرك ربنا، مش الواد اللي عندهم صاحبك؟ روح اعزم عليه بسيجارة وهاتلي ورقة من اللي هببوه دا أشوفها.

وثب «عبده» خطوتين واختطف بخفة ورقة من الأرض، مسحها في ملابسه ثم أعطاها «بَكر»:

ـ أهي يا حاج، تلاقيها وقعت من حد من الزباين.

ـ يا أهبل تلاقيه رماها، هي الناس ناقصة زبالة فوق زبالتها؟! هات هات وريني.

نظر إليها «بَكر» ثم قرأ بصوت مرتفع وكأنه يقدم نشرة أنباء:

ـ الحق قبل أي حد...

يلحقوا إيه لحقهم ربنا؟! كرمش الورقة بيده ثم ألقاها مرة أخرى على الأرض.

ـ ولا يا «عبده»، من بُكرة تأجر مكرفون ولا تشوف تجيبه من أي داهية، وتمشيلي في كل الشوارع اللي جنبنا، عايزك تعدي جنب كل محلات الأكل في السيدة عشان الناس تملا بطنها، وتجيلنا، وتقول إن عندنا أفضل العروض على اللبس والأقمشة وخصم ٢٠ المية كمان.

ـ أوامرك يا عم «بَكر».

***

ـ لأ أنا ماينفعنيش الكلام دا يا «حسن»! المصنع دا مابقاش جايب همه، أنا بالمجهود اللي اتعمل فيه كان زمان عندي ميت مصنع غيره.

ـ أيوه بس يا «علي»...

ـ لا لا لا لا معلش، من غير بس ومابسّش، احنا اخوات برّه الشغل، بس أنا متفق معاك انت واخوك من أول يوم على نقط محددة، آجي النهارده ألاقيك تقولي كله ياكل زي التاني؟! هو اللي دافع قرش زي اللي دافع عشرة؟ هي سويقة؟! دا في عرف مين يا «حسن»؟ ما لو كدا خلاص، أروح اشوفلي أنا مصنع تاني من بُكرة ونفك الشراكة هنا، أنا أصلًا مش ملاحق على المحلات ومش فارقلي المصنع، فنفُضها..

مكث «حسن» يستمع إلى كلمات أخيه الغاضبة عاجزًا عن إرضائه.. ينقل نظرات عينيه بين «علي» وصورة والده المعلقة خلفه.. يرتدي فيها بدلة سوداء وعلى وجهه ابتسامة جادة، وبيده سبحة برتقالية اللون من أحجار الكهرمان الأصلي، ثم يسرح في السبحة نفسها التي وضعها «علي» أمامه على المكتب.

ـ فيه إيه بس يا «علي»؟ إحنا بنتناقش، هو كل مشكلة تقولي نُفضّها؟

ـ بنتناقش في إيه؟ دي مش مناقشة، دا خبل، وبعدين فين الباشا أخوك من الليلة دي كلها؟ هو بيديك الأوامر وهو قاعد باشا مش فاضيلنا ولا حتى فاضي لعياله اللي راميهم.. وكل شويّة يكلموني طالبين مصاريف عشان مش عارفين يوصلوا لأبوهم؟!

ـ إيه اللي بس جاب سيرة ولاد «عادل» في موضوعنا دلوقتي؟

ـ الله! طب مايكلموك انت.. لكن لأ، أبوهم مفهّمهم إن أنا البنك.. أنا اللي بادفع من جيبي ليهم كل ما يحتاجوا ومابأجيش آخد منه، وفي المقابل أخوك بياخد نصيبه تالت ومتلت رغم إنه مايعرفش الهوا عن اللي دايِر في المصنع.. وكل شويّة يروح يلفّله على واحدة وسخة، يصرف عليها قرشين ويتجوّزها ويرميها.. وهكذا. تيجيلي انت على أي أساس تقولي أصله عايز يزوّد من نسبته في الربح، وهو لا بيعتِّب المصنع ولا داري عنه؟! وبعدين بطّل تعمل المحامي بتاعه، هو لو عنده حاجة ييجي يقولها بنفسه.

ـ مايصحش برضه يا «علي»، دا أخونا الكبير.

أخذ «علي» سبحته من على المكتب بعصبية وقام ليخرج من مكتبه، ثم نظر إلى أخيه قبل أن يخرج من الباب:

ـ باقولك إيه يا «حسن».. الكبير كبير بأفعاله، واخوك من يومه كل أفعاله بتصغّرنا، مش عايز كلام تاني في الموضوع دا.

***

أخذ «عدوي» علبة السجائر من بائع الكشك ثم ألقى ثمنها أمامه، وركض إلى أصدقائه الذين وقفوا ينتظرونه في الجهة الأخرى من الشارع.

ـ جبت بفرة معاك؟

ـ لأ، «فرج» هو اللي واقف في الكشك، مش ابنه، وهو راجل لسانه لسان مَرَة، هيروح يقول لأبويا ابنك «عدوي» اشترى دفتر، مش ناقص قرف.

ضحك محمود ساخرًا ثم قال:

ـ ايه يا «عدوي»! دا انت مش راجل يلا! انت بتخاف من أبوك وانت شحط كدا؟ يا عم دا أنا بالف السيجارة وأخمّسها مع الحاج..

أخذ «محمود» ثمن دفتر البفرة من «عدوي»، وعبر الشارع ليشتريه..

سار الثلاثة بعد ذلك بعضهم بجانب بعض إلى مكانهم الخاص في آخر الشارع؛ حيث تمضي الساعات وهم يدخّنون سجائر البانجو ويتحدثون عن مفاتن النساء والقصص المثيرة، مَن خانت زوجها ومَن فقدت عذريتها مع صاحب لهم، كما يشاهدون مقاطع ساخنة على هاتف محمود قورة، حيث إنه الهاتف الأحدث بين ثلاثتهم، كما أنه الأكثر اطلاعًا وعلمًا بخفايا الإنترنت.

ويتفاخر «قورة» أنه أكمل عامين بمعهد الحاسب الآلي، يقول لهما دائمًا إن شهادته أُرسِلت إلى الخارج لتعود وهي تحمل توقيع «بيل جيتس».

ويهز «عدوي» وصديقهما الثالث رأسيهما بجدية تصديقًا لكلماته، وهم لا يعلمان من هو «بيل جيتس»، لكنهما يعتقدان أن ما يقوله لهما صديقهما «محمود» ـ أو «قورة» كما يناديه الجميع منذ صغره لكبر جبينهـ أمر مهم وذو شأن.

ويتابع «عدوي» دقائق المشاهد الساخنة باهتمام أقل بكثير من صاحبيه وبلا اكتراث؛ فلم يكُن يلتفت للنساء الجميلات ولا تثيره مفاتنهن.. وكان يفضِّل سجائره الملفوفة التي تخدِّر خلاياه.

كان الأمر الوحيد الذي يشاركهما فيه بجدية، هو مضايقة كل مَن يمر أمامهم، واستهزاءهم، سواء بالرجال أو النساء أو حتى العواجيز، وكان «عدوي» بجانب مشاركته تلك، يُلقي نظرات حاقدة على كل من يلمحه في مثل عمره بداخل سيارته، يتعمد ركل أي سيارة يراها بقدمه أو إحداث أي خدش بها، حتى إنه في إحدى المرات نقش اسمه كاملًا على صاج سيارة متوقفة.

يحقد بشكل أكبر على والده الذي رفض شراء السيارة المستعملة «اللقطة» التي عرضها عليه.

وكان رد «بَكر» حينها:

ـ لمَّا رجلك تتقطع أجيبهالك.

وعلى الرغم من أن جلساتهم لا تخلو من صوت ضحكاتهم المرتفعة، فإنها عادة ما تحمل كثيرًا من شكواهم أيضًا ولعناتهم واعتراضهم على أقدارهم، ويحمِّلون كل شيء في الكون شعورهم بالفشل واللاقيمة..

ويشكو «عدوي» دائمًا والده الذي بالكاد يعطيه مصروف يده ولا يسمح له بأن يقف معه في محله، ويطالبه بالعمل والسعي لكسب الرزق، كما يسب ويلعن محبّة والده لـ«عبده» الذي يشعر بأنه فضَّله عليه، وجعله يده اليمنى في كل شيء، ويزيد صاحباه الأمر سوءًا قائلين:

ـ يلا دا مش بعيد الواد دا اللي يورث أبوك مش انت، دا كل اللي في السيدة مسميينه عبده العدوي، اسمه راكب فوق اسمك يلا، وراكبك!

يسبهما بعصبية على ما يقولانه، لكنهما يضحكان على ضيقه وتبدُّل ملامحه، أما هو، فيثور بداخله بركان الغيظ والحقد بشكل أكبر لا ينطفئ.

***

تدّعي «سنية» عادةً أن بيتها لا تسكنُه هي والقطة «مستكة» فقط..

وإنما يشاركها آخرون من العالم الآخر، وتُلقي باللوم عليهم لاختفاء أي شيء من بيتها، وكانت «حِكَم» تصدقها، فلم تخلُ طفولتها في صعيد مصر من قصص الدجل وندَّاهة الحقول، والرجال ذوي أقدام الحمير، الذين يخرجون في الفجر قبل استيقاظ المزارعين، لكن «سنية» كانت تنهرها عندما تحكي لها القصص القديمة التي رحلت معها من قريتها إلى القاهرة:

ـ حمير مين يا حمارة انتي؟ هي السيدة يسكن فيها روح برجل حمار! اللي في بيتي دي روح طاهرة بس غاوية تغلّبني وتخفيلي الحاجة، بقالي ييجي أسبوع أهو ولا أكتر بادوَّر على كيس السكر، وآخر ما لقيته، لقيته تحت الكنبة وملفوف لفة يا بت يا «حِكَم»، ماتدخلّهوش هوا عشان مايرطبش، مش باقولك روح طاهرة؟!

سرحت «حِكَم» وهي تنظر إلى جارتها:

ـ استني بس يا أبلة، مش احنا الأسبوع اللي فات واحنا قاعدين ع الكنبة هنا، طلبتي كيس السكر عشان مالقّمتلكيش الشاي حلو؟ وساعتها انتي اللي لفتيه وشيلتيه، شفتي بقى ظلمتي اللي معاكي؟!

ـ اخرسي يا بت، أنا ماشيلتش حاجة في حتة، هُمَّ اللي شالوها، إيش درّاكي انتي؟ أنا اللي عارفة أمور بيتي.

نظرت إليها «حِكَم» في صمت وهي تُفكر، تُعارض ذاكرتها بل وتحاول إقناع نفسها أن ما تقوله «سنية» أمر لا يحمل أي شك.

ثم أفاقت من تفكيرها فجأة:

ـ اسكتي يا أبلة «سنية»، ماحكيتلكيش داك اليوم كنت سهرانة أنا والبت «نوجة» في البلكونة، ألاقيلك مقصوفة الرقبة اللي ساكنة قصادنا راجعة نص الليل ونازلة من عربية بطول العمارة.

ضحكت «سنية» على كلمات «حِكَم» وقالت:

ـ مسممم، «ديدي» هو فيه زيها؟ دي لبؤة حي السيدة، عربية كان لونها أسمر يا بت، صح؟

ـ أيوه، وفضلت ترغي مع اللي جواها ييجي نص ساعة قدام البيت، قال يعني الكلام ماخلصش وهي راجعة.. إلا قوليلي يا أبلة، هو انتي حضرتي أمها ولا أي حد من قرايبها؟ أصل أنا أهو بقالي ييجي ٣٠ سنة هنا ماشفتش حد ساكن البيت دا قبلها، لحد ما اترمت علينا من ١٠ سنين وقاعدة بطولها القادرة، وانتي يا أبلة كل السنين دي ماحدش عتّبها عندك برضه!

ـ أما صح ولية حشرية، انتي هتبصيلي يا بت في قعدتي لوحدي ولا هتقارنيني بالرقاصة يا معفنة؟ ما انتي عارفة إن من يوم ما الحاج مات وابني سافر ماعرفش عنه حاجة،

وبعدين ما انا قلتلك إن بنتي بتيجي كل فترة تشأّر عليَّ!

ـ اللي عمري ما شفتها؟!

دفعت «سنية» كتف «حِكَم» بقبضة يدها:

ـ وتشوفيها ليه؟ انتي مالك؟ انتي حاشرة نفسك ليه؟ ماتخليكي في حالك! يخربيتك حشرية وبصرم صحيح، قومي يا بت اطلعي بيتك ولا اتنيلي روحي اعملي لقمة لجوزك قومي.

***

مرَّ نصف ساعة ولا تزال «لينا» مائلة بجسدها على كتف حبيبها «آسر»، تلاعب ذقنه بأناملها، بينما انهمك في هاتفه يتفحَّص بريده الإلكتروني، ويرد على بعض الرسائل المهمة التي وصلته.

ـ bab.

ـ هممممم..

ـ هممم إيه؟! أنا شويّة ومروحة، يعني خليك معايا بعد إذنك، مش أسلوب بجد.

ـ سوري حبيبي معلش، باكتب حاجة مهمة جدًّا، ثانية وحالًا هاكون معاكي.

التزمت الصمت لثوانٍ معدودة.

ـ bab.

ـ بليز يا «لينا»، أرجوكي دقيقة لو سمحتي.

تأففت ثم اعتدلت في جلستها بجانبه:

ـ يعني انت مقوِّمنا بدري وماكملناش عشا مع «مارينا» وصاحبها عشان تفضل واقف في الباركينج بتشتغل؟

لم يرد عليها، أكمل كتابته، وفور أن أنهاها ألقى هاتفه بحركة سريعة على المقعد الخلفي للسيارة:

ـ Done!

ـ Really!

بعد إيه بقى؟ بقالي ساعة جنبك وانت تك تك تك Typing typing!

ضحك «آسر» على تعصُّب «لينا» الطفولي:

ـ سوري يا «لولي»، مشغول والله.. فيه ناس هتوصل بُكرة من نيويورك ولازم أظبّط كل حاجة معاهم بتوقيتهم، وبعدين انتي عارفة أبويا حاطط كل شغل الشركة على دماغي. غير كل دا إحنا متفقين إني هاجي أقعد معاكم شويّة واقوم، أنا ماضحكتش عليكي.

ـ لا مش مسامحاك بجد، طيب يلّا ندخل لـ«مارينا» تاني.

نظر إلى ساعته:

ـ لا، ندخل إيه يا «لولي»؟ أنا لازم أروّح، بُكرة عندي ضرب نار، انتي عايزة ترجعي تقعدي معاهم its your call.

ـ آها، أوك براحتك.

فتحت باب السيارة لتخرج منها، ثم نظرت إليه:

ـ بس افتكر كويس أوي إن «لولي» مش مسامحاك.

ضحك «آسر»:

ـ ماشي، نتصالح بعدين.

صفعت «لينا» باب سيارة «آسر» وتحركت بعصبية إلى سيارتها، ولم ينتظرها «آسر»، أدار سيارته ليرحل بها.

وكان «آسر» فتى أحلام «لينا» الأوحد، تحبه بشدة وتعامله وكأنه ملك لها، ومن جهته كان لا يبادلها المشاعر نفسها، لكنه لم يصدّها يومًا، فيتركها تمسك يده إذا جلست بجانبه، ويجيبها بـ«وانا كمان» إن أرسلت إليه تقول إنها تفتقده.

ومن قال إن الافتقاد ينحصر في العلاقات بين الأحبة؟!

لم تكُن تعرف أنه يعامل الجميع مثلما يعاملها، وكان «آسر» يسبقها في الأعوام الدراسية بالجامعة وتخرَّج قبلها، ويعمل في شركة والده المتخصصة في استيراد الأجهزة الإلكترونية.

كما كان أكثر ما يجذب «لينا» له هو وسامته الشديدة، جذّاب للغاية، طويل البنية، رياضيّ، حاصل على ميداليات ذهبية في السباحة والملاكمة، تبرز عضلات ذراعيه من قميصه، بوجه قمحي ذي ملامح منحوتة كتمثال روماني، وعينين سوداوين لهما رموش طويلة تكاد تلامس جفنيه، كما أن أسنانه شديدة البياض وابتسامته مثل اسمه، تأسر من يراها.

انتهزت فرصة معرفته بأصدقائها لتتقرَّب منه وتلاحقه بمكالماتها وإلحاحها الدائم لمقابلته..

وكانت «لينا» بدورها متوسطة الجمال، عادية، كتلك التي تراها وتقول: أعتقد أنني رأيتها من قبل!

لا شيء فيها مميز سوى أسلوبها الطفولي المُتعمّد.

***

استيقظت «حِكَم» مشدوهة كأنها في أضغاث أحلام على صوت صراخ ابنتها، هبَّت من السرير وهي تنظر بجانبها، فوجدت زوجها بجانبها يغطُّ في نومه وصوت شخيره يكفيه لكي لا يسمع شيئًا آخر.

هرعت لتخرج من الغرفة، فهالها ما رأته؛ وجدت «عدوي» منقضًّا على أخته يضربها بشدة، وهي تحاول بلا قوة تُماثله الإفلات منه، ركضت نحوه وهي تصرخ فيه، لكنه كان كمجنون لا يسيطَر عليه.

دفع والدته بيده لتقع أرضًا، صرخت بأعلى صوتها تنادي «بَكر»، وكان سائر جسدها يرتعش وتتنفس بصوت مرتفع وكأنها تأخذ أنفاسها الأخيرة.

استيقظ زوجها أخيرًا، وخرج من غرفته ففزعت عيناه مما رآه، كان فم ابنته ملطخًا بالدماء، وأخوها ممسك بشعر رأسها كأضحية على وشك أن تُذبح.

ركض نحوه وبكل ما أوتي من قوة صفعه على وجهه، صفعة كادت تهتز لها جدران البيت.

أفلت «عدوي» أخته أخيرًا وهو ينظر بعينٍ ملأها الغيظ إلى أبيه، لوَّح بيده غاضبًا وهو يتمتم بسباب ولعنات، فأمسك والده المزهرية التي على الطاولة بوردها المجفف ليلقيها عليه وتنكسر ويتفتت وردها متناثرًا في الهواء، عدا وردة وحيدة ظلت سليمة ملقاة على الأرض، ولم يحاول «عدوي» تفادي المزهرية الزجاجية.. فتح باب البيت ليخرج وتلاحقه كلمات أبيه التي كاد يسمعها كل من يسكن بعمارتهم:

ـ إياك تعتّب البيت دا يا كلب يا ابن الكلاب يا ***** الله يفقرك يا «عدوي».. الله ياخدك!

أغلق «بَكر» باب البيت خلف ابنه، ثم سحب كرسيًّا بجوار طاولة الطعام ليجلس عليه وقد ظهر عليه إعياء مفاجئ.

اقتربت منه ابنته باكية وهي ترتجف:

ـ والله ماعملتله حاجة يا بابا، والله ماعملت حاجة، دا دخل يصحيني فجأة وهو بيزعق وبيقولي أديله فلوس، وحلفتله إن معييش قام جرني من شعري لحد الصالة وفضل يضرب فيّ.

ـ اسكتي خلاص، اسكتي يا «نجية»، ادخلي اغسلي وشك.

تركته لتسير بخطوات بطيئة وبصوت بكاء مرتفع ليصرخ صرخة أخيرة في فجر هذا اليوم أن كفى! وصاح يأمرها:

ـ قلت خلاص يا «نجية» كفاياكي نواح، اغسلي وشك وادخلي نامي.

وكانت «حِكَم» لا تزال في مكانها منكمشة بلا حيلة ولا تدري ماذا حل بابنها، لا تدري كم الساعة ولا في أي يوم هي، هي حتى لا تعرف كيف مرت السنوات عليها وكيف قامت بتربيتهما، هل ما حدث الآن هو خطؤها؟ أهي التي ربت ابنها لكي يصبح بهذه القسوة وابنتها بهذا الضعف إلى حد أنها لم تكُن تدافع عن نفسها ضد ضربات أخيها! أم هذا الرجل الذي يقبع أمامها بوجه حزين لم ترَه من قبل، وقد كان لا يسمح لها أبدًا بالتدخل في شؤون ابنها منذ طفولته وعصيانه المبَكِّر؟! جالت عيناها بين فتات الورد المجفف والزجاج المكسور الذي تناثر في أرجاء الصالة، ولمحت الوردة التي تماسكت ولم تتفتت، فانقبض قلبها.

لطالما أرادت التخلُّص من ذلك الورد ولم تجرؤ أبدًا على فعل ذلك إلى أن حدث ما حدث الآن، لتشعر بالندم والحسرة، وتود لو أن تجمع كل الفتات وتعيده مرة أخرى.

ـ فزّي هاتيلي كوباية ميه، ريقي ناشف.

قفزت «حِكَم» من مكانها وارتعبت لسماعها «ريقي ناشف».

وكأنَّ من يجف حلقه سيموت، هرعت تناوله كوب الماء، شَربه على دفعة واحدة، وقام ليعود إلى غرفته، ظنَّت أنه دخل ليكمل نومه، وركضت تبحث بين الأرفف عن مزهرية أخرى لتضع فيها الوردة الأخيرة حتى وجدت واحدة أخرى صغيرة بداخلها عملات معدنية، أخرجت العملات منها ووضعت بداخلها الوردة التي حملتها برفق وحذر.

وخرج «بَكر» مرة أخرى من غرفته بعد بضع دقائق.. نظرت إليه وهي تضع المزهرية في منتصف الطاولة.. رأته وقد بدل ملابسه:

ـ على فين يا حاج؟

لم يجبها.. اتجه نحو باب البيت وخرج.

***

كانت الساعة قد تعدت الرابعة صباحًا، بدا الشارع خاليًا في طريقه الذي لم يكُن يعرف إلى أين يأخذه، كانت خطواته بطيئة، يزحف بنعليه وكأنه لا يقوى على رفعهما للمضي في مشيته.

أخذته قدماه إلى مسجد السيدة زينب، خلع عنه حذاءه، ودخل ليجلس في زاوية وحيدًا.

لا يرى أمامه سوى أفكاره وتشتته، غلّفه حزن غريب عليه لم يختبره من قبل.

وتذكر نظرة ابنته إليه عند خروجه من الغرفة، نظرة تتوسل النجاة، فدمعت عيناه، انتابته رعشة عندما أدرك دموعه، لا يتذكر أبدًا أن هناك يومًا قد دمعت فيه عيناه من قبلُ، والآن وهو على مشارف الستين من عمره وقد ابتلَّت عيناه للمرة الأولى.

تنهد بصعوبة:

- يابُوي..

مسح عينيه بكفه، ثم انحنى بجسده لينام على جانبه وقد وضع كفيه تحت رأسه كوسادة، انهمرت الدموع من عينيه بلا إرادة منه، وبرزت عروق وجهه من شدة البكاء.

تذكَّر والدته التي تُوفيت منذ سنوات بعيدة بضربة قوية على رأسها من والده أمام عينيه، لم يبكِ حينها، ظل شاردًا لأيام بعد وفاتها.

وتذكر والده الذي أكله المرض بعد أشهر قليلة من رحيل أمه، وظل طوال عمره لا يشعر بالحزن على والده محدِّثًا نفسه بأنه عقاب من الله لا محالة.

مرت أمام عينيه سنوات عمره، كفاحه حتى وصل إلى ما وصل إليه، ظل يبكي ولا يعلم من أين أتت كل هذه الدموع، وكأنَّ دموعه تنتقم لاختبائها بداخله منذ طفولته، تنتقم لأنه لم يسمح لها بالخروج من عينيه يوم موت أمه، وقد تحررت منه الآن.

***

كانت هذه هي المرة الأولى التي يحدث فيها أي نوع من العنف الجسدي في هذا البيت، غلَّفت الإهانات والسباب حياة «حِكَم» منذ زواجها، لكنها أبدًا لا تذكر أنه في يوم من الأيام قد تطاول عليها زوجها بيده، أو حتى دفعها ولو دفعة بسيطة، كذلك كان مع ابنه، مهما فعل، كان أقصى عقاب هو أن ينهره ويسبه بأسوأ الألفاظ، لكنه لم يضربه يومًا.

كلماته عند غضبه أقوى من الصفعات وأشد إيلامًا من أي عنف قد يمارسه بقوة يده.

وظلت «حِكَم» في صالة البيت لساعات طويلة تنتظر عودة زوجها وابنها.

طلع النهار وازدحمت الشوارع، وهي تجلس خائفة لا تعلم ما الذي تفعله، كان لديها هاتف محمول صغير قديم الطراز، فكرت أن تتصل بالمحل الذي يملكه زوجها، لكنها ترددت، ولم تكُن هناك أي وسيلة أخرى لتطمئن عليه؛ فهو ليس من محبي الهواتف النقالة ولم يحمل واحدًا في يوم من الأيام، حتى هي لا تفضِّله كثيرًا ولا تحدث أحدًا عليه، فكرت في الاتصال بابنها، لكنها لا تعرف رقمه!

وكان هذا سببًا لخلاف قديم في هذا البيت عندما رفض الابن أن يعطي رقمه لوالدته قائلًا إنه لا يحب إزعاج الأمهات وإن الذي تتصل به أمه لتتابعه، ليس برجلٍ، ومحط للسخرية بين كل رفقائه.

ولكن في قرارة نفسها لم تشعر بقلق شديد على ابنها؛ لأنها تعلم أنه قوي و«يفوت في الحديد» كما يقول لها صوت عقلها.

هي حتى لم تحمل همَّ مكان مبيته؛ فـ«ألاضيشه كتير» كما يقول عنه أبوه دائمًا.

وقررت أخيرًا بنفاد صبر أن تتصل بالمحل، فأجابها «عبده» بأن سيده جاء إلى المحل مُبَكرًا اليوم ورحل منذ دقائق.. وبينما هي تحدِّثه، سمعت صوت مفتاح باب البيت، فرمت الهاتف وقفزت من مكانها تركض لتفتح قبل أن يفتح زوجها، خرجت كلماتها إليه متسارعة بصوت مبحوح وهي تخبط على صدرها خبطات متوالية بكف يدها:

ـ قلقتني عليك يا حاج، انت بخير؟

لم ينظر إليها، مشى تجاه غرفته وكأنه لا يسمعها، وقال:

ـ حضّريلي حاجة آكلها عبال ما اغسل جسمي عشان أرجع المحل.

ـ حاضر، من عينيّ يا اخويا حالًا، دا أنا هاعملك أحلى فطار.

رُدِّت إليها روحها ومكثت تقول بصوت مسموع:

ـ ربنا يحفظك، ربنا يخليك لينا يا رب.

وقررت أن تحضِّر له طبقًا من الفول المدمس وطبقًا من الشكشوكة، ثم تذكرت أنه يحب البطاطس المقلية التي عادة تُعدها في إفطار يوم الجمعة، فقررت أن تقلي له اليوم.

وأدركت، وهي تقف في المطبخ تعد طعامه، أنها لم تحاول الدخول على ابنتها والاطمئنان عليها منذ حدث ما حدث في الفجر، فثبّتت ملامحها كتمثال، وتوقفت يدها في الهواء وهي تحمل سكين تقشير البطاطس، لتتحدث بصوت مرتفع مرة أخرى وكأنها تذكرت أن لها ابنة:

ـ يا لهوي يامّا، مخك اتلحس يا «حِكَم»، أما اروح أشوف البت «نوجة».

ولكن في طريقها إلى غرفة ابنتها لفت نظرها يد زوجها على الأرض تظهر من خلف باب الغرفة المُوارب، اقتربت بخطوات مرتعشة بطيئة تناديه:

ـ يا حاج، يا «بَكر»، «بَكر»!

فتحت باب الغرفة ببطء وهي تناديه، وجثت على ركبتيها تنظر إلى وجه زوجها الملقى في سكون، تحركت يدها مرتعشة لتقترب من وجهه، ثم وضعت كفها على خده تتحسسه برفق وكأنها تخشى إيقاظه من سبات عميق..

كُل الاحتمالات مخيفة، تحاول ألَّا تُصدق أيًّا منها.

ـ يا «بَكر»، انت اتكعبلت ولا إيه؟ قوم يا راجل. يا «بَكر»، قوم.. الله! انت وقعت ولا إيه؟ يلَّا قوم، أنا هاحمر لك بطاطس، وباقولك إيه، هاقليلك بتنجان كمان. دا أنا كنت داخلة أبص على «نجية»، تصدق ماشفتهاش من ساعة الفجر؟! كويس إنها جَت في بالي دلوقتي عشان أقوّمك..

نظرت إلى وجهه تنتظر إجابة منه لن تأتي، وبدأت عيناها تبكيان كالسيول الغزيرة..

ـ يا بكر قوم، انت كل دا عشان واخد على خاطرك من الواد «عدوي»؟ ما هو انت اللي دلعته برضه..

يا «بَكر».. يا حاج «بَكر».. يا ابو عدوي!

شقّت جلبابها وصرخت حتى اختفى صوتها.

***

ما حد سالم من الهم

ولا الحصى في الأراضي

لا له مصارين ولا دم

ولا هو من الهم فاضي

ابن عروس

الفصل الثاني

التفحت «حِكَم» بالسواد، وذبلت عيناها من كثرة البكاء، تاهت في يُتمها، فمَن لها بعد «بَكر»، وما الحياة دونه؟ فلا فراق سيأتي بعد فراقه هذا، ولا فاجعة كتلك.

جلست بجانب ابنتها التي احترقت عيناها هي الأخرى من البكاء في القطار العائد إلى بلدتهم في صعيد مصر.

تتذكَّر المرة الأخيرة التي ركبت فيها القطار مع «بَكر» إلى القاهرة، اختلط ضجيج القطار على القضبان بصراخها على ألم رحيل زوجها، كرهت القطارات.

لِمَ يرتبط دائمًا صوت ضجيجها بذكرى صارخة وبألم لا يُمحى أثره؟! صوت الضجيج ملأها بالغربة المريرة في ذهابها وعند عودتها، ركبت القطار في المرة الأولى طفلة صغيرة ساذجة، وعادت اليوم امرأة كبيرة ساذجة مُنكسرة.

لكنها تعود فيه الآن بلا «بَكر»، وبثقل سنوات عمرها التي مضت.

توسَّلت كثيرًا إلى الرجال الذين أتوا بسيارة مخصصة لتسافر بجثمانه لتصاحبه في الطريق، لكن صبيَّه «عبده» رفض وكل مَن معه، فأذعنت لقول الرجال واطمأنَّت قليلًا لوجود «عبده» معهم؛ فهو يد زوجها اليمنى وابنه الذي لم ينجبه.

مر أمام عينيها جثمانه وهم يحملونه فصاحت بحروف امتلأت بأنّاتها:

ـ آاااااااه ياماااا.. الله يسامحك يا «عدوي»، ضيَّعت أبوك يا «عدوي»، ضيعت أبوك، الضهر راح، يتِّمتني يا ابني.

بدأت تحدِّث نفسها بصوت مرتفع يسمعه الركاب المجاورون لها، وحاولت «نجية» تهدئتها دون فائدة. فانهمرت مجددًا في البكاء بلا حيلة، حاولت أن تحتضن والدتها فدفعتها بقوة:

ـ سيبيني يا بنتي في حالي، الراجل راح.

ـ طب اهدي يا أمي الله يخليكي، القطر كله بيتفرج علينا.

ـ اللي يتفرج يتفرج، أبوكي راح يا «نجية»، دا كان بيحبك أوي، والله أوي يا بنتي، هو كان لسانه متبري منه بس أطيب منه مافي، أجيبه منين تاني؟

ـ يا ماما أبوس إيدك، أبوس إيدك، كفاية الله يخليكي، كفاية.

ـ بقينا ولايا ملناش ضهر، فين أخوكي؟ أبوكي مات وأخوكي من يومها ماردّش البيت! أبوكي مااااات وأخوكي مافكرش ييجي يشوفه! يا حرقة قلبي ع اللي راح يا بنتي.

جميع الركاب يجلسون على كراسيهم يسمعون كلماتها، كلٌّ يسمع بكاءها ونحيبها على زوجها، دون أي رد فعل، فكلٌّ منهم لديه ما يكفيه من الهموم.

احترق قلبها، واسودّ وجهها حدادًا على مَن رحل، مضت ساعات الرحلة في بكاء ونواح لا ينقطعان..

تُحدث نفسها، تُحدث الله، خائفة، يائسة، وبلا إرادة.

***

ـ ساعدي ستك يا «نجية» في الغدا عبال ما اريّح جتتي شويّة.

مضى أسبوع على وفاة «بَكر»، خرجت حينها البلدة بأكملها خلف جثمانه عدا إخوانه.

وقد سكنت القرية من نواح وولولة «حِكَم» وبعض من الحريم اللاتي شاركنها نواحها، على الرغم من أنهن بالكاد يتذكرنه.

ظلَّ أهل قريتها يتحاكون كيف أن جثمانه كان يُهرول إلى قبره، وأنه حتمًا رجل صالح وسينعم بالجنة وما فيها. وكانت «حِكَم» تشعر برضا وراحة لأجله كلما تذكرت ذلك، وتدعو له في سِرها وعلانيتها.

وظلت دار أبيها تستقبل حريم القرية لتلقِّي واجب العزاء، وقد عرفت «حِكَم» من واحدة من حريم القرية أن «بَكر» قاطع إخوانه قطيعة أبدية، بعد زيارة أخيرة لم تعرف عنها شيئًا قام بها بعد سنوات قليلة من زواجهما، وأنهم تطاولوا على بعضهم البعض بالأيدي وكاد أحدهم يقتل الآخر!

وحلف كبير إخوته آنذاك أنه لن يتوانى عن قتله إن عاد إلى البلدة مرة أخرى!

سمعت «حِكَم» القصة من المرأة التي لا تعرفها دون أن ترد عليها، تذكرت قوله لها منذ سنوات طويلة إن إخوانه استولوا على أرضه، لكنه لم يقُل شيئًا بعد ذلك أبدًا، فلا هي تعرف عن زيارته شيئًا ولا عن خلافه هذا، رحل بكل شيء.. ودفنت أسراره معه.

وتعجبت على حال دار أهلها التي تبدلت! فلطالما كانت تفوح رائحة الفقر المدقع من الجدران، وأسراب الناموس التي كانت لا تتوانى قديمًا في التغذي على خديها، ومصابيح الجاز التي كانت تنير ليلهم بلا كهرباء.

الآن أصبحت الدار نظيفة بتواضع، بها ثلاجة وتليفزيون ومروحة سقف!

كما بُنيت بها حجرة منفصلة وجدار يفصل المطبخ، وسلم خشبي متين يصل إلى سطح الدار، اختفت الحظيرة، والحصائر استُبدل بها سجاد كبير، وتعرجات الأرض الطينية كساها البلاط الأبيض.

ظلت «حِكَم» تتقلَّب على السرير في الحجرة بلا رغبة في النوم، تُفكر في حال دارهم بين أمس واليوم.

وبينما هي غارقة بين الماضي والحاضر، دخلت عليها أمها.. وقد أصبحت عجوزًا بضفيرتين رماديتي اللون تنسدلان من جانبي رابطة رأسها السوداء:

ـ بنتك ماعارفاش تنضف الحمام! يا زين ما ربيتي يا «حِكَم».

ـ معلش يامّا، أنا ماكنتش باوقّفها معايا في المطبخ، بالراحة عليها، «نجية» غلبانة وأبوها لسَّه ميت. ماتجيش عليها يامّا، «نجية» مش «حِكَم».

ـ «نجية» بتك في عيني كنّها «حِكَم»، فلجة جمر ووشها كيف البدر لمنور.

ابتسمت «حِكَم» ابتسامة مجهدة.

ـ آاااااه.. كان زمان يامّا.

مشت «يَمنى» خطوتين لتجلس على طرف السرير تحدث ابنتها:

ـ الحزن عدو يا بتي، إن دخل الجلب بيعصره عصر، بيكسر جتتك تكسير ما يطلعله صوت.. خليكي زي أمك جويّة.

بالك يوم ما أبوكي راح، طردت كل الحريم اللي لطموا عليه، وماصرختش عليه صرخة، وجُلت راضية: يا رب.

واخواتك الرجالة، اللي مرمي في أسوان بيشتغل دارسون، والتاني مع مرته حابساه ومانعاه يزورني! شفتي فُجر الحريم؟! حتى عياله ماخبراش أساميهم، وانتي، البت اللي حيلتي، كام سنة غايبة يا بتّي؟! وراجعالي بعروسة طولك، والسن باش والشعر شاب.

ـ بلاش يامّا الكلام دا الله يخليكي، «بَكر» الله يرحمه هو اللي كان مانعني، وانتوا عارفين.

ـ مابلومكيش يا بتي، مش لوم ولا عتاب، باحكيلك مُر الزمن اللي بلعته، وراجلك حُر في ماله وانتي كتي ماله ومماليه، هنحاسبه عاد؟! يكفي خيره علينا.

اعتدلت «حِكَم» في جلستها، لتسألها:

ـ خير إيه يامّا؟!

ـ ما ينكر الخير إلا جليل الأصل والدون، دا خير جوزك اللي فاتح بيتي ومنيمني على فرشتي مش محتاجة لا جريب ولا غريب، دا كان كل أول شهر الله يبرَّد تربته الظرف يجيني مجفول مليان بالخير.

بكت «حِكَم».. بكت بكاءً مكتومًا بلا صوت، كيف لأكثر من ثلاثين عامًا كانت تلومه في سرها لانقطاعها عن أهلها، وهو مَن آواهم مِن فقرهم؟! نظرت حولها، وشعرت به.

كل الخير الذي حلَّ على هذه الدار كان خيره، وكل جديد تعجبت لوجوده وظنّت أن أخويها من عملاه، كان من مال زوجها..

تذكرت بيتها في «حي السيدة»، كيف كانت أحيانًا تعترض على ما فيه من أثاث؟! وأدركت أن عينيها هما اللتان تريدان رؤية الأشياء بهذه الطريقة، تساءلت، هل نامت يومًا بلا عشاء! هل طلبت منه في أي يوم طلبًا ورفضه لها!

تذكرت الذهب الذي في علبتها الخشبية بدولابها، كيف أنه كان من فترة لأخرى يُحضر لها سلاسل جديدة أو أساور، وكانت لا تشعر بقيمتها لجموده عندما يهديها إياها..

وتمنت لو أن يعود إلى الحياة مرة أخرى لتشكره.

لكن الراحلين لا يعودون أبدًا، ولا ندرك قيمتهم الحقيقية إلا بعد أن يتركونا.

ـ لا وابنك عاد، مايحضرشي دفنة أبوه؟ الناس كلتها أكلت وشنا، واعرة جوي منك يا ابن «بَكر».

ـ ماتجيبيش سيرته يامّا الله يخليكي، دا أبوه راح بقهرته منه.

ـ ربك اللي بيسبّب الأسباب يا «حِكَم»..

حفيدي لكن ماشفتوش، ولو دخل عليَّ ماعرفوش، بس شكل العِرق دساس صُح، وشكله واخد فُجر عمامه اخوات أبوه.

استمرت «حِكَم» في بكائها، فربتت «يَمنى» على فخذها:

ـ جومي يا بتّي، طشي وشك بشويّة ميّه، البكا عمره ما يرجّع حبيب، جومي يا بتّي.

***

ـ مش عارفة بجد انت متأثر أوي كدا ليه يا «علي»! ما انت طول عمرك بتكرهه!

ترك «علي» الملعقة من يده ونظر إلى زوجته:

ـ بَاكرهه؟ هل أنا جيت في يوم من الأيام قلتلك أنا بَاكرهه؟ هو انتي ازاي بتخترعي حاجات من دماغك كدا يا «هدى»؟

ـ mon diue!

هو خيالي اللي كل فترة كان ييجي يشتم فيه ويقول إنه راجل غبي وبيقلدك وبيسرق زباينك، وانه... وانه...؟

ـ بسسسس بسسس يا «هدى»، إيه دا؟ انتي إيه؟ الراجل مات خلاص، أنا مابَاكرهوش، هو فعلًا كان غبي وكلامه كان دبش، وعمر ما كان فيه بينّا عمار على مدار كل السنين دي، لكن

بعيدًا عني، كل أهل السيدة بتحبه، دا اتعملّه صوان أتمنى لما أموت يحضرلي نص اللي حضروله.

حتى صبياني مقهورين عليه ولا كأن أنا اللي متّ، دا يا رب يزعلوا عليَّ كده.

ـ حبيبي بعد الشر عليك، إيه اللي بتقوله دا؟ أنا بس قصدي ماتضايقش نفسك خلاص، هتفضل يعني زعلان عليه وقالب وشك كدا لحد إمتى؟

تنهَّد «علي» وهو يتذكره، ويلوم نفسه على بعض الخلافات التافهة التي كانت أحيانًا تحدث بينهما:

ـ أنا مش قالب وشي، أنا مستغرب الدنيا بس، الراجل كان هجمة، تشوفيه طول بعرض وبصحته، يدخل من أول الشارع يسد عين الشمس، فجأة راح في شربة ميّه! وبعدين سمعت إن ابنه كمان اتخانق معاه قبلها وسايبلهم البيت ولا حضر دفنة أبوه، ومراته وبنته لوحدهم، وحاجة هم كدا ما يعلم بيه إلا ربنا.

ـ إيه التفاصيل دي كلها؟! هم إيه بس؟ إحنا مالنا بالناس دي؟ ما خلاص يعني ما يمكن جتله جلطة ولا أي حاجة، فيه إيه «علي»؟!

قام «علي» من كرسيه دون أن يكمل طعامه، وغضب لأن زوجته لا تستطيع استيعاب حزنه:

ـ تصدقي بالله؟ أنا اللي هيجيلي جلطة منك، أنا بارغي معاكي ليه من أساسه؟!

ـ مش هتكمل أكلك؟

ـ شبعت.

***

ـ بت يا «حِكَم»، أم «حامد» مرت عمك «سيد»، جت تسألني على بتك لابنها.

خبطت «حِكَم» بكف يدها على صدرها:

ـ يا نهار اسود يامّا! انتوا في إيه واحنا في إيه؟ دا أبوها لسه جتته مابردتش في تربته..

وبعدين بنتي مين ياما؟ سيبوا بنتي في حالها، مش عايزاها تخيب خيبتي الله يخليكوا.

ـ والله إنك فاجرة، دلوقيت خيبة؟! عينك اللي ندرها جرب يروح من البُكا على «بَكر» دلوقيت شايفة جوازك منه كان خيبة؟

ـ لأ، الخيبة مش إني اتجوزت «بَكر» يامّا، الخيبة اتجوزته إمتى، حتة عيلة مافاهماش حاجة في الدنيا ولا اتعلمت، وأقولك يامّا الصراحة: أنا بنتي اتعلمت مش هديها لحد إلا للي يقدرها ويشيلها فوق الراس، وهي اللي تختار.

ـ واااااه! تختار كمان؟! البنتّه يختاروا؟ والله إنك فجرتي يا «حِكَم»، وراح اللي كان لامّك.

تعصبت «حِكَم» وعلا صوتها:

ـ لا دا كان زمان يامّا! كان زمان! دلوقتي هي اللي تختار.

ودا كان رأي أبوها كمان، وكان فرحان بعلامها وعايزها تشتغل بيه، وكفاية لحد كدا ياما، أنا مش متحملة، وخلاص أنا مش العيلة أم الضفاير عشان ييجي اللي يلمني، واديكي قلتيها اللي لمني راح، ماهاقبل من بعده حد يتحكّم فيَّ ولا في عيالي.

ـ هتردحيلي عاد؟! جومي جومي، خدي بتّك وروّحي من هنه، جبر يلمك.

ـ ما انا هاروّح فعلًا يامّا، أنا قعدت اليومين دول عشان الأصول والصَح.

ـ لأ بتفهمي في الصُح يا بت.

تأففت «حِكَم» وصاحت تُنادي ابنتها:

ـ «نجية»، «نجية».. لمي حاجتك يا بنتي عشان هنمشي.

دخلت «نجية» عليهما الحجرة تسأل بأستغراب:

ـ فيه إيه ماما؟

فقالت «يَمنى» وهي تنظر بسخرية:

ـ ردي يا ماميه ع البنية..

أمك انجنت يا بتّي يا «نجية»، الله ينجيكي منها، وعايزة تمشيكوا دلوقيت كمان بعد ما السمس غابت، عايزة تطلعي م الدار وزوجك ما ربعنش! واااعرة صُح يا «حِكَم».

صرخت «حِكَم» في ابنتها لتأمرها:

ـ باقولك اتحركي لمي حاجتك يا «نجية»! يلَّا، هنمشي دلوقتي.

مر وقت قصير لتخرج «حِكَم» وابنتها من دار أهلها، وجاءها صوت أمها التي وقفت على باب الدار تتابع ابنتها الراحلة:

ـ متقطعيش عادة «بَكر» يا «حِكَم»، وابعتيلي الظرف كل شهر يا بتّي.

***

حلَّ الفجر على «عبده» وهو لا يزال جالسًا على الرصيف أمام المحل، يدخِّن سجائره وقد أصبحت ملامحه كالمشرد، ينظر إلى كرسي «بَكر» الخالي وقد اعتلت الأتربة الغطاء البلاستيكي الذي يحميه.

مرَّ أسبوعان على إغلاق المحل ووفاة سيده، وكلما أراد البكاء تذكر كلمات «بَكر» له في صغره، فأمسك دموعه بقوة خوفًا من أن تنفلت هاربةً منه، رفع عينيه ينظر إلى لافتة المحل ثم نظر إلى السماء ينفخ دخان سيجارته.

كيف لم يفكر للحظة في أن «بَكر» سوف يرحل بلا عودة في أي يوم من الأيام؟

فكل شيء له نهاية في هذه الدنيا.. كل المخلوقات ستعود حتمًا إلى التراب..

حتى النسور المُعمّرة تمل الحياة الطويلة وشيخوختها، وتموت منتحرة.. لا شيء يدوم.

تساءل بداخله: كيف رحل «بَكر»؟ وإلى أين؟

ثم ظل يفكر في هويته واسمه الذي اختاره له سيده:

ـ من أنا؟

هل هناك سؤال أصعب على النفس البشرية من سؤال كهذا؟!

هز رأسه بعصبية وعنف وكأنه أصيب بصرع، أمسكه بين كفيه ليوقف اهتزازه، وأخفضه فابتلت الأرض بدموع عينيه:

ـ أنا آسف.. أنا آسف يا عم «بَكر».

مكث يتمتم بأسفه دون أن يرفع رأسه، وكأن سيده يجلس على كرسيه ينظر إليه مُعاتبًا، غرق في دموعه وسال أنفه حتى ابتل قميصه.

***

دخلت «حِكَم» غرفة نومها بخطوات خائفة، خُيل إليها أنها ترى «بَكر» ما زال ملقيًا على الأرض مثلما رأته يوم وفاته، صرخت بجزع فركضت ابنتها إليها:

ـ إيه يا ماما؟ فيه حاجة؟

ـ مفيش، مفيش.. سيبيني لوحدي.

وقفت «نجية» خلفها في تردد وقلق. ثم أومأت برأسها وخرجت وهي تغلق الباب على أمها.

جلست «حِكَم» على سريرها وعيناها لا تكفان عن البكاء، تنظر إلى المكان الأخير الذي لامسه جسد «بَكر» بحدقة عين تصارع الدموع كي ترى.

انخفضت ساجدةً تُقبِّل هي والدموع المتساقطة السجادة، ثم شعرت بشكّة في إصبعها، رفعت كف يدها لتجد ظُفرًا مقصوصًا، أخذته واعتدلت لتجلس على الأرض.

تذكرت أنه في الليلة التي سبقت وفاته، أيقظها من نومها عند عودته وطلب منها أن تقلِّم أظافر قدميه.

أخذت ظفره بين أناملها، ثم قامت من جلستها وفتحت درج الكومودينو تبحث عن مقص، وجدته ثم قصَّت قطعة قماش صغيرة من جلبابها، ووضعت ظفره بداخلها ثم لفتها بإحكام. أخرجت محفظة نقودها الصغيرة لتضعه بداخلها وقد انتابتها حالة من الارتياح وكأنَّ زوجها عاد إليها بهذا الظفر المقصوص.

أخذت نفسًا عميقًا وهي تقول لنفسها:

ـ أهو.. حاجة من ريحتك يا أبو «عدوي».

***

ـ يا «نجية»، افتحي الباب اللي عمال يخبط دا.

ـ حاضر يا ماما.

ركضت «نجية» مسرعة لتفتح باب الشقة ثم مكثت صامتة.

ـ مين يا «نجية»؟ مين؟

تأففت «حِكَم» ثم خرجت من المطبخ، وهي تجفِّف يديها المبتلتين في جلبابها:

ـ مش عمالة أقولك مين؟

أجابتها «نجية»:

ـ دي.. دي جارتنا «عايدة» يا ماما.

وقفت «حِكَم» خلف ابنتها على باب البيت تنظر إلى «عايدة» بتحفُّظ.

قالت «عايدة»:

ـ البقية في حياتك يا طنط، أنا خبطت كذا مرة عليكم الفترة اللي فاتت، بس شكلكم ماكنتوش هنا، وعرفت من صوت القرآن إنكم أكيد رجعتوا.

ـ آه يا اختي، مانجيلكيش في حاجة وحشة، سافرنا بالحاج الصعيد ورجعنا بقالنا كام يوم.

مكثن للحظات ينظر ثلاثتهن إلى بعضهن البعض.. وعرضت «نجية» على جارتهم الدخول، فضربتها «حِكَم» بكوعها لعرضها هذا. واقتربت منها تهمس:

ـ أبوكي يموت من هنا، نقوم مدخّلين غزيَّة البيت؟!

أشارت «نجية» إلى «عايدة» لكي تجلس على الأريكة ثم جلست بجانبها.

وجلست أمامهما «حِكَم» وهي تنظر إلى وجه «عايدة» تتفحصه، وكأنها تراها للمرة الأولى، فقد كانت دائمًا ما تتجنبها.

شعرها أسود قصير للغاية (كاريه) وأنفها مثقوب بحلق فضي صغير، شفتاها رفيعتان وعيناها شديدتا الزُّرقة، أشارت إلى ابنتها أن تقترب لتقول لها شيئًا، قامت «نجية» من جلستها واقتربت من والدتها لتهمس الأخيرة في أذنها، ولم تدرك أن صوتها مرتفع للغاية:

ـ عمرك شفتي رقاصة شعرها قصير كدا؟

تدخلت «عايدة» وهي تبتسم:

ـ إحم.. باهزّ جسمي يا طنط مش شعري، وماتقلقيش، بالبس بواريك.

اتسعت عينا «حِكَم» لجُرأة الرد، وابتلعت ريقها بحرج لسماع «عايدة» إياها، ثم قالت مُحاوِلةً تغيير الموضوع:

ـ ما شاء الله، عينيكي لونها جميل، طالعة لأبوكي ولا أمك؟

ـ لأ أنا عيني سودا يا طنط، دي لينسز.

ـ إيه يا اختي؟ وطّي يا «نجية» صوت القرآن شويّة مش سامعاها..

ـ لينسز يا طنط.

نظرت «حِكَم» إلى ابنتها «نجية» متسائلة باستغراب:

ـ إيه لايزز دي يا بت يا «نوجة»؟

فأجابتها «عايدة»:

ـ عدسات يا طنط بتتلبس في العين.

ـ يا ما شاء الله، ماشي يا اختي، وانتي بتشتغلي في أنهي منطقة بقى؟

تدخلت «نجية» سريعًا في الكلام:

ـ تحبي تشربي إيه؟

ـ لا شكرًا يا حبيبتي مش عايزة.

فقالت «حِكَم»:

ـ لأ، لازم تشربي حاجة، بيت الحاج الله يرحمه بيت الكرم كله، وكتر خيرك إنك جاية تعزينا.

ـ عارفة والله، طيب لو كدا ممكن فنجان قهوة.

ـ حاضر، من عينيا.

قامت «حِكَم» لتترك ابنتها مع «عايدة»، وهي تنظر خلفها في قلق وترقُّب.

تُفكر، هل كان زوجها ليرضى بجلوس ابنته مع فتاة سيئة السمعة كتلك؟ شعرت بتوتر وتذكرت ابنها الذي مرت أسابيع دون رؤيته، تناست غضبها منه وقلبها الذي احترق بسببه، تُرى لو حضر فجأة ووجد أخته تجلس مع تلك الفتاة، حتمًا سينقلب البيت رأسًا على عقب، سيضربها، مثلما فعل في المرة الأخيرة.

ازداد توتُّر «حِكَم» عندما تذكرت ما تحاول نسيانه طوال الأيام السابقة، وتساءلت: تُرى أين هو؟ أحدث له مكروه؟!

تمتمت تحدث نفسها بصوت مبحوح:

ـ يعني هيحصله إيه؟ أبوه مطلعه راجل برضه يفوت في الحديد.. لا لا، ابني مايتقلقش عليه.

لكنها شعرت بغصة، كيف له ألَّا يسأل عنهما؟ أيعقل أنه لم يسمع بوفاة أبيه، أم ربما علم بها ولكنه شعر بالذنب ولا يستطيع مواجهتهما؟

فارت القهوة أمام عينيها دون أن تراها، لكن صوت فورانها جعلها تفيق من أفكارها وهمومها، دمعت عيناها وأغلقت البوتاجاز الذي انطفأت عينه من القهوة التي سالت.

خرجت وهي تحمل فوق صينية صغيرة فنجان قهوة بائسًا كحالها وبلا وجه:

ـ معلش يا بنتي القهوة فارت مني وراح وشها.

ـ ولا يهمك يا طنط، تسلم إيدك.

نظرت «نجية» إلى أمها تحدثها بحماس:

ـ ماما، «عايدة» بتقولي عندها كمبيوتر وممكن أبقى أروح لها تعلمني عليه.

انتفضت «حِكَم» ما إن سمعت كلمات ابنتها:

ـ كمبيوتر إيه يا «نجية» إن شاء الله اللي بتتكلموا فيه وأبوكي لسَّه ميت؟! مفيش مرواح عند حد. وبعدين من إمتى يعني ليكي في كمبيوتر ولا غيره؟! دا تليفونك مرمي حتة حديدة جوه والتليفزيون مابتفتحيهوش.

وجم وجه «نجية» لرد والدتها:

ـ كان فيه شغل واحدة زميلتي قالتلي عليه من فترة ومحتاج إني أعرف كمبيوتر يا ماما.

خبطت «حِكَم» بكف فوق الأخرى:

ـ النبي إيه؟! اللي عمري ماشفتلك زميلة من يوم ما بطني جابتك، وشغل مين يا بنتي هو مش اللي زيك بتشتغل مدرسة؟ ولا أنا غلطانة ولا إيه؟ معلش أمك جاهلة، فهّميها..

تابعت «عايدة» حوارهما وهي ترتشف قهوتها السادة على مضض؛ فهي عادة تحبها بسكر زائد، لكنها لم تُبدِ أي اعتراض، وضعت فنجان القهوة على منضدة أمامها لتتدخَّل في نقاش «حِكَم» وابنتها الذي بدأ يحتدم:

ـ هافهّمك أنا يا طنط، في الزمن دا مفيش حد بيشتغل بشهادته، أنا مثلًا خريجة حقوق وباشتغل...

ـ رقاصة.

أخذت «عايدة» نفسًا عميقًا وهي تنظر إلى عيني «حِكَم» اللتين تقرأ فيهما الأستهزاء منها منذ لحظة دخولها البيت.

ـ أنا في النهاية باقدّم فن استعراضي، ومش بارقص في أي مكان.

ـ فن إيه يا اختي؟ انتي واحدة بتعري جسمك عشان تجيبي قرشك.. بترقصي في مولد، في كباريه، في أي داهية.. كله واحد.

ثم نظرت «حِكَم» إلى ابنتها نظرة حادة وأردفت:

ـ إياك تكوني انتي بقى زميلة الموكوسة دي اللي جايبالها شغلانة، إلا صحيح هو الرقص محتاج علام كمبيوتر اليومين دول ولا إيه؟

قامت «عايدة» من جلستها فوقفت «نجية» معها وقد شعرت بإحراج لضيفتهما، بينما بقيت «حِكَم» على مقعدها لا تنظر إليهما، وبوجه شديد التعصب، فقالت «عايدة»:

ـ البقية في حياتك يا طنط، وشكرًا ع القهوة.

ـ حياتك الباقية، مانجيلكيش في حاجة وحشة.

تعصَّبت ملامح «نجية» من رد والدتها المتعجرف ورمقتها بنظرة غاضبة ثم سارت مع «عايدة» لإيصالها إلى باب البيت:

ـ لو احتجتي حاجة يا «نجية»، أنا موجودة في أي وقت.

كادت «نجية» ترد..

سمعتها «حِكَم» التي كانت لا تزال جالسة بعيدًا:

ـ مش محتاجين حاجة، خلي حاجتك لنفسك، شكرًا.

***

دخل «محمود» الغرفة ليجد «عدوي» جالسًا بوجه بائس، وقال له:

ـ إيه يلا هتفضل كدا؟ ما خلاص يا عم فك كدا وروّق، يا ابني والمصحف قلتلك ميت مرة، دي خلطة أعشاب مِ العطار.. أمي اللي جابتها واهي عندك اسألها.. دا هي صدفة رباني.

ـ خلاص يا عم صادق.. هو النصيب بقى.

ـ طب إيه؟ مش ناوي تروح تبص على أمك ولا إيه؟

ـ لا لا هاروح طبعًا، معلش يا «قورة»، تقّلت عليك الكام أسبوع دول، وشكل أبوك وأمك هيطردوك بسببي.

ـ يلا يا حيوان انت تقِّلت على مين؟! دا انت الشق ياض، وابويا أهو متلقح ع القهوة علطول مش واخد باله إنك قاعد معانا من أصله، هو صوت شخيرك بس اللي بيبهدلني بالليل، وأمي ماعرفش ساحرلها ولا إيه، لو عليها ماتمشيش، وتتبناك معانا.

تغيرت ملامح «عدوي» فأدار وجهه في الجهة الأخرى وكأنه يبحث عن شيء مفقود.

يعلم جيدًا سر محبة «سحر» له؛ فهي امرأة شبقة تفوح منها رائحة الرغبة، جسدها ممتلئ ولكن تقاسيمه واضحة للغاية، خصل شعرها من الأمام مصبوغة باللون الأصفر الفاقع، وشفتاها تبدوان وكأنهما منتفختان بشكل لافت للنظر..

وهو شاب لا يكترث لأمر النساء، لكنها نجحت في مداعبة خيالاته في فترة إقامته ببيتهم، حاول في الأيام الأولى تجنبها، لكنه لا مفر من اجتماعهم اليومي حول أوراق الجرائد المفروشة على الأرض لوجبة الإفطار أو الغداء، وكانت لا تستحي من مد رجلها أمامه؛ فيرتفع جلبابها حتى ركبتيها، أو أن تنحني بجسدها لتناوله رغيفًا من الخبز أو طبق المخلل؛ لتظهر فتحة الجلباب فوق صدرها ما خفي تحته، بل وتقتنص الفرص في أثناء تناولهم الطعام لمداعبة زوجها، ورمي كلمات إيحائية متعمَّدة أمام «عدوي»، فينتفخ زوجها كالعجل السمين ويضحك على مغازلتها قائلًا:

ـ اتهدِّي يا وليَّة، العيال قاعدة.

لكنها في الحقيقة تتمادى وتُلقي بنظرات ساخنة إلى «عدوي»، فينظر حوله متعجبًا من تقبُّل الأسرة أفعال ربتهم المريبة، بل ويتعجب من ابنها «محمود»، صاحبه الذي لا يستحيي من تصرفات والدته، بل وعادة ما يجاريها ويسبّها بأقذر الألفاظ ممازحًا وسط ضحكات الجميع!

ولـ«محمود» ثلاثة إخوة، كلهم أولاد، الكبير منهم يبلغ ثلاثة عشر عامًا، والذي يليه يبلغ عشرة أعوام، والصغير يبلغ خمسة أعوام، أما «محمود»، وهو أكبرهم جميعًا، فيبلغ أربعة وعشرين عامًا، ولا يعرف «عدوي» مصدر دخل هذه الأسرة؛ فكلما نظر من شرفة بيتهم، وجد والدهم على القهوة يتبارى في أدوار الطاولة، ووجد الأولاد الثلاثة سارحين في الشارع بين لعب الكرة ومضايقة المارة، وأخوهم الكبير، لا يعمل ولا يفعل شيئًا سوى التفاخر بشهادة معهده، أو الخروج لقضاء حوائج والدته التي لا يعلم «عدوي» عنها شيئًا.

ووسط كل هذه الحياة العبثية، لم يهدأ باله من تذكُّر والده وأسرته.

وعندما سمع بنبأ وفاته، اجتمعت أسرة «محمود» تواسيه، لكن أحدًا لم يطلب منه الذهاب لدفن أبيه، بل شجعه الجميع على عصيانه وقال له «عبد الباقي»، زوج «سحر»:

ـ ما هو بصراحة أبوك دا ربنا هيجازيه؛ عشان كان على قلبه شيء وشويات، وانت من ضلعه وماخدتش منه حاجة على حياة عينه، دا الواد «محمود» بيقولي إنه ماكانش بيدخّلك المحل عنده.. بس شوف، أهو موته دا محبة من ربنا ليك، عشان تورث في شبابك.

وربتت بعدها «سحر» على فخذه بيد وبيدها الأخرى تتحسس ظهره قائلة:

ـ انت أحسن لك خليك معانا لحد ما تهدا كدا، وبلاش تروح دلوقتي وانت معبي منهم.

انصاع «عدوي» لكلماتهما، وقضى الأيام بين تسكعه حتى ساعات الفجر الأولى مع «قورة» وأصحابه الآخرين يدخنون البانجو، وبين تلميحات «سحر» بالرغبة ونظراتها التي تطارده في أرجاء بيتها.

***

ـ لا يا أبلة «سنية»، والله ماليكي حق، بقى يعني ماتفكريش حتى تضربيلي ع التليفون تعزيني ولا تفكري تزوريني؟

تظاهرت «سنية» بالأسى لتواسي «حِكَم»:

ـ أبدًا والله، دا أنا كل ليلة بابات معيطة عليكي، وباقول يا ترى يا بت يا «حِكَم» انتي عاملة إيه دلوقتي، بس أنا معييش رصيد خالص.

وبعدين أنا عارفة إنك رحتي البلد للدفنة وقلت أكيد مش هترجعي قبل الأربعين ولا حاجة.

تنهدت «حِكَم»:

ـ آه.. لأ ما انا اتخانقت مع أمي وجبت بنتي في إيدي ورجعنا.. قلت بيتي أولى بيا.

ـ بيتك وفلوس جوزك طبعًا.

سكتت «حِكَم» لثوان تُفكر في محل زوجها، تعرف أن مفاتيحه مع صبيه «عبده»، ولكن كيف مر كل هذا الوقت دون أن يخطر ببالها ما سيحدث فيه.

ـ تصدقي يا أبلة أنا ولا اعرف حاجة عن المحل من يوم وفاة المرحوم!

ـ مقفول يا اختي بالضبة والمفتاح، ديك اليوم بعتّ عيل من عيال الشارع يعدي يشوف مين واقف فيه.. انتي عارفة طبعًا أنا باطمّن عشانك.

ـ إلهي يخليكي يا أبلة، فيكي الخير، طب ولقى إيه؟

ـ مفيش.. زي مابقولك، لقاه مقفول، والواد «عبده» الصبي بتاعكم قاعد قدامه، لازم بقى تشوفي هتعملي إيه وتخلي ابنك ينزل يدير مال أبوه.

ـ ابني؟! الله يسامحه، تخيلي يا أبلة كل دا ولا فكَّر يسأل علينا حتى!

ـ يا نهارِك اسود يا «حِكَم»! كل دا ابنك مش في البيت ولا تعرفي عنه حاجة؟! أنا عارفة إنه طفش وماحضرش جنازة أبوه، بس قلت أكيد رجع البيت لما جيتوا..

تنهَّدت «حِكَم» وهي تُعبِّر عن قلة حيلتها في أمر ابنها، وقالت لـ«سنية» إن الحاج «أشرف» جارهم قد جاء لإخبارها أنه قد علم أن ابنها يُقيم عند صديقه محمود قورة.

طلب منها «أشرف» التدخُّل لإصلاح الأمور بينهم، لكن «حِكَم» رفضت خوفًا من أي تطاول قد يصدر من ابنها ويسبب لها إحراجًا معه..

ربتت «سنية» على فخذ حكم بشدة ثم قالت:

ـ طب لمي انتي ابنك يا اختي وشوفي حالك، بدل ما انتي خريانة ما دريانة كدا ولا عارفة أولك من آخرك.

كانت «حِكَم» تحدث جارتها «سنية» محاوَلةً منها لنسيان ما بداخلها من ألم وضيق على فراق «بَكر»، لكنها لا تستطيع النسيان، كيف ستنساه، وقد كبرت على يديه؟ خسرت ما يقارب نصف وزنها وظهر خطين من التجاعيد على جبينها وبرزت عظام وجنتيها.

ووقفت على الرغم من أحزانها تنظف أواني «سنية» ومطبخها المتسخ، وهي تحكي لها عن زيارة «عايدة» لتعزيتهما وما دار بينهن، بينما جلست «سنية» تستمع بلا اهتمام وهي تشير بعكازتها لتنظيف أسفل الحوض وتدَّعي الإنصات، بينما تقف قطتها بجانب قدميها تراقب أيضًا «حِكَم» في صمت.

وشعرت «حِكَم»، في لحظة فجائية، بصعوبة في التنفُّس، وبدوار مفاجئ وإجهاد، لكنها خجلت من أن تترك ما تعمله، وكأنه أمر واجب عليها فعله، فسكتت فجأة عن الكلام في منتصف حديثها وهي تنظف.

ولم تسألها «سنية» لِمَ سكتت، لَمْ تسألها عمَّا بها على الرغم من شحوب وجهها الظاهر، كان كل ما يهمها هو أن تُكمل نظافة مطبخها ولا شيء آخر.

***

وضعت «نجية» يدها على خدها، تنظر بلا هدف إلى الدوائر الفارغة المرسومة على ملاءة سريرها.

تذكَّرت حديثها القصير مع جارتها «عايدة»، وكأنها مثل هذه الدوائر الفارغة لا تحوي شيئًا، كلما سألتها «عايدة» عن شيء، لا تجد إجابة، لا تعرف شيئًا في هذه الحياة، لا صديقة لها ولا حبيب، تذكرت نفسها في مدرستها، لم تُصادق أحدًا طوال سنوات دراستها، وكانت تراقب الفتيات اللاتي يقابلن الشباب بعد انتهاء اليوم الدراسي.

تذكرت إبلاغها وكيلة المدرسة عنهن، ليُعاقبن بالفصل عدة أيام، ولكن عند عودتهن، كان عقابها الحقيقي، فضُربت منهن، وانهالت عليها قذائف من السباب ردًّا على الأذى الذي سببته لهن وما نلنه من عقاب إدارة المدرسة ومن أهلهن.

وأمضت كل سنوات دراستها تعاني التنمُّر الشديد منهن، فكَّرت كثيرًا بعد ذلك، ما الوسام الذي منحته إياها المدرسة لإفشاء سر زميلاتها آنذاك؟!

لم يُقَل لها حتى شكرًا، وفي المقابل حلَّت عليها لعنة كل فتيات المدرسة وأصبح أغلبهن ينظرن إليها بأنها إنسان خائن لا يؤتمن، كبرت وكلماتهن ترنُّ في أذنيها.

وكانت اللعنة الحقيقية بأن واحدة من زميلاتها اللاتي أُفشي سرهن، قد التحقت معها بكلية البنات وفي قسمها نفسه، فحكت للجميع منذ اليوم الأول أن احذروا منها؛ فتجنبها أغلب زميلاتها، وكانت تحقد على مجموعات الفتيات اللاتي يقفن ويصدح صوت ضحكاتهن، وتبطئ من خطواتها عندما تمر بجانبهن لتتلصص على أحاديثهن، تشعر وكأنهن يرمقنها بنظرةٍ تقول: لستِ واحدةً منا.

تندلع نار بداخلها من الغيرة عندما ترى واحدة منهن ينتظرها حبيبٌ لها بعد انتهاء المحاضرات، فتقف بعيدًا تحتضن كُتب المحاضرات لتنظر إليهما بغيظ وتتمنى لو أنها هي.

بل كانت عندما تحاول واحدة من الزميلات الأخريات التقرُّب منها، تبتعد فورًا؛ لأنها تشعر أن من ستتودد إليها، حتمًا ستشبهها، خائنة لا تؤتَمن.

فكيف تصادق إذًا مَن مثلها، وهي في حقيقة الأمر تمقت نفسها؟!

شعرت «نجية» أن جارتها هي الوحيدة التي تختلف عنها في كل شيء ولم تعاملها معاملة سيئة، وشعرت بسعادة لتوددها لها، وسؤالها عمَّا تفعله في الحياة وما تحب وما تكره.

وكانت على وشك أن تقول لها: «مابَاكرهش إلا نفسي»، لكنها خافت من أن تُصدم «عايدة» من إجابتها فتتجنَّبها هي الأخرى.

تركت الدوائر الفارغة على سريرها وقامت لتنظر في مرآة الدولاب على نفسها.

فكَّت رابطة شعرها لينسدل واصلًا إلى آخر ظهرها، أدارت جسدها ورأسها ثابت تحاول أن تراه، عقلها يقول: قُصِّيه مثل «عايدة»!

وقلبها يرفض بشدة: «إياكِ»! عادت لترتمي على سريرها وهي تتأفف بضيق وحيرة، لا تعرف مَن تتبع منهما.

***

ـ اعملي حسابك تيجي معايا الأسبوع الجاي، عشان هنروح نعزي مرات «بَكر».

ـ تاني؟! تاني يا «علي»؟

ـ لو سمحتي مش عايز أفضل أهاتي يا «هدى»، أنا بالبّي لك كل طلباتك، لبيلي أنا طلب مرة من نفسي، وقولي لـ«لينا» كمان لو تقدر تيجي معانا، أنا كنت سامع إن عنده بنت قريبة من سنها، أهي تقعد تتكلم معاها برضه ولا تواسيها شويّة.

ـ انت بجد غريب جدًّا.. ازاي نروح نعزي في حد مانعرفوش؟ لا وكمان عايزني أقول لـ«لولي» تيجي معانا jáme Ali!

شعر «علي» بضيق صدره من زوجته، لا رغبة له تلبَّى بلا نقاش طويل، وكانت تجلس أمامه على كرسي جانبي في غرفة نومهما تبرد أظافرها ببرود، ارتدى قميصه ونظر إليها سارحًا فيها وهو يغلق أزرار أساوره.

كتلة ثلجية يلتف حول رقبتها عقدان من الذهب، واحد يتدلى منه أنصاص الجنيهات الذهبية، والآخر به دلاية بفص ألماسي كبير تعدَّى ثمنها ربع مليون جنيه مصري عندما اشتراها لها، وساعة «رولكس» زيَّنت معصمها، أصرَّت على اقتنائها مُرصعة بالألماس، حتى لا تصبح أقل من سيدات المجتمع اللاتي تقابلهن في صالون التجميل.

في إبهام يدها اليمنى خاتم به حجر ياقوتي لامع، وفي إبهام يدها اليسرى خاتم آخر ماسي مرصع بالفصوص الألماسية البراقة، أما دبلتها فلا ترتديها.

ـ تصدقي يا «هدى»؟ انتي الواحد ممكن يفكّك بمحل جديد.

رفعت «هدى» رأسها تنظر إليه باستغراب:

ـ قصدك إيه؟ مش فاهمة.

أشاح بوجهه عنها وهو يضحك بسخرية، وفتح درج الأحزمة ليختار حزامًا مناسبًا للبنطال وأجابها:

ـ لا باهزّر معاكي ع الألماظات اللي لابساها دي كلها.

وضعت «هدى» المبرد على المنضدة بجانب كرسيها، ثم قامت تسير إليه، احتضنته من ظهره وقبّلت كتفه:

ـ ربنا يخليك لينا حبيبي، وتفضل تجيبلي.

أزاح يدها التي التفت حوله ثم استدار ليحدثها وقد أمسك كتفيها بقوة:

ـ اسمعي كلامي وانا أجيبلك كل الحلو إن شاء الله.

ابتلعت ريقها وهي تنظر إليه قائلة:

ـ Dáccord.

***

نظرت «نجية» من العين السحرية على الرجل الذي وقف أمام باب البيت، ولا تعرف هل تفتح له أم لا، مكثت لحظات تُفكر، ركضت لتحضر غطاء لشعرها ثم عادت لتفتح الباب فتحة صغيرة:

ـ أيوه.

ـ السلام عليكم يا بنتي، أنا المحامي محمد خميس جاركم هنا في العمارة، أنا مكتبي اللي في الدور الأرضي وانتي طالعة على إيدك اليمين.

ـ أيوه أيوه.. فيه حاجة؟

ـ كنت عايز مدام حكم بس في موضوع ضروري يخص الوالد، رحمة الله عليه.

ـ ماما عند جارتنا تحت، وسايبة موبايلها هنا، ممكن حضرتك تعدي علينا كمان ساعة كدا أو لو تستناني أنا ممكن أنزل لها أناديها.

ـ لأ خلاص مش مشكلة، أنا موجود في المكتب لحد الساعة ٤، لو كدا بلغيها إني منتظرها ضروري.

مكثت للحظات مواربة للباب، وهي تسمع صوت قدميه نازلًا على الدرَج، وما إن اختفى الصوت حتى فتحت باب البيت تنظر إلى شقة «عايدة» المقابلة لها، فكرت لثوانٍ في عواقب ما هي على وشك فعله، ماذا لو عادت أمها ولم تجدها في البيت؟! لكنها ذهبت إلى جارتها «سنية» منذ وقت قليل ولن تعود قبل ساعة أو نصف ساعة على الأقل.

«هيجرى إيه يعني»؟ حدثت نفسها لتخرج من البيت، سارت خطوتين حتى باب شقة «عايدة»، كادت ترن الجرس ولكن يديها ترددتا في خوف، نظرت من بئر السلم لتراقب إن كان هناك أي أحد غيرها، ثم استجمعت قواها لتضغط زر جرس الباب.

وركضت عائدة لداخل بيتها:

ـ أنا هاعدّ لخمسة، لو مافتحتش ها...

لم تكمل ما كانت تقوله، فتحت «عايدة» الباب وهي تبتسم لجارتها «نجية»:

ـ أهلًا أهلًا يا «نجية»، ازيك حبيبتي؟

ـ اااا.. الحمد لله، ازيك انتي؟

ضحكت «عايدة» ضحكة هادئة لترد بعدها:

ـ الحمد لله، تعالي حبيبتي اتفضلي.

ـ طب ثانية أجيب مفتاح الشقة.

أغلقت «نجية» باب الشقة وهي تشعر بتسارع نبضاتها وبدت ملامح وجهها قلقة للغاية، وقفت «عايدة» تنظر إليها لا تفهم شيئًا:

ـ اتفضلي يا «نجية»، انتي خايفة تدخلي ولا إيه؟

ـ أنا؟ لا.. أبدًا أبدًا.

دخلت «نجية» خلف «عايدة» بفم مفتوح تنظر حولها، وقد انبهرت من تعدد الألوان في كل أركان الصالة، عكس بيتهم التقليدي ورتابة أثاثه.

بجانب باب الشقة وُضعت طاولة جانبية مستطيلة فوقها صورة كبيرة لأشخاص لا تعرفهم، وأخرى لـ«عايدة» وهي تجلس محتضنة امرأة كبيرة في السن لها وجه بشوش شديد الطيبة.

همست: «دي أكيد أمها».

دققت النظر في ملامح «عايدة» وشعرت أنها كانت أصغر سنًّا في هذه الصورة، ولها ملامح أكثر براءة من التي تبدو عليها الآن.

التفتت تنظر إلى المفارش المزركشة بألوان مختلفة، والتي أُلقيت بعشوائية على أذرع الأرائك، تشتتت عيناها من كثرة الألوان.

شعرت بأنه بيت يبعث فيها شعورًا بالحياة يختلف عمَّا اعتادته.

زُيِّنت الحوائط باللوحات الزيتية، مكثت تنقل عينيها وتنظر إلى كل لوحة حتى تسمَّرت أمام لوحة لامرأة مستلقية شبه عارية يلتف حول خصرها قماش أرجواني اللون، وبدت ملامح وجه المرأة المرسومة بالألوان الزيتية شديدة الشبه بـ«عايدة».

ـ عاجباكي؟

ـ هاه، آه جميلة ما شاء الله، دا انتي؟

ضحكت «عايدة» ضحكة مرتفعة من قلبها:

ـ أنا مين يا هبلة؟ لا دي رسمة عادي، ماعرفش صاحبتها أكيد، ويمكن مايكونش ليها صاحبة. مجرد واحدة من خيال اللي راسم.

ابتسمت «نجية» بخجل.. ومكثت مكانها تتأمل الرسمة فقالت لها «عايدة»:

ـ تعالي تعالي نقعد جوَّه أحسن.

مشت «نجية» خلف «عايدة»، وقد تسلل إلى أذنيها صوت أغنية لـ«فيروز» يظهر بوضوح كلما اقتربت..

رمقت في سيرها غرفة نوم «عايدة»، كان بابها مفتوحًا وقد بدت بلا ترتيب والملابس ملقاة على الأرض وفوق السرير.

فتحت «عايدة» باب الغرفة الأخيرة؛ لتكشف لجارتها عالمًا آخر أُخفي بداخل عالمها.

ظهر صوت «فيروز» مرتفعًا للغاية وكأن هذه الغرفة مسرحها:

« وندهلي حبيبي جيت بلا سؤال، من نومي ندهلي من راحة البال.»

أخذت «نجية» نفسًا عميقًا وشعرت براحة غريبة، وأول ما خطف أنظارها هو ضوء النهار الآتي من شرفة الغرفة التي فُتحت على اتساعها، بدا لـ«نجية» أن ما تراه «عايدة» من شرفتها يختلف حتمًا عمَّا تراه من شرفة بيتها الذي أصبح رمزًا للملل الآن.

خُيِّل إليها أن شرفتها تطل على بحر مفتوح، به مركب شراعي تجدِّف به المرأة العارية، والسماء تتطاير فيها المفارش الملونة؛ فتتخطفها «عايدة» لتفرشها في بيتها، فلا صوت زحام «السيدة» ونداء الباعة الجائلين سيصل إلى هذه المجرة التي تسكنها.

نظرت إلى علبة السجائر الملقاة على الطاولة الكبيرة، والشيشة الموضوعة بجانب الأريكة التي نالت حظها أيضًا من المفارش الملونة.

قفزت «عايدة» بعفوية جالسة على الأريكة الوثيرة وأمسكت بالشيشة لتأخذ نفسًا منها:

ـ اقعدي يا «نجية»، انتي مكسوفة ولا إيه؟

جلست «نجية» بجانبها تتابع دخان الشيشة الذي يخرج من فمها، ومن فتحتي أنفها ليسبح في سقف الغرفة، وبدا لها وكأنه يتراقص على أغنية «فيروز»، مدت لها عصا الشيشة، فهزَّت «نجية» رأسها بالرفض، فقالت «عايدة»:

ـ أحسن برضه، دي عادة زي الزفت.. ها.. احكيلي.

نظرت «نجية» إليها ببلاهة لا تفهم مقصدها من كلمة «احكيلي».

فضحكت «عايدة» على ملامحها:

ـ إيه يا بنتي؟ انتي متنَّحة كدا ليه؟ باقولك احكيلي عاملة إيه، طنط عامله إيه، وأخبار نفسيتها ونفسيتك عشان باباكي، احكيلي، يعني اتكلمي في أي حاجة.

ـ آه الحمد لله كلنا كويسين و... يا رب ماتكونيش زعلتي من آخر مرة عشان ماما وكدا واللي قالتهولك.

ابتسمت «عايدة» وهي تقول لها إن ما بدر من أمها شيء طبيعي، فـ«حِكَم» امرأة شرقية في مجتمع شرقي. وتلك النظرة التي رأتها في عينها تكاد تراها في عيون الحيوانات في الشارع قبل بني آدم.

سكتت «عايدة» لثوان بعد ذلك ثم قالت لـ«نجية»:

- سيبك، انتي عاملة إيه؟ احكيلي عن نفسك، آخر مرة ماتكلمناش كتير، انتي مش فاهمة أنا اتبسطت ازاي لما لقيتك خبّطتي عليَّ دلوقتي.

انفرجت شفتا «نجية» بسعادة بالغة، وعبَّرت لها عن سعادتها هي الأخرى.. وكم من مرة أرادت أن تتحدث معها فيها ولكنها تراجعت.. وقالت لها:

ـ أنا كنت باشوفك كتير أوي.

ـ وانا عمري ماشفتك.

وجم وجه «نجية» فجأة، فضحكت «عايدة»:

ـ يا هبلة باهزّر أكيد، انتي مش خيال يعني، بس فعلًا رغم إننا ساكنين قدام بعض، وشوفي كام سنة، عمري ما صادف إني خدت بالي منك أو لمحتك، يعني ساعات كنت باقابل باباكي ع السلم، أشوف مامتك طالعة أو نازلة، وشفت أخوكي.. انتي ليكي أخ تقريبًا، صح؟

ـ آه.

ـ شفته كذا مرة، شكله مجنون أوي في نفسه كدا، بس بصراحة في حاله، عمره مابصلي، حسيته محترم أوي.

ـ مين دا اللي محترم؟! يلَّا ربنا يسامحه.

اعتدلت «عايدة» في جلستها لتواجه «نجية»:

ـ هممم.. شكلك مالكيش عمار معاه، عادي يا بنتي، مفيش واحدة بتكون علاقتها حلوة باخوها، أكيد بيرخم عليكي طبعًا ورايحة فين وجاية منين والبسي وماتلبسيش.

ـ مين دا؟ «عدوي»؟! أنا مش متشافة على رأيك بره البيت وجواه، لأ هو الله يسامحه، وخلاص دا يمكن يكون سبب موت أبويا.

ـ هممم، طيب خلينا نغير الموضوع دا دلوقتي، واحكيلي عنه بعدين، قوليلي بقى، انتي مصاحبة ولا لأ؟

ـ أنا؟! أبدًا، عمري!

غمزت لها «عايدة» غير مصدقة، وتعجبت أن فتاة بجمال «نجية» لم ترتبط من قبلُ بأي شاب، لكنها أحست بصدق ردها.. أخذت نفسًا طويلًا من شيشتها، ثم قالت:

ـ أريح برضه، بس أنا حاسة إن حياتك مملة شويّة، ولا أنا بيتهيألي؟ مابتشتغليش، مابتنزليش، ولما كنت عندك قلتيلي ملكيش صحاب، ملكيش هوايات...

قاطعتها «نجية»:

ـ هو انتي... يعني بتشتغلي كدا يعني من إمتى؟

ـ الرقص قصدك؟ بصي يا ستي هي قصه طويلة جدًّا..

نظرت «عايدة» حولها سارحة في أركان الغرفة، أخذت نفسًا من شيشتها وبدأت تحكي عن حياتها.

لقد انفصل أبواها منذ أن كانت طفلة، وكان هذا البيت ملكًا لأمها التي تزوجت والدها آنذاك عن قصة حب أسطورية، لم تدُم بضع سنين بعد زواجهما، حكت لها أن هذا البيت ملك لأمها وهي التي كانت تصرف عليه طوال سبعة أعوام، وتضحيات كثيرة قامت بها لأجل رجل رحل عنها بعد إصابتها بالسرطان وتزوَّج بأخرى لينجب منها أربعة آخرين!

جلست «نجية» تستمع بإنصات وتركيز لقصة «عايدة» المثيرة.. سكتت «عايدة» لبرهه فقالت «نجية»:

ـ ها.. وبعدين؟

ـ مفيش.. قاطعنا تمامًا.. اتطلقوا طبعًا وخِلاني في المنصورة ـ أمي أصلًا من المنصورة ـ كل شويّة حد منهم كان ينطّلنا وجو بقى ماينفعش ومايصحش، خاصة إن أمي كانت في عز تعبها وكنت باروح معاها جلسات الكيماوي وكنت صغيرة أوي إني أشيل مسؤوليتها أو أسندها لو تعبت.. فأمي اضطرت تاخدني ورُحنا عشنا معاهم في المنصوره.

تنهدت وقد رأت أمام عينيها أيامًا تود ألا تتذكرها، واستطردت:

ـ خفّت كام سنة، بس بعدها رجعلها وبقوة.. شفت المرض بياكل فيها لحد ما ماتت، ومن بعدها طبعًا أنا اللي اتبهدلت من تحكُّم أهل أمي لحد ما قلت: لأ، يلعن أبوكو كلكو. أول ما خلصت الجامعة خلعت وجيت على هنا.

ـ والرقص؟

ـ هكمّلك، آخد نفس بس، الفحم شكله خلص، تعالي نكمل في المطبخ عشان أحط فحم ع النار.

قامتا، وسارت «نجية» بحرية وكأن البيت بيتها، عكس ما كانت عليه لحظة دخولها.

ـ لما جيت بقى قلبت الدنيا على شغل مالقتش، لحد ما واحدة صاحبتي، هي مش صاحبتي يعني، واحدة بنت كلب كدا سو، عرّفتني على متعهد حفلات وانا أساسًا كنت باحب الرقص جدًّا وقصص طويلة أوي بقى.. فبَس، جت من هنا..

وقفت «عايدة» وقفة تباهٍ بجسدها وكأنها تؤدي تحية إلى جمهورها في نهاية أحد عروضها:

ـ اللي قدامك دي من أشهر الرقاصات في مصر، ومش باخد قليل، بس مابشتغلش كتير.. دا أنا بدأ يجيلي عروض في أفلام كمان.

برقت عينا «نجية» ثم قالت بعفوية شديدة:

ـ ما شاء الله!

ضحكت «عايدة»:

ـ انتي شكلك مش عايشة في الدنيا، ردود فعلك بتموّتني ضحك يا «نجية».

ـ طب وليه مش بتنقلي من هنا؟ يعني السيدة وأهلها برضه مقفلين، ليه ماتعزليش في حتة تانية؟

ـ استحالة! ريحة ماما في كل حاجة هنا حواليا، أنا عندي شقة دوبلكس على فكرة في التجمع، ومفروشة أحلى فرش، جربت أروحها يوم، ماعرفتش أنام، بقيت عاملة زي العيلة اللي حاسة إن فيه عفريت مستخبي لها تحت السرير.

هنا باحسّ إن أمي معايا في كل ركن، وأقدر أجيب عربية، بس أنا مابحبش السواقة، ومش هاضيّع اللي باقي من عمري فرهدة في شوارع ماتطّاقش.

ـ انتي عندك كام سنة؟

ـ تديني كام؟

ـ شكلك صغير، قدي تقريبًا، ٢٣ أو ٢٤؟

ـ يا نهارك أبيض! بعد قصة كفاحي دي كلها تقوليلي ٢٣؟! ليه اتخرجت وانا عشر سنين! لأ ٣٢.

شهقت «نجية»، فضحكت «عايدة» بصوت مرتفع حتى سعلت:

ـ إيه يا بنتي؟ حسستيني إني قلتلك ٧٠!

أرادت «نجية» الرد عليها، ولكن خُيِّل إليها فجأة أنها تسمع صوت باب شقتهم يُفتح:

ـ يا لهوي! أمي!

***

ـ خير يا أستاذ «محمد»؟ «نجية» قالتلي إنك كنت عايزني ضروري.

ـ خير إن شاء الله، طبعًا البقاء لله قبل كل شيء، زوجك كان راجل فاضل وطيب، ربنا يرحمه وينور قبره.

ـ ربنا يرحمه يا رب برحمته.

ـ زوجك قبل وفاته بشهرين تقريبًا كان جالي وقعدنا اتكلمنا في أمور قانونية متعلقة بأملاكه وأرصدته في البنوك.

أخرج ظرفًا أبيضَ كبيرًا من درج مكتبه ثم استطرد وهو يُخرج أوراقه:

ـ أنا للأمانة ماتعاملتش مع الحاج «بَكر»، الله يرحمه، كتير وتعجبت لثقته فيّ وإنه يسيب لي أمانة زي دي في رقبتي، بس أكيد هو طبعًا عارف سمعتي اللي سابقاني، وإني محامي باعرف ربنا ومش باترافع إلا عن المظلوم.

تذكرت كلمات جارتها «سنية» عنه وكيف أنه لا يترافع سوى عن القتلى والنصَّابين، لوت شفتيها وهي تنظر إلى الجهة الأخرى لترد عليه:

ـ أيوه أيوه أكيد طبعًا، ربنا يجازيك على قد عملك.

رفع حاجبيه باستغراب وقد شعر في ردها باستهزاء خفي:

ـ طيب، المهم عشان ماطولش عليكي، أنا كنت عارف إنكم مسافرين وقلت أسيبكم لحد ما الدنيا تهدا شوية.. دي يا سيدتي الفاضلة أوراق ملكية محل العدوي للملابس..

ارتدى نظارته الطبية وهو ينظر إلى أوراقه ثم أردف:

ـ تم نقل ملكيتها بالكامل ليكي، ولا تحمل غير اسمك، ودي أوراق رسمية تثبت إنك المتصرف الوحيد في أملاك المرحوم.. أما هذه الورقة فهي...

اختفى صوته من أذنيها، جحظت عيناها الذابلتان وحُبست فيهما الدموع. بدأت يداها ترتعشان وجسدها يهتز في جلستها ذهابا وإيابا.

ـ يا مدام «حِكَم»! انتي كويسة؟

ـ يعني... يعني دي وصيته يعني ولا إيه؟ أنا مش فاهمة حاجة.

ـ لا يا مدام، دي مش وصية، دي أوراق رسمية تُثبت ملكيتك لكل أملاك المرحوم، يعني حتى لما تمشوا في إجراءات إعلام الوراثة، لا أظن إنه سيبقى أي شيء لأي ورثة آخرين..

ولا حتى الأبناء.

جف حلقها، أحست كأنها فقدت النطق، وشعرت بأنها تائهة في كلمات هذا الرجل، لا تفهم شيئًا.

قامت من على الكرسي ببطء وقد تركت العنان لدموع عينيها.

اتجهت نحو باب المكتب لتخرج منه، تمشي بخطوات حائرة متثاقلة بأحزانها لا تفهم شيئًا، يسأل عقلها ألف سؤال، أسئلة جزعة بلا إجابة.

ـ يا مدام «حِكَم»، استني.. أوراقك!

***

لا أنام على الشوك عريان

واصبر على ما جرالي

واصبر عليك يا زمان

حتى ينعدل حالي

ابن عروس

الفصل الثالث

ـ انتي خايفة من إيه بس يا ماما؟ دا المفروض تكوني مبسوطة والله!

ـ بس دا مش شرع ربنا يا بنتي، وفين انتي؟ وفين أخوكي من ورث أبوكي؟ مبسوطة بإيه بس؟ انتي ولا فاهمة حاجة، دا مات وارتاح وسابلي النار أتوقد فيها.

ـ يا ستي اعتبريني متنازلة لك عنه، وبعدين ما لو احتاجنا حاجة انتي معانا.

لا تزال تائهة، يرفض عقلها ما قام به «بَكر».. تود لو أن تعود إلى الصعيد، لتقف على قبره وتسأله: لِمَ فعلت هذا؟!

ـ واخوكي يا «نجية»؟ أخوكي هيسكت؟! دا لو عرف مش بعيد يقتلنا، دا كان كل خناقاته مع أبوكي ع الفلوس، آجي دلوقتي أقوله أبوك مش سايبلك حاجة؟! لا ماقدرش، بس في نفس الوقت أبوكي كان دايمًا يقول «عدوي» ما يعتّب محله ولو بعد موته، قلتها وعملتها يا «بَكر».

أخذت تضرب بكفيها على رأسها وهي تبكي:

ـ طب أعمل إيه يا رب؟ إيه الغرض من اللي أبوكي شيّلهوني دا كله؟ دا أخوكي يولع فينا.

ـ أنا ماعرفش يا ماما انتي هتفضلي لحد إمتى جبانة قدام «عدوي»! هيعملك إيه يعني؟ هيضربك؟

مسحت «حِكَم» عينيها في كُم جلبابها لتقول:

ـ يعملها.

وقفت «نجية» التي كانت تجلس بجانب أمها تربت عليها؛ لتصرخ بعصبية:

ـ يعمل إيه يا ماما؟! كفاية بقى طيبة وغباء!

لقد عاد «عدوي» إلى البيت منذ يومين، يعامل أمه وأخته وكأنهما جاريتان عنده، يصرخ لطلب طعامه وشرابه، ينام ساعات طويلة ثم يستيقظ ليخرج من البيت ولا يعود إلا بعد بزوغ الشمس، لا يسأل والدته إن كانت تحتاج شيئًا ولا يهمه سوى راحته.

لم ترد «حِكَم» فأردفت «نجية»:

ـ يا ماما دا أنا سامعاه امبارح بيقولك عايز يبيع المحل! ولا كأنه ملكه وانتي قاعدة قدامه ساكتة ومانطقتيش، انتي عايزة إيه يعني؟ تسيبي لابنك كل حاجة عشان يضيعها؟ فينه هو دلوقتي؟ فينه واحنا قاعدين محروقين وانتي مقهورة؟ فين ابنك لما أبويا مات؟! خايفة منه؟ طب والله العظيم، والله العظيم، إن فكر يقل أدبه تاني زي زمان ما هاسكت له.

ـ لا يا «نجية»، ورحمة أبوكي ماتقفي قصاده يا بنتي.

ـ يبقى اقفيلي انتي يا ماما، واقفي لنفسك.

***

ـ لا والله يا أبلة ما معايا دلوقتي.

ـ معكيش دلوقتي؟ يا مُري منك، طيب يا اختي ألف شكر.

صُدمت «حِكَم» في جارتها التي طلبت منها خمسة آلاف جنيه قرضًا! سألت نفسها: ترى لِمَ تحتاج «سنية» إلى هذا المبلغ وهي تعيش على معاش زوجها وتقول إن أبناءها يرسلون لها مبالغ مالية بصفة دورية؟!

وكانت تحاول أن تكذِّب عقلها من أن تكون «سنية» امرأة استغلالية، خاصة بعد أن حكت لها «حِكَم» عن كل ما تركه لها زوجها وعن حيرتها فيما ستفعله.

تهز رأسها بلا إرادة منها رفضًا، تتمتم لنفسها:

ـ لا لا، استحالة، إلا أبلة «سنية»..

ثم تتذكر كيف أنها دائمًا ما تطلب منها أي شيء إذا قالت لها «حِكَم» إنها ستذهب إلى السوق، بل إنها هي التي كانت تشحن رصيد هاتفها بكارت فئه خمسة وعشرين جنيهًا أسبوعيًّا ودون أن ترد جارتها ثمنه لها.

شعرت «حِكَم» بعدم ارتياح، لأول مرة، في جلستها مع جارتها، وقررت أن تغادر دون أن تنظِّف لها كعادتها.

فصفعت «سنية» الباب خلفها.

بُهتت «حِكَم» التي وقفت في صعودها بين درجة وأخرى، تنظر إلى الباب الذي أُغلق خلفها بعنف، تُفكر في كل الخير الذي فعلته لجارتها، وعقلها لا يستطيع استيعاب ما يحدث..
وقفت غير مُصدقة وهمست:

ـ أما إنك طلعتي ست قليلة الأصل صحيح!

***

ـ يعني ينفع نتحايل عليك كل دا عشان تجيلنا يا «عدوي»؟ دا أنا حلفت ع الواد «محمود» مايدخل البيت النهارده إلا وهو جايبك في إيده.

خبط «محمود» كتف «عدوي» وقال:

ـ أهو صدقت يا عم؟ كنت هابات في الشارع بسببك.

ابتسم «عدوي» ونظر إلى «سحر» قائلًا:

ـ أنا قلت أريحكم مني شويّة يا أم «محمود»، دا كفاية اللي عملتوه عشاني الفترة اللي فاتت وشيلتوني شيلة مش هانساهالكم طول العمر.

اقتربت منه في جلستها وهي تمسح على شعره بكفها، بينما ينظر حوله متعجبًا من أفراد الأسرة التي التفت حوله ولا تشعر بأي غرابة من حركات «سحر» المبالغ فيها معه.

قالت «سحر» بصوت ناعم:

ـ تريحنا منك إيه بس؟ دا انت في مقام «محمود» ابني يا واد، ولا انت مش عارف؟ ماتقوله حاجة يا «محمود»!

تدّخل زوجها الذي جلس يشاهد شاشة التليفزيون الصغيرة وهو منهمك بالتهام قطعة من البطيخ مُصدرًا صوتًا بغيضًا، وقد اتسخت فانلته الداخلية بما يقطر من فمه، فانلة بيضاء مليئة بالثقوب يكتفي بارتدائها على سروال داخلي أبيض:

ـ آي والله ياض يا «عدوي»، دي «سحر» كانت شويّة وهتعيط لما مشيت.

ـ ربنا يخليكوا، أهل وحبايب، و«قورة» أكيد يعني مش محتاج كلام، أخويا اللي أمي ماجابتهوش.

اقتربت يدها التي كانت لا تزال تمسح على شعره، لتداعب أذنه بأناملها فاقشعر بدنه:

ـ وبعدين أنا قلت لـ«محمود» ابني: انت لازم تقف وقفة راجل جنب «عدوي» وتشوف هيعمل إيه في محله وتساعده يقف على حيله تاني.

ـ لا، أنا بافكر أبيعه واخلص منه.

سحبت يدها منه لتضرب بها على صدرها.. وقالت معترضة:

ـ يخيبك واد! اوعى تعمل كدا، دا محل أبوك دا كنز.

ثم اقتربت تلامسه مرة أخرى، وأردفت تقول بصوت شديد الميوعة:

ـ وان كنت يعني قلقان من أمور التجارة والحسابات والكلام دا، عندك عمك «عبد الباقي» و«محمود» في ضهرك يقفولك ويمشولك الدنيا، وتقعد باشا البشوات في ملكك.

انتفخ صدره كالديك ما إن سمع كلمة «ملكك»، وخرجت كلماته تُعبر عن موافقته على ما قالت:

ـ والله كلامك معقول برضه، خلاص هاشوف أنا الموضوع دا مع أمي.

تبدلت ملامحها واعتدلت في جلستها واضعة يدها في خصرها:

ـ لا وامك مالها إن شاء الله! مال الحريم ومال الكلام دا؟! انت راجل البيت دلوقتي ودا مالك، هتستأذنها؟! ماعرفتكش كدا يا «عدوي».

ـ لأ أنا راجل طبعًا والكلمة كلمتي، أنا قصدي بس نستّف الدنيا وكدا، المحل مقفول أهو يجيله كام أسبوع من ساعة موت أبويا، بس انتي صح يا أم «محمود»، خلاص نفتح ونشوف رزقنا بقى.

انشرح وجه «محمود» وقال لصاحبه:

ـ يلَّا ياض والله من النهارده لو حابب، ونروح كمان نُكرش الواد الزباله صبي أبوك.

ـ دا عيل وسخ.. ماتفكرنيش بيه، دا أنا بَاكره سحنة أمه.

نظرت «سحر» إلى ابنها «محمود» بحاجب مرفوع وابتسامة نصر.

***

ظلت «هدى» تهز قدمها الموضوعة فوق الأخرى طوال جلوسها وهي تنظر حولها باشمئزاز، تتفحص بيت «حِكَم»، وتنظر بعدها إلى ابنتها «لينا» الجالسة بجانبها، ثم تقرب إصبعيها من أنفها وتهز رأسها بنفور، وكأنها تشم رائحة لا تطيقها في أرجاء البيت.

جلس «عدوي» أمامهم في صمت وبعين شبه نائمة من سيجارة البانجو التي قد دخّنها في شرفة غرفته قبل زيارتهم بوقت قليل، بينما مكث «علي» يجز على أسنانه ويرمق زوجته بنظرات حادة اعتراضًا على حركاتها التي استفزته.

خرجت «حِكَم» من المطبخ تحمل صينية بها فناجين القهوة وتبعتها ابنتها بصينية أخرى بها أكواب وزجاجتا مياه.

جلسوا جميعًا في سكون يحتسون القهوة، بينما مكثت «نجية» تتودد إلى «لينا» بابتسامات خفيفة وتُحدِّث نفسها: صديقة أخرى مختلفة عني!

قطع «علي» الصمت الطويل موجِّهًا حديثه إلى «حِكَم» التي سرحت بفنجانها قائلًا:

ـ وأخبار المحل إيه يا مدام «حِكَم»؟ هتعملوا فيه إيه؟

تنهَّدت «حِكَم» لترد عليه:

ـ ماعرفش والله يا حج «علي»، أنا من ساعة ما المرحوم مات وأنا محتاسة آخر حوسة.

ـ ليه بس؟ ربنا ما يجيب حوسة، إحنا اخواتك، واعتبري المدام زي أختك بالظبط، انتي مش لوحدك.

أومأت «هدى» برأسها وابتسمت ابتسامة مفتعلة، استطرد «علي»:

ـ أنا على العموم مخلي «عبده» يقف مع رجالتي لحد ما تفتحوا عشان عارف ظروفه.

ـ لأ، «عبده» دا هنمشّيه خلاص.

سادت لحظات من الصمت ونظروا جميعًا إلى «عدوي» الذي ألقى بكلماته فجأة.. نظرت إليه أمه برفض واستنكار قائلة:

ـ نمشِّي مين يا «عدوي؟ «عبده» ماكانش ليه إلا أبوك!

فردَّ «عدوي» بلسان ثقيل وكلمات تخرج بطيئة ولكنها منفرة:

ـ لأ! هو أنا قلت خلاص هنمشيه يبقى هنمشيه، أنا راجل كلمتي واحدة.

رمقته «حِكَم» في غضب وتحدٍّ دون أن ترد عليه، تجاهلت رده ثم نظرت إلى «علي» الجالس أمامها، الذي تعجَّب بدوره من الطريقة التي تحدث بها «عدوي»:

ـ إحنا أكيد هنفتح قريب إن شاء الله، أظبّط بس شويّة أمور كدا، وهاستأذنك إن ماكانش يضايقك لو تسيبلي رقمك عشان كنت عايزاك في كام موضوع.

قام «عدوي» فجأة تاركًا جلستهم وهو يشيح بيده في الهواء ويتمتم بصوت مرتفع يسمعه الجميع:

ـ إيه هو رقمك وما رقمك؟ قاعدين طراطير إحنا ولا إيه؟!

رمقه «علي» بنظرة سريعة من رأسه إلى أخمص قدميه تعبِّر عن نفوره واستحقاره لوقاحته، ثم أخرج من جيبه بطاقة تحمل أرقامه، قام من جلسته ليعطيها «حِكَم» فشكرته..

ـ كلميني في أي وقت، أنا تحت أمرك، وخلي برضه معاكي رقم المدام تكلميها لو احتجتي حاجة، أنا عارف كويس إن مالكوش حد هنا، ملِّيها رقمك يا «هدى».

مكثت «هدى» تطقطق أصابعها بتوتُّر وهي تنظر أمامها في الفراغ، وتتظاهر بعدم سماعها زوجها فناداها مرة أخرى بنبرة أكثر حدة:

ـ «هدى»!

ـ همم.. oui حبيبي؟

ـ ملّي مدام «حِكَم» رقم تليفونك.

فتأففت بداخلها قائلة:

ـ d’ccord.

قفزت «نجية» من جلستها وهي تحدث «لينا» بابتسامة واسعة:

ـ استني بقى قبل ماتمشوا، أنا كمان هاجيب تليفوني من جوَّه عشان آخد رقمك.

***

كانت الساعة قد تعدَّت الثالثة صباحًا ولا تزال «حِكَم» في شرفة البيت، واقفة تسند يديها إلى السور وتنظر بنفاد صبر إلى الشارع تنتظر عودة ابنها.. لقد ولَّت الأيام التي تنام فيها مُبكرًا تدعو الله ألا يوقظها زوجها، هجرها النوم بموت زوجها وأصبح الأرق ضيفًا غير مرغوب فيه، باقيًا لا يُفارقها.

سمعت صوتًا يناديها، فأدارت نفسها تنظر بفزع خلفها إلى صالة البيت، وهي تصرخ: «بَكر»؟ انتابتها قشعريرة وأخذت تمسح بكفها على ذراعها وهي تزحف بنعليها بخطوات حذرة حتى وقفت في منتصف الصالة تنظر حولها، قالت تحدث نفسها:

ـ اتجننتي يا «حِكَم»؟!

تنهدت ثم نظرت إلى الكرسي الذي اعتاد زوجها الجلوس عليه، سحبته وهي تُفكر للحظات مترددة ثم جلست..

سرحت في الوردة الوحيدة المجففة الموضوعة في منتصف الطاولة أمامها.

مدَّت يدها تلامس ورقتها الجافة، فانكسرت، اضطربت ثم قامت من جلستها تحاول أن تحملها بلطف لتضعها مرة أخرى، لكنها تفتَّتَت في يدها.

بكت من قلبها وكأن روحها هي التي انكسرت، لم يكُن «بَكر» زوجًا حلو اللسان ولم يقُل لها كلمة غزل واحدة طوال عمرها معه، لا تتذكره أبدًا قد حدَّثها ذات يوم بلين ومحبة، حتى هداياه الثمينة، كان يمنحها إياها بجمود وبلا ود.. ولكن هذا الورد الذي أحضره لها بعد عدة أسابيع من زواجهما، هو الوحيد الذي يحمل معنى رومانسيًّا وحالمًا في ذهنها، تناست هذا المعنى مع مرور السنوات، ولطالما انتابها تردد بين تركه أو إلقائه في القمامة كلما وقعت عيناها عليه، حتى حدث ما حدث وانكسرت المزهرية بيده قبيل موته ولم يبقَ لها سوى تلك الوردة.

سمعت المفتاح وهو يفتح باب البيت فنفضت يدها مسرعة لتمسح دموعها فاتسخ وجهها بالفتات وكأنه رماد من بقايا دموع احترقت، وقد وقفت تنظر بثبات إلى ابنها الذي دخل ولم يلقِ تحية أو أي كلمة تُقال إليها:

ـ اقف هنا، تعالى عايزاك.

وقف بجسد منهك للغاية ولم يلتفت لينظر إليها وهو يقول:

ـ ها، اخلصي.

ـ خلصت روحك يا بعيد! لف وبص لأمك.

أدار جسده وهو يشيح بيديه في الهواء:

ـ إيه؟ فيه إيه ع المسا؟

ـ تعالى اترزع قدامي هنا، باقولك عايزاك!

تأفف وهو يجلس، ثم نظر إلى سقف البيت متمتمًا:

ـ يا رب نخلص.

ـ عايزين نقعد ونتكلم، ونشوف هنعمل إيه في محل أبوك.

ـ وانتي إيش حشرك انتي أساسًا في المحل؟ أنا خلاص عارف هاعمل إيه، هافتحه وهمشي الشغل كله.

ـ تفتح مين وتمشي إيه؟! انت عارف تمشي حالك عشان تمشي المحل؟ عايز تهد اللي بناه أبوك إن شاء الله! انتَ... انتَ... انتَ ملكش داخلة في المحل دا يا «عدوي».

وقف ليصرخ بأعلى صوته:

ـ نعم! أُمّال مين اللي له داخلة؟ دا محلي أنا وابويا سايبهولي.

وقفت تواجهه وهي تحاول أن تخبئ رعشة جسدها وخوفها منه:

ـ لِم لسانك يا ابن بطني، كفاية اللي راح مقهور منك، المحل مش محلك يا «عدوي». أبوك كتبلي المحل قبل موته ووصّى على حياة عينه إن مالكش داخلة فيه، وانا عمري ماهاكسر وصية أبوك أبدًا.. فاهم؟

ـ قولي بقى كدا، تطرمخيها انتي وبنتك وتاكلوا حقي! والله دا أنا اولع فيكوا وفي اللي يتصدرلكوا.

صرخت «حِكَم»:

ـ تولع في مين يا كلب؟ أختك زيها زيك، مالهاش فيه حاجة، فوق لنفسك بقى عشان نشوف هنعمل إيه.

ـ عملكوا اسود على دماغكم، المحل محلي وانا اللي هادوّره بطريقتي!

ثم قام من أمامها بعصبية متجهًا إلى باب البيت قائلًا وهو لا يزال يصرخ:

ـ أنا مش عارف إيه اللي رجّعني البيت الفقر دا، داهية تاخدكوا.

وقبل أن يخرج من الباب، نظر إلى عيني أمه نظرةً ينبعث منها الشر ليلقي بكلمات تحمل كل غل بداخله يتوعد فيها بالأذى لمن سيقترب من محل أبيه

***

ركض «عبده» ليلحق «عدوي» الذي كان يدب الأرض غضبًا بخطوات متسارعة.

سحبه من كتفه ليوقفه.. تأفف «عدوي» بغيظ ثم قال:

ـ يادي القرف، أيوه يا عم الزفت انت كمان، فيه إيه؟

ـ نعم ياخويا؟! إحنا هنستهبل ولا إيه يا «عدوي»؟ أنا هافضل اجري وراك عشان أوصلك؟

ـ عايز إيه؟ اخلص.

ـ عايز اللي اتفقنا عليه.

ـ اتفاق مين يلا اللي اتفقتوا معاك؟!

ـ وحياة أمك؟! بأمارة كوباية الشاي اللي أبوك...

كتم «عدوي» فم «عبده» بكفه وسحبه من ذراعه إلى الشارع الجانبي وهو ينظر حوله بقلق. اطمأن أن لا أحد في الجوار، ثم قال:

ـ كلمة تانية هتنطقها يا «عبده» الكلب هاصفّي دمك هنا وهارميك لكلاب السكك ماتخليش حتة فيك.

ـ تعملها.. تعملها يا «عدوي» زي ما قتلت أبوك!

صرخ «عدوي» في وجه «عبده»، ثم أدرك ارتفاع صوته ليخفضه مرة أخرى يهمس به:

ـ اتكتم الله يحرقك، أنا ماقتلتوش، والمصحف ماقتلته، أنا قلتلك هاحط له حاجة في كوباية الزفت على دماغك تخليه يرقد له يومين تلاتة وساعتها يمكن يحس بقيمتي بعد ما طردني وينزلني مكانه، أبويا عمره ما مرض يوم ولا ساب المحل من يوم ما وعيت ع الدنيا، قلت رقدته يمكن تفكره إنه مخلف راجل، ماعرفش إنه هيفيّص فيها، قدره، نصيبه كدا!

ـ قدره؟! ولا طمعك ووساختك؟

ـ وساختي؟! لا يلا انت اللي نضيف أوي، باقولك إيه يا «عبده»، أنا لو وسخ فانت أوسخ عشان بس قلتلك هادّيك قرشين وافقت زي الكلب، وماهمّكش ولي نعمتك، وبعدين إحنا فيها يا عم، روح بلغ، الراجل اتدفن بهبوط حاد، خليهم يطلعوا جثته ويشرحوها، عشان يكتشفوا اللي فيها، ونشوف مين بقى اللي اداله آخر بق شاي يا حيلة أمك اللي ماتعرفهاش.

صرخ «عبده» في وجهه يقول:

ـ قول يا عم! قول أهو تريحني بدل ما انا باموت كل يوم من إحساسي بالذنب، قول وانا هاقول برضه.

ـ لا لا لا.. هافهمك أنا حاجة، أعلى ما في خيلك اركبه، واثبِت، وشوف مين هيصدقك، السيدة بكل اللي فيها عارفين إني مابهوّبش ناحية المحل، فانا عايز الرجولة تاخدك وقول يا سي «عبده»، قول، وحياة شرف اللي جابوك لتقول.

انقبض صدر «عبده» وضاقت أنفاسه، قبض كفيه بقوة وعصبية، وودّ لو أن يضرب وجه «عدوي»، لكنه تراجع، نظر إليه «عدوي» نظرة استهانة وعلت شفتيه ابتسامة ساخرة، أسند يده إلى كتف «عبده»، ثم أردف:

ـ إحنا الاتنين أوساخ يا «عبده»، وانا صراحة ماحبش منافسة في الوساخة، لأ وشوف البجاحة اللي انت فيها ياض، بتنافسني على أرضي!

لو خايف على نفسك، وشك دا مش عايز ألمحه في السيدة تاني، وماتهوّبش ناحية محل أبويا تاني، انت طول عمرك في الشارع، وأرض الله واسعة، خلي عندك شويّة م الأحمر، هي مش تلاقيح جتت! مش عايزينك خلاص! روح شوفلك حتة تانية لقّط رزقك فيها، وكويس إني شفت وش أهلك دلوقتي عشان أقولك الكلمتين دول بدل ما كنت آجي أقولهم لك في وسط الخلق وأخلي شكلك زي المرَة.

اتسعت حدقتا «عبده» وقد امتلأت عيناه بالدموع وهو لا يزال يشد من قبضتي يديه حتى كادت أظافره تشق باطن كفيه، فمنذ المرة الأخيرة التي بكى فيها على سيده، أصبحت عيناه تبكيان بلا هوادة، صار عاجزًا تمامًا، وكأنه يشعر أن شيم الرجال التي علّمها إياه «بَكر» أصبحت لا تليق به، ارتعشت شفتاه من كثرة الكلمات التي امتلأت في فمه، فقال «عدوي»:

ـ أظن الرسالة وصلت، فيلَّا هش من وشي بقى، يلَّا غور في أي داهية، عشان مش طايق أشوفك، نفسي بتجزع يا أخي لما باشوف خلقتك.

وكان «عبده» لا يزال واقفًا ينظر إلى «عدوي» بغضب مكتوم، فدفعه الأخير بقوة في صدره:

ـ يلا، انت تنح؟! باقولك غور يا عم من وشي، خلاص خلص الكلام، واقف نافخلي نفسك كدا ليه؟! ها، لخص الحدوتة، هتعملي إيه يعني؟ روح، روح شوف أصلك ولا فصلك بدل ما انت زرع شيطاني كدا ولا انت عارف انت مين ولا ملة اللي جابوك إيه، ياض دا انت مالكش ملة!

لم تنبس شفتا «عبده» بكلمة، مكث لثوان ينظر إليه ثم سار في طريقه مبتعدًا دون أن ينظر خلفه، بينما ظل «عدوي» واقفًا مكانه، أخرج علبة سجائره من جيبه ليشعل سيجارة بانجو ملفوفة بداخلها وهو يتابع خطوات «عبده»، ضاحكًا بسخرية..

ثم بدأ يغني بصوت نشاز مرتفع للغاية، صدحت أغنيته في فراغ الشارع، فصاحبت كلماتها طريق «عبده» وهو يبتعد:

ـ أنا مش عارفني، أنا تهت مني.. أنا مش أنا.

***

ـ وتخيلي كدا لو كانت ماما قفشتني آخر مرة، لكنت اتعلقت على باب السيدة!

ضحكت «عايدة» على كلمات «نجية» ثم قالت:

ـ هبلة أوي.. انتي محسساني يا «نوجة» إنك بتقابلي راجل في السر من ورا أمك، شككتيني في أنوثتي.

أنا عارفة موقفها مني، بس يعني مش معقول كل ما هتجيلي هتخترعي قصة، خاصة إنك لا بتروحي ولا بتيجي، فهتقوليلها إيه بقى؟ يعني المرّة اللي فاتت قلتلها وقعتي فلوس ولا ماعرف إيه، فها؟ النهارده هتخترعي لها إيه تاني؟!

ـ يا بنتي لأ مش فلوس، فلوس إيه بس؟! دا أنا قلتلها وقعت حاجة من الهدوم وأنا بانشر الغسيل من البلكونة، كنتي تشوفيني بقى أول ماشفتها، وحياة ربنا أنا قلبي وقع أول ما فتحت الباب ولقيتها في وشي كنت هاعملها على روحي، اللي يضحكك إنه لا كان فيه لبس في إيدي ولا كان فيه حاجة ع الحبل منشورة من أساسه، وامي صدقتني!

ابتسمت «عايدة» وهي تومئ برأسها إيجابًا، ثم أخرجت دخان الشيشة من فمها لترد على «نجية»:

ـ طبيعي جدًّا، أمك دي من أطيب الناس اللي شفتهم في حياتي على فكرة، باحسّها مكسورة أوي، ست غلبانة بجد، وساعات بتفكرني بأمي الله يرحمها، يا بختك بيها.

تنهدت «نجية» ثم قالت:

ـ وأنهي غلبانة يا «ديدي»؟ أمي ضيعت عمرها علينا ومالهاش حد في الدنيا غيري، يعني دا حتى أخويا اللي مفروض يبقى سندها، بيبهدل فيها، ما تجيبي شفطة م اللي بتشربيه دا؟

ـ شفطة يا هبلة؟! اسمها ماتجيبي نفس! وبعدين ما بلاش، انتي مابتدخنيش.

أصرت «نجية» على تدخين الشيشة، أخذت نفسًا طويلًا، لتسعل بعده سعالًا متواصلًا فقفزت «عايدة» لتحضر لها كوب ماء ثم اختطفت عصا الشيشة منها:

ـ قلتلك بلاش يا عندية، يعني مش كفاية العلاقة اللي في السر دي، لا وكمان هافسد أخلاقك..

ضحكت «نجية» وهي ترتشف الماء ببطء ثم سكتت فجأة وقد تبدلت ملامحها وغلفتها حيرة وهم مفاجئ:

ـ المشكلة يا «عايدة» إن دلوقتي أبويا سايبلها كل حاجة زي ما حكيتلك، ومش عارفة هتعمل إيه في أخويا اللي واقف لنا زي اللقمة في الزور، ولا هتعمل إيه في محل أبويا.

ـ لأ مش فاهمة، فين المشكلة بالظبط؟ ما اخوكي المجنون دا ينزل ويشوف مصالحكم والشغل هيعقله أكيد بدل ما هو صايع كدا؟

ـ استحالة.

قالتها «نجية» وقد بدا عليها الرفض التام لتلك الفكرة، تذكرت المرة الوحيدة التي قرر أبوها أن يأخذ ابنه ليساعده في المحل، حدث ذلك منذ عدة سنوات ليومين فقط! بعدها رفض تمامًا أن يأتي مرة أخرى للعمل معه، لا تعرف «نجية» سبب الرفض ولا أمها. كل ما تعرفانه رفض «بَكر» الشديد والقاطع.

أخذت «عايدة» نفسًا طويلًا من الشيشة وهي تُفكر للحظات في كلمات «نجية»:

ـ خلاص، مامتك تنزل، وتقف، شويّة شويّة وهتفهم الدنيا.

شهقت «نجية»:

ـ يا لهوي! أمي تنزل وتقف وتبيع وسط الرجالة! انتي أكيد بتهزري، إحنا صعايدة يا «عايدة» وابويا كان راجل صعيدي قفل، عمره ما كان هيسمح إن أمي تنزل المحل.

نظرت أمامها وأردفت تحدث نفسها وهي تهز رأسها نفيًا:

ـ أمي! يا لهوي يا «عايدة»! لا لا انتي بتقولي إيه بس؟!

اعتدلت «عايدة» في جلستها لتواجه «نجية»، نظرت في عينيها وهي تقول:

ـ أبوكي الراجل الصعيدي ساب كل حاجة لمامتك عشان عايزها هي اللي تمسك كل حاجة بعده يا هبلة!

أمك محتاسة مش عشان مش عارفة تفتح المحل ازاي ولا تعمل إيه في اخوكي، أمك محتاسة عشان مش قادرة تفهم الحكمة من اللي أبوكي عمله وسابهولها..

سرحت «نجية» وهي تعيد كلمات «عايدة» في رأسها، استطردت «عايدة»:

ـ وعلى فكرة، الموضوع دا مش هيحصل إلا بيكي انتي.

رفعت «نجية» عينيها تنظر إليها بذهول واستفهام، فأومأت «عايدة» برأسها تؤكد ما تقوله:

ـ زي ما باقولك، انتي مش لسَّه قايلالي إن هي مالهاش غيرك؟! يبقى لازم انتي تبقي ضهرها وصوتها اللي بيقويها، لازم تشجعيها إنها تنزل وتفتحي عينيها ع اللي أبوكي عايزها تعمله، أمك ست غلبانة آه، بس مش ضعيفة يا «نجية»، أبدًا مش ضعيفة..

وحتى لو قلتلك إني باحسّها مكسورة، مفيش حاجة بتقوينا قد كسورنا، إحنا مش شوية صيني زي اللي بيقولولك اللي بيتكسر فينا مابيتصلحش، دا إحنا ربنا أساسًا خالقنا نتعلم من كسورنا، ونقوى بيها.

مكثت «نجية» في صمتها، لتستطرد «عايدة» وهي تربت عليها:

ـ خليكي في ضهر أمك واسمعي كلامي، أنا شفت كتير في الدنيا دي.. أكتر من اللي عقلك ممكن يصورهولك، وفاهمة كويس أوي أنا باقولك إيه، هو دا الصح اللي لازم مامتك تعمله.

***

دخلت «لينا» على أبيها وأمها غرفة المعيشة، قبّلتهما ثم جلست بجانب أمها تخبرها برغبتها في دعوة «نجية» للغداء.. اتسعت ابتسامة «علي» خلف الجريدة التي يقرؤها، قال وهو يرمق «هدى» بطرف عينه:

ـ برافو بنتي حبيبتي، تربية أبوكي، بتفهمي في الأصول.. مش زي ناس.

أشاحت «هدى» بيدها لكلمات «علي» وانتفضت في مكانها وقد اتسعت عيناها مذهولة مما قالته ابنتها وقالت بنفاد صبر من أمر لا تقبل حدوثه:

ـ انتو أكيد جرى لعقلكو حاجة! صح؟ ردوا عليَّ عشان أنا قربت أتجنن!

تظاهر «علي» بانهماكه في القراءة فجلست «لينا» بجانب والدتها تحاول إقناعها:

ـ يا مامّا، «ناجيا» دي بنت طيبة أوي أوي.

قاطعها «علي»:

ـ «نجية» يا حبيبة بابا.

أومأت برأسها لأبيها ثم أردفت تُحدث أمها:

ـ تحسيها بجد تصعب عليكي أوي، وكمان تخيلي يا مامّا كلمتني امبارح تسأل عليَّ! قد إيه هي حد cute وNaive جدًّا، بجد حسيت إني حاباها أوي، كمان بابّا قالي امبارح إن مالهاش أصحاب خالص وميعرفوش حد هنا غيرنا! فـso!

وجَّهت «هدى» نظرات لائمة إلى زوجها على ما قاله لابنتها فدفن رأسه في الجريدة وقد استشعر نظراتها تخترق الأوراق، نهرته بشدة قائلة:

ـ انت بتستعطف بنتنا يا «علي»؟ يعني انت عارف إن بنتي قلبها طيب تروح ضاحك عليها بكلمتين؟!

قاطعتها ابنتها:

ـ مامّا، أنا ماحدش ضحك عليَّ، أنا باقولك إنها كلمتني ومن طريقتها حسيتها طيبة أوي، مش عشان بابّا قال حاجة، وبعدين يا مامّا انتي مش دايمًا بتحبيني أجيب صحابي

واعزمهم، اعتبريها واحدة منهم.

ـ لا، ما هي طبعًا هتيجي وجارّة لنا في إيديها الست «حِكمت» مامتها.

فعلق «علي»:

ـ «حِكَم» يا حبيبتي، اسمها «حِكَم».

سحبت «هدى» الجريدة بعصبية من بين يدي «علي» وقد استشاطت غيظًا منه:

ـ هو انت المصحح اللغوي بتاعنا يعني ولا إيه؟ ماغلطتش أنا في برنسيس «ديانا»، حِكمة ولا حِكمت ولا أحكام حتى، مش دي المشكلة.

ضحك «علي» من قلبه على كلمات «هدى» وانفعالها.. ثم قال وهو ينظر إلى ابنته:

ـ أحكام.. هههههه، عسل ماما يا «لولي»، دمها خفيف جدًّا.

ثم اعتدل في جلسته ليواجه «هدى»، قال وقد أصبحت ملامحه أكثر جدية:

ـ بصي يا «هدى»، انتي ست بنت بلد من شبرا.

اتسعت حدقتاها عن عمد وهي تنقل عينيها بينه وبين ابنتها.. تعجب من نظراتها وأردف:

ـ إيه؟ فيه إيه؟ بتبرقيلي ليه؟! هي بنتك ماتعرفش إنك من شبرا ولا إيه؟! دا حتى الست «داليدا» اللي بتقعدي مشغلالنا أغانيها شبراوية زيك..

ما علينا.. خلينا في المهم، وبطلي تبريق الله يكرمك عشان انتي عارفاني باخاف.. انتي ست من شبرا وبتعرفي الأصول، وانا راجل انتي واخداني وعارفة إني ماقبلش غير الأصول، الناس دي قلتهالك ألف مرة ملهاش حد، والأصول والمرجلة بتقول إننا نشوفهم لو محتاجين حاجة.

ـ ودونًا عن كل التجار اللي زيك، ودونًا عن كل سكان السيدة زينب وكل قرايبهم، حضرتك اللي هتقف جنبهم؟ مش كدا؟ لا بجد اتأثرت أوي.

لا وإيه يا «لولي» يا حبيبتي، الأصول اللي باباكي بيتكلم فيها بيعملها مع ناس عشان واحد مات ماكانش أصلًا بابا بيطيقه خالص وعلطول بيشتم فيه ومش طايقه، mon diue!

لم يعلق على ما قالته «هدى»، أخذ نفسًا عميقًا وخبط بيده على فخذه ثم قام من جلسته ليخرج من غرفة المعيشة، لكنه عاد في اللحظة نفسها ونظر إلى ابنته يحدثها:

ـ ظبطي يا «لولي» مع «نجية» وشوفي هيناسبهم إمتى، عشان ماما تعمل حسابها وتحضرلهم أكلة حلوة من عمايل إيديها بدل أكل الطباخين اللي مابيتبلعش.

حائرة، تُفكر فيه، بتعجب واستغراب من اهتمامه الفائق بـ«حِكَم».. تحفظ «هدى» جيدًا طباع زوجها عن ظهر قلب، وحبه المتوارث عن والده لتقديم أي مساعدة لمحتاج، وأنه لو طال لساعد الذباب، ولطالما اختلفت معه عندما يبالغ في عطائه للغرباء..

لكن الأمر مختلف الآن؛ فهي على يقين تام بأن أي رجل، أي رجل لن يساعد امرأة بلا مقابل.

يجن عقلها متسائلًا تُرى، ما المقابل الذي يريده زوجها من «حِكَم»؟!

***

وقفت «حِكَم» أمام باب «سنية» لدقائق، تحدِّث نفسها هل تطرق الباب لتعطيها رغيف الخبز باللحم، الذي اعتادت أن تعطيه إياها عندما توزِّع الأرغفة، أم لا!

تعجبت فجأة أنه في كل الشهور السابقة، كانت «سنية» تفتح الباب في نفس توقيت نزولها على الدرج، شعرت «حِكَم» بصفعة أخرى لتفيق من سذاجتها، لولا أن هذا الباب مغلق الآن، لما أدركت الصدفة التي حدثت لشهور طويلة عن عمدٍ.

اقتربت يدها من الجرس، لامسته دون أن تضغط عليه، مرت عشرة أيام منذ المرة الأخيرة التي زارتها فيها، ولم تحاول «سنية» الاتصال بها.

وكم من مرة فتحت «حِكَم» باب بيتها بنيّة الذهاب إلى جارتها، لكنها تذكرت معاملتها لها وصفعة باب «سنية» خلفها، فتعود أدراجها لتجلس وحيدةً على الأريكة تضع يدها على خدها، أو تجلس في الشرفة بكوب الشاي المعتاد، تنظر بلا هدف إلى الشارع وازدحامه، تتذكر «بَكر»، يرن في أذنيها صوته وهو يقول: «يفقرك ربنا يا بت يَمنى».

تشعر أن الله قد استجاب لدعائه عليها وأن الفقر قد حل بفقدانها إياه، تشعر أن كلمات الحب وقصص المسلسلات التي كانت تتابعها قبل موته ليست شرطًا لحياة آمنة، تشعر أنها لم تكُن تحمل همًّا قبل رحيله، تراكمت فوق رأسها كل الأحزان كأنقاض لا مخرج منها.

أدركت أن كل ما مرت به وكل الهموم التي اعتقدت أنها تشعر بها قبل موته، كانت أمورًا تافهة، همومًا تافهة..

قررت ألا تطرق باب «سنية»، وخرجت إلى الشارع للمرة الأولى منذ عودتها الأخيرة من الصعيد، شعرت بخوف، ولامت حالها لأنها لم تتصل بـ«عبده»، الذي كان عادةً ما يرسله لها «بَكر» ليساعدها في توزيع الأرغفة على المساكين، وكانت تحدِّث نفسها وهي تحضِّر الأرغفة وتضعها بداخل الأكياس:

ـ هانزل أنا أوزَّع لوحدي النهارده، طالما الحاج مابعتليش الواد «عبده».

تُحدِّث نفسها كمن شتّ عقلها متناسيةً وفاة زوجها.

وكانت تسير بين الناس كالطفل التائه الذي يبحث عن وجه أمه وسط الزحام، بنظرات شاردة ووجه مُصفرّ حزين، وما إن التفَّ حولها عدد من المساكين ليتلقفوا الأرغفة، حتى شعرت بدوار شديد وبضيق في أنفاسها، وهو أمر تكرر معها كثيرًا منذ رحيل «بَكر».

تركت الأكياس من يدها ليقع ما بها على الأرض، وفرَّت عائدة إلى بيتها، كالهاربة من مصير غامض، كمن يطاردها أشباح، تهرول بأنفاس متقطعة، تتخبط بكل من يمرون بجانبها وأمامها، وسط صيحات البعض عليها، لكنها لم تتوقف من ركضها.

حتى إن إحدى نعليها خُلعت منها دون أن تدري.

أكملت ركضها بنعل واحدة في شوارع السيدة زينب المكتظة بالبشر.

كـ«سندريلا» صعيدية ترتدي جلبابًا أسودَ، دُفن فارسها، ولن يعود أحدٌ إليها بنعلها، سيفترشها أحدٌ من المساكين كوسادة أو ربما ستبقى وحيدة في قارعة الطريق.

***

جلس «عادل» يدخن سيجاره الفاخر وعيناه لا تنفكان عن متابعة تمايل جسد «عايدة» في رقصها. أشار إلى النادل يناديه بيده، ثم همس له في أذنه ليحدِّثه طالبًا منه أن يدعو «عايدة» إلى طاولته بعد انتهاء وصلة رقصها، لكن النادل اقترب منه ليجيبه:

ـ هاحاول يا فندم، بس هو ممنوع.

التفت مرة أخرى لينظر إلى «عايدة» متفحصًا ملامح وجهها وجسدها، ابتسم لها وهو يرفع كأسه في الهواء، لمحته عيناها ولم تبادره بابتسامة منها، استدارت لتحيي جمهورها، فوضع سيجاره في فمه ليصفق لها تصفيقًا حادًّا.

أنهت فقرتها وعادت إلى غرفة تبديل الملابس، وبعد برهة خرجت على عجالة لتجد «عادل» يقف أمام باب الغرفة مسندًا ظهره إلى الجدار، ينظر إليها وهو يدخن سيجاره، تلفتت حولها باستغراب لأنها تعلم أن الزبائن لا يصرح لهم بالدخول هنا.

ـ قالولي إن إدارة المكان مانعة أعزمك تقعدي معايا، قلت أجيلك أنا.

وضعت يدها في خصرها وأسندت الأخرى إلى زاوية باب غرفة التبديل، ثم أجابته بلهجة حادة:

ـ مش إدارة المكان اللي مانعة، أنا.. أنا اللي مابحبش.

اقترب منها للغاية ثم نفث دخان سيجاره في وجهها وهو يبتسم بثقة ليقول بعدها:

ـ طب حِبي.

عادت خطوة إلى الخلف وقد ارتبكت من اقترابه وهي تنظر إلى عينيه.

لم يكُن «عادل» شديد الوسامة، جسده ذو وزن زائد وقامة قصيرة، له وجه دائري ممتلئ، وأنف صغير لا يتناسب مع حجم وجهه، شفتاه اصطبغتا بلون رمادي قليلًا من كثرة تدخينه، على الرغم من نصاعة بياض أسنانه التي يداوم على تنظيفها.

احتفل «عادل»، منذ أشهر، بعيد ميلاده الخامس والخمسين. وظن كل من رآه أنه لم يتعدَّ الأربعين؛ لحيويته الزائدة، لم تشِب شعرة واحدة في رأسه، لكن الصلع قد بدأ يغزو جوانبه، أما عيناه فكان السر يكمن فيهما..

ليس لجمالهما، وإنما النظرة التي تنبع منهما، كان ما يميزه هو رائحة عطره، أناقته، ونظرة عينيه.

عرف من زيجاته المتعددة وعلاقاته النسائية أن ما يأسر المرأة عادةً هو تلك الأشياء الثلاثة، ولا شيء غير ذلك، فكان لا يبالي إن رأى امرأة ولمح في عينيها نظرة استهزاء من كرشه المنتفخ، يقترب أكثر حتى تتلاقى أعينهما، مُدركًا أنها حتمًا ستلتفت إليه وستتغاضى عن الكرش الممتلئ، وإن زاد في اقترابه ستُغريها رائحة عطره الذي يفوح منه كزجاجة عطر كُسرت بين يديها للتو.

تمرَّس لسنوات كيف يرسل بنظراته كسهام تخترق عيني أي امرأة تجذبه، ومنهما إلى قلبها.

يمدحه أصدقاؤه بأنه يستحق درجة الدكتوراه في سرعة إيقاعه أي أنثى يود الوصول إليها، يدرسها عن بعد، لأيام، وربما لشهور، ولا يمل حتى يصل إليها ولو كلفه الأمر سنوات من عمره. يعرف أن لكل واحدة مدخلًا يختلف عن الأخرى، فيعرض الزواج على صعبة المراس التي ترفض العلاقات المحرمة، ومن بعدها بليلة يُرافق أخرى كان الوصول إليها أسهل من ربطة حذائه.. ثم يترك الاثنتين بحثًا عن صيد ثالث.

وعادةً ما كان يحب الراقصات والفنانات المغمورات دون غيرهن من النساء، وفي جلسات أُنسه مع أصدقائه يضحكون على عدد زيجاته ونزواته المهولة.

مرت ثوانٍ وكل منهما ينظر إلى الآخر.. قطعت «عايدة» الصمت:

ـ بعد إذنك.

تركته لترحل بخطى متسارعة، بينما مكث واقفًا يدخن سيجاره وعيناه تتابعانها:

ـ استني.

نظرت خلفها باستغراب، فسار إليها ومد كف يده:

ـ مش اللي بيمشي، لازم يسلم؟

مدت يدها تُسلم بارتباك لم تفهم سببه، فأحكم قبضة يده على يدها:

ـ مش هاسيبها إلا لما تقوليلي أشوفك فين وإمتى.

تعجبت لثقته الزائدة.. وبدت ملامح الضيق على وجهها وهي ترد عليه:

ـ بعد إذنك سيب إيدي، قلتلك أنا مابقابلش حد.

ـ تاني، نتقابل فين؟ وإمتى؟

تنهدت بلا حيلة، وهي تنظر حولها متعجبة من أنه لا يزال واقفًا دون اعتراض أيٍّ من العاملين على وجوده.. واعتقدت أنه ربما ذو منصب وله سيط كي يغضوا الطرف عن وقفته تلك. شعرت بأنه عنيد لن يتركها ترحل هكذا دون أخذ ما يريده..

ـ أوك.. أوك، ادِيني رقمك وانا هاشوف ظروفي واكلمك أقولك.

رفع حاجبه كمن يشكك في كلماتها وابتسم نصف ابتسامة، ثم أفلت يدها التي كانت لا تزال في قبضته.

أخرج محفظته من جيبه ثم أخرج منها كارته الشخصي، وأعطاه إياها:

ـ هاستنى تليفونك، النهارده.

***

مضت أكثر من ساعة على «نجية» بين ذهاب وإياب على غرفة والدتها في محاولات مُستميتة لإقناعها كي ترافقها في عزومة «لينا» لهما، وكانت «حِكَم» حبيسة غرفتها ومتلفحة باكتئابها، بدا وجهها شاحبًا للغاية بعد فقدان كثير من وزنها منذ وفاة «بَكر»، وجفت دموع عينيها مع الأيام.

ـ عشان خاطري يا ماما، الناس عازمانا من امبارح، وانا قلتلهم هنيجي، ينفع يعني يعملوا حسابهم ومانروحش؟

انفعلت «حِكَم»:

ـ وانتي بأي حق تأكدي على حد من غير ما تاخدي رأيي يا «نجية»؟ أنا مش قادرة أدوس برجلي ع الأرض، ولا ليا خلق أروح ولا اجي، سيبيني الله يخليكي، اطلعي وسيبيني انام شويّة.

أدارت جسدها إلى الجهة الأخرى، ثم وضعت الوسادة فوق رأسها وأغمضت عينيها.

جذبت «نجية» الغطاء من فوق «حِكَم»:

ـ قومي يا ماما، انتي نايمة بقالك يومين، كفاية حبسة في الأوضة، دي مش عيشة، وبعدين أنا ماقصدتش أدّي كلمة من غير إذنك.. أنا افتكرتها عزومة مراكبية، لقيت «لينا» بتكلمني دلوقتي تمليني العنوان وباباها أخد منها السماعة وقالي لازم تجيبي ماما معاكي..

سرحت «حِكَم» في حيوية «نجية» وحديثها المتواصل، وأصابتها حيرة؛ فلم تكُن ابنتها تتحدث إلا قليلًا، ولم تكُن تحب الخروج من البيت إلا فيما ندر، أزالت الوسادة من فوق رأسها لتلقيها على ابنتها:

ـ إياك كنتي مفكرة إني هاوديكي لوحدك إن شاء الله؟!

ـ مين قالك بس إني كنت هاروح لوحدي؟ وأنا أقدر أروح مكان من غيرك يا ست الكل؟

انصاعت «حِكَم» أخيرًا لرغبة ابنتها، أخذت نفسًا عميقًا ثم قررت أن تصحو من سباتها المفتعل:

ـ ماشي يا «نجية»، ماعرفش من إمتى بقيتي بكاشة، أخوكي رجع صحيح؟

ـ لأ، ويا رب ما يرجع بقى.

ـ يا شيخة تفي من بقك، ادعي ربنا يهديه.

تجاهلت «نجية» كلمات أمها وفتحت خزانة الملابس تبحث لها عن شيء مناسب لارتدائه.

أخرجت تنورة سوداء واسعة وفوقها بلوزة بيضاء عليها ورد صغير ملون:

ـ يلَّا البسي دا.

خبطت «حِكَم» صدرها وهي تنظر إلى ابنتها في لوم قائلة:

ـ انتي اتجنيتي يا «نجية»؟ إيه الملون اللي هتلبسهولي دا وابوكي ميت؟! وجيبة إيه دي اللي هالبسها؟! لا لا يا «نجية»، انتي عايزة الناس تاكل وشنا؟! أنا هالبس أي جلابية خروج وخلاص.

ـ إيه يا ماما القرف دا؟ انتي شفتي «لينا» وامها عاملين ازاي، وبعدين اللبس دا مش أبويا اللي كان جايبهولك؟! أهو لبس محترم وواسع أهو وزي الفل، مش هتفضلي تلبسي اسود طول عمرك يا ماما، يلا يلا اسمعي كلامي بس.

نظرت «نجية» إلى البلوزة التي حملتها لها ابنتها بين يديها تستعرضها، لكنها أصرت على الرفض في نهاية الأمر وقررت ارتداء بلوزة أخرى سوداء على التنورة السوداء.

وارتدت «نجية» بدورها بنطالًا أسود قماشيًّا واسعًا، وفوقه بلوزة مزركشة باللونين الأحمر والأسود، ووقفت أمام مرآتها تتمنى لو أن تخلع حجابها وتذهب بشعرها منسدلًا.

ربطت حجابها إلى أعلى، وأخرجت غرتها من الطرحة على جانبي جبينها:

ـ يلَّا يا ماما، أنا جاهزة.

انهمكت «حِكَم» تبحث عن شيء في حقيبتها ثم رفعت رأسها تنظر إلى ابنتها، فاتسعت عيناها بشدة قائلة:

ـ يا نهار أبوكي اسود ومنيل! إيه يا بت اللي انتي عاملاه في نفسك دا؟ الناس تقول علينا إيه؟! لابسالي أحمر؟! وإيه طرحتك اللي لفّاهالي كحكة دي؟ ادخلي اعدلي لبسك يخرب مطنك.

ـ يوه، أنا لبسي عاجبني، ماله أهو؟ والطرحة لفّاها سبانيش زي كل البنات.

قرّبت «حِكَم» سبابتها على شفتيها وقد اتسعت عيناها تهديدًا لابنتها:

ـ إياكي أسمع كلمة زي كل البنات دي، إيه؟ عايزة الناس يقولوا تو ما ابوها مات، سابت البت على حل شعرها؟! ادخلي غيّري الهباب دا يا إمّا ورحمة أبوكي لادخل اقلع واقعد، أنا لا عايزة اروح ولا اجي من أصله..

دبت «نجية» بقدميها الأرض غضبًا كطفلة صغيرة ممتعضة، وعادت إلى غرفتها لتستبدل ببلوزتها الملونة أخرى رمادية كئيبة، بينما أصرت على ألا تفك ربطة رأسها، وخرجتا من البيت وسط تأفف الأم من حال ابنتها الذي تبدَّل فجأة.

رفضت «حِكَم» أن تقف أمام العمارة لطلب سيارة الأجرة لشعورها بخجل غير مبرر إن رآها أحد من السكان، وسحبت ابنتها من يدها بخطوات سريعة لتمشي مبتعدة عن محل سكنها، واشتكت «نجية» من ألم قدمها من طول سيرهما فنهرتها «حِكَم»:

ـ اخرسي خالص، أنا عايزة الأرض تتشق وتبلعني بالهباب اللي لبّستهولي دا، أنا إيه اللي يخليني اسمع كلام عيلة زيك؟!

سحبت «نجية» يدها من أمها، ووقفت في اعتراض وقد ابتعدتا بمسافة طويلة عن عمارتهما. أذعنت «حِكَم» لرغبة ابنتها، وأشارتا أخيرًا إلى سيارة أجرة لإيقافها.

ظلت «حِكَم» طوال الطريق من السيدة زينب إلى القاهرة الجديدة هائمة تنظر من نافذة السيارة الأجرة على الشوارع والعمائر، على وسائل المواصلات المكتظة بالبشر، وعلى السماء باتساعها، بينما أمضت «نجية» الطريق وهي ترسل لـ«عايدة» تحكي لها مغامرتها مع والدتها، وجاءها رد أضحكها بصوت مرتفع قليلًا كتمته..

فنظرت إليها والدتها بتحفظ لتحدثها بصوت منخفض حتى لا يسمع سائق السيارة الأجرة:

ـ بتضحكي على إيه يا «نجية»؟!

ـ لا لا مافيش يا ماما، دي واحدة صاحبتي كانت بتقولي حاجة ع الواتس.

تنهدت «حِكَم» لتنظر مرة أخرى من النافذة، وهي تُفكر في حيرة مرة أخرى في «نجية» التي كانت قلَّما تحمل هاتفها أو تستخدمه، أدارت وجهها لتنظر إلى ابنتها التي كانت لا تزال تكتب في هاتفها وقد بدا وجهها أكثر إشراقًا، وعلته ابتسامة بهية.

ابتسمت «حِكَم» في هدوء لحال ابنتها ودعت بهمس:

ـ ربي يسعد أيامك يا بنتي.

***

انبهرت «حِكَم» وابنتها التي ظل فمها مفتوحًا في ذهول منذ لحظة دخولهما من باب فيلا علي صابر.

سارت ومن بعدها ابنتها خلف الخادمة التي ترشدهما إلى الطريق لغرفة استقبال الضيوف، وقد تركت العنان لعينيها لكي تتجوَّل نظراتها في كل أنحاء المنزل.

أشارت إليهما الخادمة بالجلوس، فجلستا في حرص وتمتمت «حِكَم» تُحدث ابنتها:

ـ إيه يا «نجية» دا؟ دا أنا خايفة لبسي يوسخ الكنب.

أجابتها «نجية» بحماس:

ـ شفتي؟ عشان كنتي تصدقيني، قال وكنتي عايزة تيجي بجلابية، دي الخدامة لابسة أحسن مننا.

دفعتها «حِكَم» بقبضة يدها لإسكاتها وهي تنظر في اتجاه الباب خوفًا من أن يحضر أحدهم ويسمعهما.

مرت لحظات شعرت «حِكَم» فيها بملل من الانتظار وعدم راحة في المكان الجديد.

فعلى الرغم من إعجابها في قرارة نفسها بكبر حجم المنزل وأناقة أثاثه فإنها شعرت بضيق لم تعرف له سببًا وودَّت لو أن ترحل. أحست وكأنه منزل بارد لا دفء فيه، عكس بيتها.

سمعت صوت أقدام تقترب من الغرفة، فألصقت قدميها ببعضهما البعض وأخذت حقيبتها التي وُضعت بجانبها لتضعها فوق حجرها.

ـ أهلًا.. أهلًا وسهلًا يا مدام «حِكَم»، نورتوا البيت.

مدَّ «علي» يده يسلم على «حِكَم» وابنتها بينما أذنا «حِكَم» معلقتان بصوت كعب الحذاء القادم بتلكؤ نحوهما.

دخلت عليهما «هدى» وقد بدا عليها زيف الترحيب بضيفتيها، وجلسا جميعًا للحظات ثم حضرت «لينا» لتسلم سريعًا وتسحب «نجية» من يديها لتصعد معها إلى غرفتها.

وبدا القلق واضحًا على وجه «حِكَم»، فطمأنها «علي» قائلًا:

ـ ماتخافيش، دول مش رايحين في حتة، تلاقيهم طلعوا أوضة «لولي»، بنات بقى.

ضحكت «حِكَم» برزانة وهدوء على ما قاله «علي»، وظلت «هدى» على موقفها في ادعاء التبسم الكاذب، وهي تتعجب في قرارة نفسها من معاملة «حِكَم» لابنتها وكأنها طفلة يجب ألا تغيب عن عينيها.. تمتمت لنفسها: «هنخطفها منك يعني؟!».

وكانت مائدة الطعام وقت الغداء مليئة بكل ما لذ وطاب من الأطعمة، شبعت عينا «حِكَم» قبل معدتها، ولم تأكل جيدًا، سألها «علي»:

ـ إيه يا «حِكَم»؟ الأكل مش عاجبك ولا إيه؟ دا «هدى» طبيخها هيعجبك أوي...

فقاطعته «هدى»:

ـ هههه، بيهزر حبيبتي، أنا مش باحب وقفة المطبخ خالص، وعندي طباخ شاطر أوي.

تركت الشوكة والسكينة من يديها ثم رفعتها تستعرض أظافرها المطلية باللون الزهري الفاقع وأردفت:

ـ انتي طبعًا ست وفاهمة قد إيه شغل المطبخ بياخد مجهود مننا مالوش لزمة.

أومأت «حِكَم» برأسها وهي تنقل حبات الأرز الذي أمامها يمنة ويسرة بالملعقة دون أن تأكل وهي تقول:

ـ أيوه أيوه طبعًا، تسلم إيدين اللي طبخ.

ابتسم «علي» في غيظ وهو ينظر إلى زوجته ويضرب قدمها من أسفل المائدة..

فصرخت «هدى» وهي تنظر إلى أسفل:

ـ أووووه! انتي خبطتيني برجلك يا «حِكَم» ولا إيه؟

ارتجفت «حِكَم» وتركت الملعقة من يدها وقد تلجلجت واضطربت، نظرت «نجية» إلى أمها وقد شعرت بالحرج لها:

ـ أنا خبطتك؟ أبدًا والله ما جيت جنبك خالص.

ـ أنا.. أنا اللي خبطتك يا «هدى» من غير ما أقصد، وبعدين هتخبطك ازاي «حِكَم» وهي قدامك مترين الناحية التانية؟!

تدخَّل «علي» لينقذ «حِكَم» من حرجها الذي لم تفعل شيئًا لتشعر به، وعرف من النظرات التي تبادلها مع زوجته في صمت أنها تعلم جيدًا أنه هو من خبطها، لكنها تعمَّدت أن تقول

ما قالته، ابتسمت له ساخرة وهي تقطع اللحم الذي في صحنها بالسكين والشوكة، وتوعدها بنظرة طويلة وإيماءة من رأسه أنِ انتظري ما ستلاقينه، فوجلت وتحولت ابتسامتها الماكرة إلى أخرى متوددة، اعتدلت في طريقة تعاملها عندما تذكرت أن عيد زواجهما على بُعد أيام وأن أي خلاف سيحدث الآن قد يدفعه إلى التغاضي عن شراء هدية قيِّمة لها، وقامت من كرسيها فجأة لتضع من الأصناف المختلفة في صحن «حِكَم»، وتتودد إليها طالبة منها أن تُنهي طعامها، وهي ترمق «علي» بعينيها لتتأكد من متابعته ما تفعله، فصدقت «حِكَم» ودَّها.. وبدأت تأكل.

جلسوا جميعًا بعد انتهاء الغداء يتحدثون في أمور مختلفة، وارتاحت «حِكَم» بعد تودد «هدى» المبالَغ فيه، حتى إنها بدأت تحكي لها عن كفاحها في تربية ابنيها وحياتها منذ الصغر في الصعيد، تتحدث باستفاضة وبلا توقف وتنتقل من موضوع إلى آخر وكأنها تعوِّض حالة الصمت الذي جلست فيه لأيام طوال منذ مقاطعتها جارتها «سنية»، وكانت «هدى» بدورها لا تعلق سوى بجمل صغيرة، تتعمد أن تتخللها كلمات فرنسية لا تفقهها «حِكَم».

وكان «علي» يتابع حديثها بإنصات تام، ويتدخل ليحكي شيئًا عن طفولته هو الآخر، يضحك من قلبه معها.

لقد شعر «علي» منذ اللحظة الأولى التي لمح فيها «حِكَم» بشيء لا يستطيع تفسيره تجاهها، توقَّع سابقًا أن لـ«بَكر» زوجة مثله سليطة اللسان، حادة الملامح، لكنه انبهر بطيبتها وملامح وجهها الجميل التي توارت خلف حزنها.

وقارن، في الليلة الأولى التي رآها فيها، وجهها الخالي من أي مساحيق تجميل بوجه زوجته التي تنام بأحمر الشفاه.

وبينما يتحدَّث الكبار، جلست «نجية» بجانب «لينا» التي فتحت هاتفها تستعرض صورها وتتباهى بأسماء الماركات الخاصة بملابسها، وكانت «نجية» تومئ برأسها وتحدثها بثقة

وكأنها على علم واطلاع بأحدث صيحات الموضة دون اكتراث بهيئتها البسيطة التي لا تقارَن بصاحبتها.

أحضرت الخادمة الشاي، وحل الصمت إلَّا من صوت ارتشافهم وارتطام فناجين الشاي وهي توضع في أطباقها الصغيرة بعد كل رشفة، ثم قطع «علي» السكون قائلًا:

ـ ها، ماقلتليش يا مدام «حِكَم»، ناويين تفتحوا المحل إمتى؟

ابتلعت «حِكَم» رشفة الشاي التي في فمها بسرعة لتجيبه:

ـ مش عارفة والله يا حاج «علي»، أنا كنت أخدت رقمك عشان أكلمك في الموضوع دا لو تشوفلي حد ثقة وأمين يقف فيه، بس انحرجت أكلمك بعدها وانشغلت الصراحة.

ـ لأ هنجيب حد ليه؟ ما احنا نقف فيه يا ماما.

اتسعت عينا «حِكَم» وفيهما نظرة لائمة لما قالته ابنتها.

توجهت أنظار كل الجالسين إلى «نجية»..

فاستطردت:

ـ أكيد يا عمو ماحدش هيقدر ياخد باله من المحل زي ماما.

نهرتها «حِكَم» في رفض وتوتر وبنبرة حادة:

ـ إيه اللي بتقوليه دا يا «نجية»؟ محل إيه اللي هاقف فيه؟ من إمتى بافهم في شغل أبوكي؟ ومن إمتى بنعمل شغل الرجالة؟!

أشاحت بعينيها عن ابنتها ثم نظرت إلى فنجان الشاي الذي تحمله.

تنهدت وشعرت بشيء من الإحراج ثم قالت:

ـ مايصحش والله اللي قلتيه دا!

توترت «نجية» ممَّا قالته، وشعرت بأن نصيحة «عايدة» لها لم تكُن أبدًا صائبة، أحست «لينا» بتوتر «نجية» ووجوم وجه «حِكَم»، فأمسكت كف يدها، وقالت بمرح، في محاولة منها لتلطيف الجو الذي اضطرب، إنها ستأخذ «نجية» معها إلى غرفتها وتتركهم في أحاديثهم.

أومأ «علي» برأسه لابنته، وعلى وجهه ابتسامة تشكرها لفعل ذلك، نظر إلى «نجية» نظرة مطمْئِنَة، ثم تابع الفتاتين وهما تصعدان الدرج، أدار رأسه يحدِّث «حِكَم»:

ـ ليه مايصحش؟ والله شكل بنتك «نجية» إنسانة ذكية جدًّا وبتفهم، دا هو دا فعلًا الحل المناسب.

رفعت «حِكَم» رأسها تنظر إلى «علي» في استنكار:

ـ لأ طبعًا يا حاج «علي»، مايصحش ونص، أنا إيش فهمني أنا في تجارة اللبس ووقفة المحلات؟ دا أنا مادخلتش محل الحاج دا من يوم ما اتجوزنا إلا مرة ولا اتنين.. وبعدين أهل السيدة يقولوا عليا إيه؟! آخر الزمن اتجنيت وهانزل أقف وسط الرجالة، لا لا لا، والله ما يحصل أبدًا، أنا ماعرفش بس مقصوفة الرقبة دي إيه اللي خلاها اتسحبت من لسانها وقالت كدا، حاجة تكسف، مش عارفة والله كل مرة عيالي يحرجوني قدامكم!

فتدخلت «هدى»:

ـ بصراحة أنا مع «حِكَم» يا «علي»، يعني معقول هتقف بياعة، لأ، أنا لو مكانها أجيب حد طبعًا أو تبيع المحل وتاخد فلوسه تسافر وتتبسط...

قاطعها «علي»:

ـ «هدى»، خليكي انتي في السفر والشوبنج.

ثم نظر إلى «حِكَم» وهو يستطرد:

ـ بنتك ماقالتش حاجة تكسف يا «حِكَم»، إحنا في الزمن دا الإنسان مايآمنش لأخوه، هتجيبي الغريب وتسلميه مالك؟ وبعدين إيه دخل أهل السيدة والناس فيكم؟ ومين قالك من أصله إن حد هيتعرَّض لك بكلمة مش ولا بد؟ وبعدين ما انا موجود معاكي ومحلي في وش محلك، وأنا لو مايضايقكيش تعتبريني في مقام أخ ليكي.

«أخ ليكي!»

كررت «هدى» هذه الكلمة في عقلها عدة مرات.. حاولت بشتَّى الطرق، وهي تتابع حديثهما، إيجاد تفسيرات منطقية لتصرفات زوجها، وظنت أنه ربما يطمح لاحقًا إلى هذا المحل.. ترمق «حِكَم» بطرف عينيها، جميلة جدًا ولكنها باهته، امرأة مسكينة، ملابسها متواضعة للغاية، جاهلة للحياة، تصغرها بعدة أعوام ولكن من يراهما حتمًا سيظن العكس، من المُحال أن تجذب زوجها أو أي رجل آخر.

وهي في الوقت ذاته وحيدة ليس لها أحد، ومع كل هذا تملك محلًا من أكبر محلات السيدة زينب.

فكرت.. ربما يريد شراءه منها لاحقًا! لطالما قال إن محل «بَكر» كبير للغاية وله اسمه بحي السيدة زينب.

قرر عقلها باقتناع تام أنه حتمًا هذا ما يريده «علي»، تمتمت بصوت خافت للغاية: «المحل».

واتسعت ابتسامتها وقد صدقت حالها ونظرت إلى زوجها بفخر تحييه على ذكائه وفطنته.

***

ظلَّ «عبده» واقفًا على ناصية الشارع وقد بدا كالمتسولين، نما ذقنه بكثافة؛ فهو لم يحلق منذ وفاة سيده، حتى إن شاربه أصبح يغطي شفته العليا وأصبح لا إراديًّا ينتف شعيراته بأسنانه، لا يشعر بألم، يشعر بغيظ وضيق، قلق وغموض.

لا يخشى «عبده» البقاء في الشارع ولا يؤرقه افتراش الرصيف لينال قسطًا من النوم، أولى ذكرياته التي تمر في ذهنه، أغلبها تداعبها الحشرات الصغيرة التي كان يراها كلما أسند رأسه إلى أحد الأرصفة بجانب العجوز التي كان يرافقها، يتذكرها، تمر تجاعيد وجهها في خياله كطريق غير ممهد إلى أصوله التي لا يعرفها.

يتذكَّر الكوخ الخشبي الذي كان يعيش فيه معها، كان في مكان بعيد، لا يعرف أين هو، مُتهالك وعشوائيَّ ، لم يكُن يؤويهما من برد الشتاء والمطر.

ينفض ذكراها من رأسه ثم يبتلعه الخوف من مصيره، يفكر في «بَكر»، ويشعر بالأسى والضيق.

كيف طاوعته يداه أن يضع البودرة الغريبة التي أعطاها إياه ذلك الوغد «عدوي» في كوب سيده؟! أقنعه وقتها بأنها ستصيب «بَكر» بإسهال ووعكة في معدته لأيام، وأنه حتمًا سيحل محل والده عندما يمرض، ويُثبت فيها جدارته في تحمُّل المسؤولية، وفوق كل هذا سيمنح «عبده» خمسة آلاف جنيه، وشكا «عدوي» له حينها بانكسار ونبرة ضعيفة سوء معاملة «بَكر» وأن كل هذا يفعله ليثبت له جدارته.. كما سيصب في مصلحة «عبده»، وسيقنع والده ليزيد من راتبه. واحتضنه «عدوي» يومها وقال له قبل تركه:

ـ إحنا اخوات يلا، فاهم؟

لم يصدق «عبده» أذنيه حينها، وفرح لوصفه بأخ، وهو وحيد لا يعرف شيئًا عمَّا تعنيه الأخوة.

ـ غبي.

صرخ بأعلى صوته يسب حاله وهو يخبط رأسه بحائط العمارة التي استند إليها، وود لو أن تتهاوى وتسقط فوق رأسه، ود لو أن ينتهي صراعه وشعوره القاهر بالذنب، يتساءل في كل لحظة تمر عليه: أقتله «عدوي»، أم أنا الذي قتلته بيدي، أم ماذا حدث له؟!

يمسح بكفه جبينه الذي سالت منه الدماء جرَّاء خبطته، أصيب رأسه، لكنه لا يشعر بألم.

ـ إيه اللي موقفك هنا يا ابني؟

فجعه صوت «علي»، نظر خلفه وهو يمسح كفه الملطخة في بنطاله، اقترب بخطوات متلكِّئة من «علي» الذي كان جالسًا في سيارته بجانب السائق، ثم أجابهُ:

ـ مافيش يا حاج، قلت أمشِّي رجلي شويّة.

نظر «علي» إلى وجهه وقد لمح بقايا من آثار الدماء السائلة على جبينه، ثم أشار بيده إليه:

ـ طيب يلَّا أنا رايح المحل، اركب تعالى معايا.

ـ لا لا يا حاج مش محتاجة، دا خطوتين هاتمشّاهم انا.

ـ اركب.. اركب يا ابني.

تردد «عبده» للحظات ثم فتح الباب الخلفي للسيارة وركب.

تذكر تهديدات «عدوي» له بأن يختفي من السيدة وكل ما فيها، نظر من نافذته إلى من يمرون أمامه في الشارع يبحث عن وجهه في خوف، يكره نفسه، لقد رباه «بَكر» على احتقار الخوف، الرجال لا يخافون، ماذا سيفعل له؟ لا شيء.

أدار «علي» رأسه ليحدث «عبده»:

ـ انت مابتجيش ليه المحل بقالك كام يوم؟

ـ مفيش يا حاج، قرفان، قلت كفاية أتقّل عليك أكتر من كدا، وصبيانك قايمين بالواجب وزيادة، فملوش عازة وقوفي معاهم، وعشان مايتضايقوش مني.

اعتدل «علي» في جلسته وهو يشير بإصبعه إلى مكان جيد لركن السيارة:

ـ أهي يا «إسماعيل» ركنة حلوة، اقف هنا..

ثم قال:

ـ بس ياض بطّل هبل، وانت فكرك يعني أنا هافضّلك على رجالتي عشان يتضايقوا منك؟ انت عندي لحد ما الحاجة ترجع تشغّل المحل..

نظر أمامه في حيرة يفكر فيما سمعه للتو.

فتح «علي» باب السيارة لينزل منها، ثم التفت خلفه ينظر إلى «عبده» ضاحكًا قبل نزولهما وهو يقول:

ـ الواد «سعيد» واقف بيزغرلك على باب المحل أهو، ماحدش من صبياني ركّبته معايا العربية قبل كدا.

***

لمعت عينا «نجية» واتسعت ابتسامتها، تُعيد قراءة رسالة «لينا» عدة مرات، تدعوها إلى عيد ميلادها يوم الخميس المقبل بأحد مطاعم الزمالك.

لقد أحبت «لينا» «نجية»، شعرت أنها فتاة طيبة، لكنه حب مشروط يشوبه رغبة في التملك واستغلال تلك الطيبة؛ فقد أحبت كيف أن «نجية» تحدثها وكأنها إله الأناقة والجمال وكأنها جارية عندها، بينما هي الملكة التي تستعرض على جواريها الرفاهية بكل أشكالها.

تشعر أنه لا شيء يميزها وسط صديقاتها من الجامعة والنادي؛ فجميعهن يماثلنها في المستوى المادي ويرتدين أحدث الصيحات العالمية، بينما عندما تتحدث مع «نجية» تشعر أنها أفضل حالًا ولديها الكثير الذي تتباهى به.

وعلى الرغم من كل هذا فهي تعرف في قرارة نفسها أن «نجية» جميلة للغاية على عكسها؛ فـ«لينا» فتاة متواضعة الجمال، تبذل مجهودًا أمام مرآتها في وضع مساحيق التجميل لكي ترضى عن حالها، لكنها لم تأبه بجمال «نجية» ولم يُشعرها بغيرة الفتيات؛ فجمالها مندثر في ملابسها المتواضعة وشخصيتها التي تعتقد «لينا» أنها ساذجة ومملة.

شعرت بأن وجود «نجية» معها سيُظهرها بشكل أكبر، وسيسلط الضوء عليها من مدى حسن معاملة «نجية» لها.

وظلت «نجية» طوال اليوم تُفكر كيف ستخرج من البيت في يوم عيد الميلاد وماذا سترتدي، أخرجت كل ما في دولابها وجربت كل ملابسها لساعات أمام المرآة.

ثم تذكرت «عايدة» وفكرت لو أن تستعير منها شيئًا لارتدائه، تأففت عندما خرجت لتجد أمها جالسة في سكون بالصالة..

تحمل «نجية» هم طرق باب جارتهم الذي أمامهم، فكيف إذًا ستذهب مع «لينا»؟! وقفت تُفكر للحظات، ثم سارت نحوها:

ـ إيه يا ماما؟ قاعدة كدا ليه؟

أخذت «حِكَم» نفسًا عميقًا وهي تنظر لابنتها:

ـ أديني قاعدة يا «نوجة»، هاعمل إيه يعني يا بنتي؟ عمالة بافكّر لحد ما عقلي هيشيط..

فقالت «نجية» في حماس:

ـ بتفكّري طبعًا هتفتحي المحل إمتى، صح؟

ـ محل في عينك، بت انتي، ماتفكرينيش بالموضوع دا، أنا كنت قاعدة في نُص هدومي بسببك، قال أفتح محل قال، لا لا، أنا بافكّر أتكلم مع الواد «عدوي» وربنا يهديه كدا ويرجع لصوابه وينزل هو يمسك شغل أبوه.

قفزت «نجية» بعصبية في وقفتها:

ـ «عدوي» مين يا ماما؟ إيه الجنان دا؟!

وقفت «حِكَم» من جلستها تصرخ في ابنتها:

ـ جن لما يلهفك يا بت! مين دي اللي مجنونة؟! جنّك ربنا!

ـ يا ماما انتي تعرفي «عدوي» فين دلوقتي! شوفي بقاله قد إيه ماعتّبش البيت، ولو جه بيخليه جحيم، وكل تصرفاته غلط، كل حياته غلط! انتي نسيتي إنه سبب قهرة أبويا وموته؟! هو أنا اللي هافكّرك كل شويّة؟!

هتآمنيه ازاي على حاجة أبويا؟ دا انتي بنفسك قلتيله كدا، جاية دلوقتي قلبك حن على ابنك الفاشل وتقوليلي ينزل هو؟! فيه إيه يا ماما؟ ما تنزلي انتي!

سارت «حِكَم» إلى غرفتها مبتعدة عن ابنتها في عصبية وتأبى أذناها سماع ما تقوله ابنتها:

ـ نزلت رقبتك على جدورها يا بعيدة، قال أنزل أنا قال!

ركضت ابنتها خلفها ثم وقفت أمامها تمنعها من دخول الغرفة:

ـ أنا عارفة إنك اتدفنتي في البيت دا أكتر ما عشتي فيه، وعارفة إن أبويا كان صعب معاكي، بس اللي عمله دا مالوش إلا معنى واحد، إنه عايزك تعيشي بعد موته.. وانتي يا

أمي، إن رضيتي على نفسك الدفنة دي، فأنا مش هابقى زيك، ومش هاسمح لنفسي أتدفن معاكي.

ألقت «نجية» بكلماتها ثم دخلت إلى غرفتها وأغلقت بابها عليها، بينما مكثت «حِكَم» واقفة في مكانها تُفكر فيما قالته لها ابنتها.

ولا يكف عقلها عن التساؤل، أهي مدفونة حقًّا؟!

***

ـ هو أنا مش قلت لحضرتك إني مابقابلش أي زباين برّه المحل؟

ابتسم بسخرية وهو ينظر إلى السيارة السوداء التي تقف في انتظارها..

أخذ نفسًا أخيرًا من سيجارته ثم ألقاها في الأرض ودهسها بنعله حتى انطفأت، وأشار بإيماءة من رأسه وهو ينظر بجانبه:

ـ ودا إيه؟

نظرت «عايدة» إلى ما يشير إليه «عادل» ثم جزت على أسنانها وهي تجيبه بعصبية واضحة:

ـ وانت مالك؟! أما شيء غريب فعلًا!

اقترب منها «عادل» وهو يقول بثقة واضحة:

ـ هيبقى مالي، وبعدين هو أنا مش قلتلك هستناكي تتصلي بيا؟ هو انتي فكرك صعب أجيب رقمك؟

فُتح باب السيارة التي تقف بعيدًا، ليهبط منها شاب يافع طويل شديد السمرة، يرتدي نظارة طبية وله ذقن خفيف للغاية.

ـ «عايدة»، «عايدة»، يلَّا! فيه حاجة ولا إيه؟!

وضع «عادل» يديه في جيبه ونظر مباشرةً في اتجاه الشاب الذي ينادي، وقف نافخًا صدره بثقة لا مثيل لها، ثم نظر بجانبه إلى «عايدة»، يُحدثها وهو يبتسم:

ـ بيناديكي، ماتردي عليه!

نظرت «عايدة» خلفها على الحراس أمام الملهى باستغراب، فلم يتحرك أحد إليها على عكس ما يحدث حينما يلمحون أي مضايقة قد تتعرَّض لها.. وتأكد ظنها أنهم لا يستطيعون صد «عادل» أو الاقتراب منه.

قبضت كفي يديها بعصبية، ثم سارت بخطوات متسارعة تدب الأرض نحو السيارة التي كانت في انتظارها، حدثت الشاب لثوان فركب سيارته بعدها ورحل، بينما مكث «عادل» في مكانه ينظر إليها وهي تقترب منه وقد بدا عليها الانفعال:

ـ شطّورة، كويس إنك قلتيله يمشي من هنا.

ـ أنا قلتله يمشي عشان مش عايزة مشاكل قدام اللي خارجين من النايت...

ضحك «عادل»:

ـ مشاكل؟! حتة العيل دا يعمل مشاكل؟! انتي غرك طوله وعرضه؟! دا واد ورقة، لو نفخته يطير وماتعرفيش تجيبيه..

تأففت «عايدة»:

ـ أيوه وبعدين؟! هو انت عايز مني إيه دلوقتي؟!

سار خطوات إلى سيارته المرسيدس الفارهة ثم فتح بابها وأشار بيده إليها لتركب..

نظرت إليه وقالت بصوت مرتفع:

ـ ماباركبش مع زباين.

فضم أصابعه وأشار بسبابته وهو يميلها من أعلى إلى أسفل بإشارة تقول: «تاني»؟!

نفخت بنفاد صبر فطارت الخصلة المنسدلة على وجهها ولسان حالها يقول: «فليكن».

سارت في تحدٍّ تجاهه وهي تتمتم: «لما اشوف آخرتها إيه».

أغلق الباب بعد صعودها، ثم ركب بجانبها، وأدار سيارته ليتحرَّك بها:

ـ ماقلتليش، مين حتة العيل دا بقى؟

ـ «إسلام»! ده مش حتة عيل!

ـ أنا مالي باسم أهله؟! غلطنا في ملك إنجلترا معلش، أيوه مين يعني؟ بيبيع إيه؟

لم تجبه، انتاب «عايدة» صمت وشعور بالذهول؛ لأنها وافقت على مرافقته، ترى إلى أين سيأخذها؟ من هو؟ لا تعرفه، هي حتى لا تعرف اسمه، تحاول التذكُّر.. لقد أعطاها كارته الشخصي، وقاله لها في المرات السابقة التي حاول التحدث فيها معها.

لا، لا تتذكر، ولا تريد التذكر، كل ما تُفكر فيه هو مشاعرها المضطربة والقلقة، لسنوات طويلة عملت فيها بالملهى الليلي لم تخرج بصحبة أحد من الزبائن قط.

وكان «إسلام» هو صديقها الوحيد، تعرفت إليه منذ عدة سنوات في «on the run» بإحدى محطات البنزين، عندما وقفت مع صاحبة لها تعمل مطربة بالملهى معها، لتشربا قهوة، فاقترب منها يستأذنها في ولاعة لإشعال سيجارته، ولأن صاحبتها كانت أكثر خفة منها وتحب محادثة الغرباء، اختلقت دعابة أنهت جلستهم بتبادل الأرقام بينهم، وكان «إسلام» شابًّا عاديًّا، ينتمي إلى أسرة شديدة الالتزام، وعرف من مكالماته الطويلة مع «عايدة» قصة حياتها، فظل الصاحب الأمين الذي عادةً ما يعرض عليها إيصالها إلى البيت بعد انتهاء عرضها في الملهى، ولا شيء في علاقتهما يشينها سوى أنها تعلم أنه يحبها في قرارة نفسه، وهي بدورها لا تحبه، لا تحبه لأنها لا تريد أن تحبه؛ لأنها تعلم جيدًا أن أهله لن يسمحوا بزواجه بها، فقررت الاحتفاظ به صديقًا قريبًا لها، يتقبلها كما هي ولا ينتقدها، يُضحكها بنكاته وحسه الفكاهي، ويقلق عليها حينما تغيب، وتكتفي بقضاء وقتها معه بالمرور في طريقهما إلى بيتها بالسيدة بطلب وجبات سريعة يتناولانها معًا في سيارته، هي حتى لا تتذكر أنها جلست معه في مكان عام أو مقهى ولو لمرة واحدة، منذ المرة الأولى التي رأته فيها.

كانت سيارته هي الملتقى الوحيد لهما، وهو بدوره أيضًا لم يعرض أبدًا لسنوات عرفها فيها أن يأتي ليشاهدها في الملهى الذي تعمل فيه، على الرغم من أنها عادةً، عندما تراه، تريه بعض المقاطع المصورة على هاتفها لها وهي ترقص.

ويثني عليها بأنها راقصة ممتازة ولا ينظر إليها نظرة رغبة.. أو هذا ما يُخيَّل إليها.

ـ إيه؟ ساكتة ليه؟

قاطع «عادل» أفكارها، نظرت إليه وأجابته:

ـ مفيش.. هو انت بتشتغل إيه صحيح؟

ـ همم تقدري تقولي رجل أعمال.. ها، أنفع ولا مش قد المقام؟

لم تجبه، فقال:

ـ طيب قوليلي.. تحبي تروحي فين؟

ـ أنا بجد مش فاهمة.. أروح معاك ليه من أساسه؟ أنا ماعرفكش.. وبعدين...

وضع كفه على فمها ليسكتها:

ـ بس بس، ماكنتش اعرف ان صوتك عالي كدا، خلاص عرفت هنروح فين.

مرَّ نصف ساعة حتى توقف أمام إحدى البواخر النيلية الفاخرة، ركض السائس إليه يحيِّيه ويفتح الباب لهما ثم أخذ مفاتيح السيارة..

ـ اتفضلي.

أشار إليها أن تسير أمامه فطاوعته رغمًا عنها، ومكث يمشي خلفها وهو يتفحَّص جسدها..

دخلا إلى المطعم الموجود بالدور العلوي من الباخرة وطلب من النادل الذي رحَّب به بشدة طاولة مطلة على النيل.

سحب لها كرسيًّا لتجلس ثم جلس أمامها، أخرج علبة سجائره من جيبه، عرض عليها سيجارة فأخذتها ثم أمسك الولاعة ليشعل سيجارتها، وأشعل سيجارة أخرى لنفسه.

ـ واضح إنك مسيطر في كل الأماكن.

ابتسم وهو يومئ برأسه بثقة. أخذ نفسًا طويلًا للغاية من سيجارته، ثم نفث كلماته مع الدخان الكثيف الخارج من فمه في وجه «عايدة»:

ـ ها، هنتجوز إمتى؟

***

ناولت «سحر» رغيف العيش لـ«عدوي»، ثم خبطت بكوعها ابنها «محمود» وهي تقول:

ـ يا واد صاحبك مابياكلش زي الناس، ماتعزم عليه بدل ما انت قاعد تحش كدا في مصارينك!

أجابها «محمود» الذي امتلأ الطعام في فمه، وهو يغمس لقمة أخرى في صحن الفول الذي أمامه:

ـ ما الأكل مرزوع قدامه أهو، كل ياض ماتزعلش «سحر» مننا.

ـ والنبي إيه؟! كدا يعني هياكل؟ أما إنك واد طربش زي أبوك.

فتدخَّل زوجها، وقد تساقط فتات الطعام من فمه وهو يتحدث:

ـ الله! جرى إيه يا وليَّة؟ أنا مالي انا؟! كُل يا عم «عدوي»، جايبلنا الكلام.

نفض «عدوي» يده وقام من جلستهم المستديرة على الأرض حول الجرائد التي افترشوها لإفطارهم:

ـ تسلمي يا أم «محمود»، أنا شبعان.

سار نحو الشرفة وجلس يلف سيجارة من البانجو.

نفضت «سحر» يدها وهي تنظر إلى أسرتها في لوم، ودخلت الشرفة تربت على كتف «عدوي»، وتتحسس يداها ظهره:

ـ انت قمت ليه؟ لحقت تاكل حاجة عشان تقوم؟

مال رأسه ينظر بطرف عينيه إلى يدها التي تتحسسه، ثم رفع حاجبه وهو ينظر إليها بابتسامة خبيثة وقال:

ـ ماليش نِفس في الأكل دا.

مالت شفتاها ونظرت إليه نظرة فهم معناها، ثم تحركت خطوتين بجسد ممتلئ تتمايل أشلاؤه يمنة ويسرة، لتسحب كرسيًّا وتجلس أمامه، أخذت سيجارة البانجو من يده وألقتها في الشارع ثم دبت يدها في صدرها وأخرجت لفافة صغيرة من السوليفان:

ـ سيبك من دي.. خد لف الحتة دي وادعيلي..

فك «عدوي» السوليفان وقرّب قطعة الحشيش من أنفه يشمها ثم غمز لها قائلًا:

ـ لأ ميَّة مية.. أموت وأعرف بتجيبي الحاجات دي منين.

-مش شغلك ياواد.

أشعل فيها النار ليخلطها بتبغ السجائر، ثم لف سيجارته، واختطفتها «سحر» من يده قبل أن يلصق أطرافها، لحست ورقتها بلسانها وهي تنظر إليه نظرة هائمة فيه وأخذت الولاعة الموضوعة بجانبه، أشعلتها له وأخذت نفسًا طويلًا منها ثم ناولته إياها ومعها كلماتها:

ـ انت بس لو تقولي دماغك فيها إيه، أرتّب لك كل أمورك وأستّفهالك.

أخذ «عدوي» نفسًا من سيجارته وهو ينظر إلى الشارع الضيق والرجل الذي يجر عربة الحمار، أشار بيده:

ـ شايفة العربجي اللي هناك دا؟

نظرت «سحر» خلفها على ما يشير إليه «عدوي»:

ـ آه شايفاه، ماله؟

ـ أهو أنا حاسس إن حظي من يوم ما جيت الدنيا أوسخ م الحمار اللي بيجره ليل نهار دا.

ضحكت «سحر» ضحكة مرتفعة بميوعة، ثم خبطت فخذه بيدها وهي تقول:

ـ ماتقولش على نفسك كدا يا واد، انت أحسن م الحمير كلهم.

فضحك «عدوي» بصوت مرتفع للغاية:

ـ يكرم أصلك يا ست «سحر»!

اقتربت منه في جلستها ثم أخفضت صوتها وهي تُحدثه:

ـ لأ بجد يا واد يا «عدوي»، انت مشكلتك إيه؟ مش حاجة أبوك تجيلك وكله يبقى باسمك؟ خلاص ماتشيلش هم، عمك يعرف حتة محامي عقر، بيقعد معاه ع القهوة يظبّطلك الدنيا كلها.

ـ يا ستي محامي هيهبب إيه؟ ما كله بالورق، الله يحرق الورق.

سكتت «سحر» لثوان ثم قالت:

ـ طب خلاص، سيبني أفكر لك في حاجة تخلي أمك هي اللي جاية لحد عندك تتحايل عليك تمسك محل أبوك.

أخذ «عدوي» نفسًا من السيجارة وهو ينظر إلى «سحر» سارحًا في جسدها الممتلئ، وقد أنسته سيجارته كل ما كان يقال.

***

لم تكترث «نجية» لأمر والدتها التي رفضت ذهابها إلى عيد ميلاد «لينا».. وقفت أمامها تُخبرها بإصرار أنها ذاهبة، لا تتذكر «حِكَم» أن ابنتها قد عصت لها أمرًا منذ يوم ولادتها، في حقيقة الأمر لم يكُن لدى «نجية» شيء تفعله لكي تعصي أحدًا من أجله، كان هذا العصيان العلني الأول.. وخرجت من البيت وسط صيحات أمها، لكنها لم تأبه.. وأخبرتها أنها لم تعُد صغيرة لتُحبس، وأنها لن تسمح لأمها أن تدفعها إلى خسارة صديقة جديدة اكتسبتها للتو.

شعرت «حِكَم» بقلة حيلة ولم يكُن منها إلا أن تطلب من ابنتها ألَّا تتأخر، حتى لا يلومها سكان العمارة ويتحدثوا عن ابنتها، وخوفًا من عودة أخيها الهائم على وجهه في أي لحظة فيحدث ما لا تُحمد عقباه، استمعت «نجية» بآذان غير مصغية لوصايا والدتها وهي تومئ برأسها بافتعال.

وما إن ركبت سيارة الأجرة، خلعت طرحتها من على رأسها فانسدل شعرها الطويل على كتفيها ولمحها السائق في المرآة الأمامية فانبهر كونها أصبحت فاتنة للغاية.

وظلت طوال الطريق تهمس لنفسها وكأنها تحيّي صديقات «لينا» اللاتي على وشك أن تلقاهن، تُحرك يدها وتضحك، وتحاول التفكير في القصص التي قد تقولها عن نفسها، ثم تضع يدها على فمها وكأنها تضحك بميوعة تناسب المستوى الاجتماعي الذي تنتمي إليه «لينا».

وكان السائق يتابع همسها وحركاتها دون أن تلاحظ وهو لا يفهم شيئًا فهمس لنفسه:

ـ يا بنت المجنونة!

ما إن وصلت أمام المطعم الذي سيُقام فيه عيد ميلاد «لينا»، حتى تبخرت كل الأشياء التي قالتها لنفسها طوال الطريق، شعرت بيديها تتعرقان، وبدأت تتابع بعينيها من يقفون أمام المطعم، هؤلاء الشباب شديدي الوسامة! لمحت واحدًا ينظر إليها، فابتلعت ريقها وسارت

مُسرعة إلى مدخل المطعم بينما عيناها تتابعان الفتيات مثيلاتها، ملابسهن الجريئة ورائحة عطورهن الأخَّاذة.

نظرت حولها تبحث عن «لينا»، فرأت مجموعة كبيرة تجلس وتتعالى ضحكاتهم.. تسارع نبضها وقررت أن تعود مرة أخرى من حيث أتت، لا.. لا، أنا لست مثلهم! عقلها يصرخ فيها.. حتمًا سأصبح فقرة السخرية اليوم لهم.

استدارت بسرعة لتعود من حيث أتت، فارتطم جسدها بشاب خلفها، جف حلقها، ووضعت خصلات شعرها خلف أذنيها وهي ترفع رأسها لتواجهه، فابتسم لها وهو يشير إليها أن تسير.

بدَّلت رأيها، وسارت أمامه وهي تنظر خلفها كلما اقتربت من طاولة «لينا» وأصدقائها، ثم قالت بصوت مرتفع:

ـ إيه الرخامة دي؟ جاي معايا دا ولا إيه؟!

نظرت «نجية» إلى «لينا» فوجدتها تنظر تجاهها وهي تقفز بسعادة وتصرخ بمرح.

سعدت «نجية» باستقبال «لينا» لها، تشجعت واقتربت منها لتسلِّم عليها، لكن «لينا» ركضت لتحتضن الشاب الذي خلفها مباشرة، فاستوعبت «نجية» أن كل هذا الاستقبال الحافل لم يكُن لها، ووقفت لدقيقتين مرَّتا كالدهر..

وكأنها شبح، لا يراها أحد، أخذت جانبًا في حرج وهي تطقطق أصابعها وتلوم نفسها.. ليتها لم تأتِ.

قال «آسر» مُحدثًا «لينا»:

ـ انتي ماسلّمتيش على صاحبتك!

أدارت «لينا» رأسها فالتقت عيناها عيني «نجية» وأدركت أنها لم تعرفها بسبب خلعها الحجاب، امتعض وجهها للحظة، ثم ابتسمت ابتسامة واسعة مُفتعلة:

ـ أوه.. «نجية»! ماعرفتكيش يا بنتي، انتي قلعتي الحجاب؟!

ـ أنا.. لا لا، أنا بس...

نظرت «لينا» إلى «آسر» في توتر، وقاطعت «نجية»:

ـ إيه دا wait.., انت تعرف «نجية» يا «آسر» ولا إيه؟

فابتسم «آسر».

ـ أبدًا أبدًا، ماعرفوش والله.

ضحك «آسر» على رد «نجية» السريع وسذاجتها وعلق قائلًا:

ـ أنا معرفتي وحشة أوي كدا؟! لا يا «لولي» دا احنا اتخبطنا في بعض وانا داخل، ولاحظت إنها جت وفضلت واقفة...

ضحك وقال وهو ينظر إلى «نجية»:

ـ مكسوفة تقريبًا تسلم.

شعرت «لينا» بارتياح، ثم التفتت إلى إحدى صديقاتها تطلب منها أن تبدل مقعدها لكي يجلس «آسر» بجانبها، بينما مكثت «نجية» واقفة في مكانها لا تتحرك.

نظر «آسر» إليها وهو يتحدث بصوت مرتفع:

ـ طب مش هتعرفينا يا «لينا» على صاحبتك ولا إيه؟

نظر الجميع إلى «نجية» التي ودت لو أن تبتلعها الأرض أو أن تتبخر:

ـ دي «نجية»، بنت حد من صحاب بابايا.

«بس كدا؟!»

همست «نجية» تحدث نفسها:

«بس كدا؟»

توقعت أن تناديها أمامهم بأنها «نجية» صديقتي المقربة، صديقتي الجديدة، حدثها عقلها باستنكار، أكل ما تعرفينه عني أنني ابنة أحد أصحاب والدك؟! في حقيقة الأمر لم يكُن والدك أبدًا صاحبًا لأبي!

أشار «آسر» الذي ظلت عيناه طوال جلسته تراقبان «نجية» واضطرابها:

ـ اقعدي يا «نجية»، واقفة ليه؟

ابتسمت «نجية» في حياء ولبت طلب «آسر»..

وجلست في صمت تنظر حولها تتابع الأحاديث والضحكات وتتجنَّب النظر إلى «آسر» الجالس أمامها لأنها تلاحظ أن عينيه لا تكفان عن النظر إليها.

أما «لينا» فكانت تحدث الجميع إلا «نجية»، ولم يضايق «نجية» هذا الأمر، فقد حمدت الله بداخلها لأنها مهمشة، فلربما سُئلت عن أي شيء ولم تستطِع الإجابة وستجيب بلسان متلعثم، سيجعل منها أضحوكة أمام الجميع.

ومر الوقت عليها وهي ترتدي صمتها وسط الضجيج والصيحات، ثم استأذنت من «لينا» لأن الوقت قد تأخر وأن عليها الرحيل.

ولم تدرك أن «آسر» هو الآخر قام خلفها يتبعها.

ووقفت أمام المطعم تبحث عن سيارة أجرة فوقف أمامها «آسر» بسيارته:

ـ انتي معكيش عربية؟

هزت رأسها بالنفي:

ـ طيب اتفضلي أوصلك.

ـ لا لا شكرًا، مايصحش.

ـ يا بنتي تعالي، المكان هنا مش أحسن حاجة وفيه ناس ممكن تضايقك، وبعدين Definitely أنا أأمن من أي سواق تاكسي ماتعرفيهوش.

نظرت إليه مبتسمة فابتسم لها ثم مال بجسده يفتح لها الباب، ركبت بجانبه، وقد بدا وجهها شديد الحمرة على الرغم من أنها لم تضع شيئًا على وجهها من مساحيق التجميل عدا أحمر شفاه بسيط للغاية.

ولمح «آسر» احمرار وجنتيها وأعجبه خجلها الذي لم يرَ له مثيلًا من قبل:

ـ ساكنة فين يا «نجية»؟

ـ اااا.. في السيدة زينب.

ـ أوك، دلعك إيه بقى؟

نظرت إليه «نجية» لا تفهم، فضحك:

ـ إيه يا بنتي، بيدلعوكي بيقولولك إيه؟

ـ آه، «نوجة».

ـ «نوجة».. هممم، تمام جدًّا، أنا هاقولك «نوجي»، اتفقنا؟

ابتسمت «نجية» في سعادة مبالغ فيها، وفتحت نافذة السيارة ليتطاير شعرها، نظر لها «آسر» وابتسم ثم أغلق تكييف السيارة وفتح نافذته.

***

ـ أنا واخدة على خاطري منك، بس قلت برضه مايصحش نقعد كل دا ومانتكلمش.

أدارت «سنية» رأسها إلى الجهة الأخرى وهي تتمتم بكلمات لم تسمعها «حِكَم».

كانت بالغباء الكافي والاحتياج لأن تلجأ إلى جارتها؛ فهي لا تعرف أحدًا غيرها.

على الرغم من كل ما شعرت به مؤخرًا تجاهها، على الرغم من كل الضيق الذي سببته «سنية» لها، وشعورها الداخلي بأنها كانت تستغلها بوضوح، فإنها عادت لتطرق بابها مرة أخرى، ولامت ابنتها في قرارة نفسها، فلولا أنها تركتها اليوم وحدها في البيت، لما تجرأت على طرق باب «سنية» مرة أخرى.

ولم تعرف «حِكَم» أن «سنية» لم تترك أحدًا من جاراتها بالعمارة إلا وعابت عليها وقالت عنها ما ليس فيها.

ـ طب يا أبلة مش هتقوليلي ادخلي ولا إيه؟

امتعض وجه «سنية» ثم قالت:

ـ اتفضلي يا اختي، يعني هامنعك ولا هامنعك؟!

دخلت «حِكَم» لتجد زوجة جارهم الحاج «أشرف» جالسة، وفور أن وقعت عين تلك السيدة على «حِكَم» حتى انقلب وجهها، وتبادلت مع «سنية» نظرات لم تستطع «حِكَم» فهم مغزاها، لكنها شعرت بأن هناك شيئًا ما لا تعرفه.

ـ طيب هاقوم أنا واسيبك مع ضيوفك، ونكمل كلامنا بعدين.

خرجت المرأة دون أن تحيِّي «حِكَم»، بينما وقفت الأخيرة في ذهول:

ـ تصدقي يا أبلة عندك حق في اللي قلتهولي عليها، دي ست شكلها قوية ومفترية فعلًا! الست شافتني ماسلّمتش حتى! دا حتى لما الحاج مات، جوزها بس اللي عزّاني والولية ولا عتّبت بابي!

جلست «سنية» ووضعت عكازتها بجانبها ثم تنهدت بضيق، وفي مُقلة عينيها نظرات مريبة توجهها إلى «حِكَم»:

ـ معلش بقى.. نقول إيه؟! ناس ناقصة.

جلست أمامها «حِكَم» ولم تركض إلى المطبخ كعادتها لعمل كوب الشاي.

أشارت «سنية» بعكازتها على الطاولة:

ـ والنبي دخّليلي شويّة الكوبايات والطبقين دول جوَّه.

حملتها «حِكَم» طواعية وعينا «سنية» تتابعانها في ترقُّب، لسان حالها يتساءل: تُرى هل ستغسلها لها أم ستتركها؟ لكن «حِكَم» وضعتها وعادت، فلوت «سنية» شفتيها بضيق.

تسللت إلى أنفها الرائحة الكريهة المعتادة في عودتها للجلوس:

ـ انتي ازاي قاعدة مستحملة الريحة اللي في البيت دي يا أبلة؟

ـ ماله يا اختي بيتي؟! ريحته زي الفل، انتي شامة اللي احنا مش شامينه ولا إيه؟!

ـ لا لا، مش قصدي يا أبلة، يمكن القطة عملتها هنا ولا هنا.

ـ آه يمكن يا اختي، وإيه أخبارك بعد ما الراجل مات وسابلك كل اللي حيلته باسمك؟ أتاريكي اتفرعنتي عليا وشوفتي نفسك يا بت.

اضطربت «حِكَم» مما تقوله «سنية»:

ـ أنا يا أبلة شوفت نفسي؟! دا أنا باعتبرك في مقام أمي، واشوف نفسي على إيه بس؟ ربنا وحده اللي عالم بحالي.

ـ أيوه أيوه يا بت، اعملي الشويتين دول عليا، ماشي يا اختي اللي عِلي عِلي.

ـ ربنا يسامحك يا أبلة «سنية» والله.

ـ يسامحني؟! يسامحني على إيه إن شاء الله؟ ربنا يسامحك انتي، مش بعيد انتي اللي قعدتي تقهري في الراجل لحد ما فطس منك ومات، وكتِّبتيه كل اللي يملكه ليكي عشان تلهفي اللي وراه واللي قدامه، دا انتي! آه منك انتي، مرة قوية..

وقال كنتي فالحة بس تجيلي وتتمسكنيلي وتعمليلي فيها مكسورة الجناح، ويوم لما طلبت منك كام ألف سلف مايجوش نقطة في بحرك، مش تقوليلي من عينيا يا أبلة، لأ تستخسري فيا، أعوذ بالله منك يا بعيدة، أعوذ بالله، يكفينا شرك.

شعرت «حِكَم» بأنها على وشك الموت، ضاق صدرها، منذ موت «بَكر» كل الأشياء تضيّق صدرها وتكتم أنفاسها، منذ موت «بَكر» كل الأشياء لا تبدو مثلما اعتادتها، وكل الأشخاص أصبحت لهم وجوه جديدة لم ترَها من قبل، تحزن بلا مبررات كبيرة، وتبكي على أتفه الأسباب، حتى إنها وقبل نزولها إلى جارتها، بكت وهي تبحث عن طرحتها، وقد نسيت أنها مُعلقة خلف باب غرفتها!

ولم تجد «حِكَم» كلمة واحدة ترد بها على «سنية»، قامت برأس مطأطأ ودموع تتساقط منها على الأرض متجهة إلى الباب لتخرج، فقامت خلفها «سنية» تسير بعكازتها بخطوات سريعة؛ لتسبقها وتفتح لها الباب، وقد رأت وجهها الباكي:

ـ أيوه يا اختي عيّطي عيّطي، امسحي يا اختي دموعك اللي هتوسَّخ الأرض، أما دموع تماسيح صحيح!

الأرض! الأرض التي حنت ظهرها لتمسحها لها ألف مرة.. لعن الله أرض بيتها..

خرجت «حِكَم» وهي تلعن جارتها في سرها، وصفعت «سنية» الباب خلفها بقوة أكثر من المرة السابقة، فاهتز جسدها متألمًا وكأنها ضُربت بسكين.

ووقفت على السلم تبكي بحرقة، شعرت بصدمة كادت تفوق صدمة وفاة زوجها.

لسنوات طويلة، كانت هذه المرأة المُسنَّة الملاذ الوحيد لـ«حِكَم»، وكانت تحبها وتشعر بأنها وجدت فيها الأم التي تغربت بعيدًا عنها منذ صغرها، بئر أسرارها وطبيبها النفسي الذي يستمع إليها دون مقاطعة.

محبتها الجارفة تجاه «سنية» كانت أقوى من مشاعرها تجاه والدتها، التي عندما عادت لتراها بعد سنوات طويلة، لم تشعر بعاطفة قوية تجاهها.

وكان بكاؤها حارقًا هذه المرة لأنها شعرت بأنها ظلمت نفسها؛ لطرق باب تعلم أنه لا يوجد خير خلفه.

كرهت «حِكَم» في تلك اللحظة لين قلبها، ورأت أنه من الخبث أن تتعلق بما يؤذيها.

فقلوبنا أحيانًا تقودنا بخبث نحو ما يؤذينا، وتفرش لنا الطريق إلى خيباتنا بالآمال الوهمية.

من لؤم القلوب الخفيّ: دفعنا إلى التمسك بأشياء لن تجلب لنا سوى الشر.

لن تجلب لنا سوى المآسي، والحسرات.

وقفت مرتعشة تُفكر، كيف ستواجه عقلها الذي حذرها مؤخرًا مرات كثيرة من طرق هذا الباب مرة أخرى، وكأنها ترفض الاعتراف باستغلال «سنية» لها، وأنها في حقيقة الأمر ليست امرأة شديدة الطيبة كما ظنت «حِكَم» لسنوات.

أسندت ظهرها إلى الحائط تنظر إلى السلم الذي ستصعده، وشعرت بأن قدميها لا تقويان على حملها، تقطعت أنفاسها وزاغت عيناها ثم غاب عنهما الضوء.

***

همست «عايدة» بصوت منخفض للغاية تحدث «نجية» وهي تسير إلى غرفتها، وفي يدها كوب عصير الليمون الذي صنعته للتو:

ـ أنا نفسي أفهم انتي فين يا قردة كل دا، دي أمك هتعلقك.

فأجابتها «نجية» بصوت أكثر انخفاضًا:

ـ هاقولك بعدين، هاقولك بعدين.. فهّميني بس فيه إيه؟

لم تُجِبها «عايدة» ودخلت غرفتها وفي يدها كوب الليمون، وخلفها «نجية» التي وقفت تنظر بقلق وحيرة، وتتساءل فيما بينها تُرى ما الذي أتى بوالدتها على سرير «عايدة»؟!

كيف وافقت على دخول هذا البيت؟!

وثبت «حِكَم» من استلقائها، فور أن رأت ابنتها على الرغم من شحوب وجهها وإعيائها:

ـ انتي كنتي فين؟

ـ أنا.. أناااا.. كنت في عيد ميلاد «لينا»، ما انتي عارفة.

ـ أيوه، ماكنتيش بتردي على تليفونك ليه؟ اسمها إيه دي قالتلي إنها كلمتك كذا مرة، وبعدين هو انتو من أساسه تعرفوا أرقام بعض منين؟!

نظرت «عايدة» خلفها إلى «نجية» التي وقفت كطفلة معاقبة وهمست لها:

ـ مش سهلة أمك برضه، دماغها شغالة وهي دايخة!

ثم نظرت إلى «حِكَم» تُحدثها:

ـ أنا يا طنط اللي أخدت منها رقمها، كنت قابلتها مرة ع السلم، وقلت يعني لو احتجتوا حاجة أو كدا، وبعدين ما انا قلت لحضرتك هي ماكانتش سامعة التليفون وردت أول ما سمعته.

غمزت «عايدة» لـ«نجية» وأردفت:

ـ مش كدا يا «نجية»؟

ـ أيوه، آه.. آه أنا ماكنتش سامعاه خالص، هو فيه إيه؟

أرادت «حِكَم» أن تقوم من على السرير وكانت لا تزال تشعر بدوارٍ شديد:

ـ لسَّه فاكرة؟ مفيش حاجة يا ست هانم، يلَّا قدامي ع البيت.

ـ لا لا يا طنط، بيت إيه؟! أنا عملتلك الليمون لازم تشربيه عشان وشك لونه مخطوف وعشان ماتدوخيش تاني.

ـ يا جماعة ماحد يفهمني، فيه إيه؟

حكت «عايدة» لـ«نجية» ما حدث لوالدتها، فقد فقدت الوعي أمام بيت سنية، أثناء صعود «عايدة» بالصدفة في نفس اللحظة. أخبرتها أنها قامت هي وأحد أبناء الجيران بحملها

وأتت بها إلى بيتها.

هرعت «نجية» وجثت على ركبتيها بجانب أمها تُقبل يدها:

ـ يا لهوي يا ماما، أُغمى عليكي؟! أنا آسفة إني سبتك لوحدك.

سحبت «حِكَم» يدها من «نجية» بعصبية:

ـ أنا بقيت كويسة، يلَّا قوّميني من هنا، عايزة أرجع بيتي.

اقتربت منها «عايدة» ونظرت إليها بابتسامة حانية:

ـ عشان خاطري، مع إني عارفة إني مليش خاطر عندك، اشربي الليمون، واهدي كدا شويّة وبعدها روحي، انتي زي ماما الله يرحمها، وعمر لو ماما مكانك ماهخليها تقوم من مكانها إلا أما تشرب. اتفضلي بقى لو سمحتي..

نظرت إليها «حِكَم»، ومدت يدها لتأخذ كوب العصير منها وترتشفه في هدوء، نظرت حولها على الملابس الملقاة على كرسي التسريحة والدولاب المفتوح الذي يُظهر بدل الرقص المعلقة، فامتعضت في صمت.

ـ ما هو كل دا يا ماما عشان انتي مابتاكليش خالص، لازم تاخدي بالك من صحتك، وبعدين انتي إيه اللي نزلك للست اللي تحت دي؟! انتي مش قلتي إنك هتقاطعيها خلاص؟

تنهدت «حِكَم» لترد على ابنتها:

ـ دا أنا أستاهل ضرب الجزم إني عتّبت بيتها.

دمعت عيناها لتبكي بلا إرادة منها مرة أخرى:

ـ تخيلي يا «نجية»، تخيلي تقولي أنا اللي قصفت عمر أبوكي عشان آخد اللي وراه واللي قدامه وإني كنت باتمسكن.. تخيلي أبلة «سنية» تقول عني كدا، بعد كل اللي كنت باعمله عشانها!

سحبت «عايدة» «نجية» من ذراعها لتقوم من جلستها وتجلس مكانها:

ـ حضرتك كنتي بتعملي الخير في المكان الغلط.. ماتعيّطيش يا طنط، المفروض تعيطي على الناس اللي تستاهل بس! أنا ماعرفش حضرتك كنتي قريبة منها ازاي، بس هي معروف عنها إنها ست قادرة وخرَّابة بيوت، من أيام أمي الله يرحمها وكنت لسَّه حتة عيلة وفاكرة كويس جدًّا إنها ماكانتش ست كويسة، وان جيتي للحق بقى، «سنية» دي هي اللي قصفت عمر جوزها، ماتزعليش بقى خلاص.

أخذت «عايدة» منديلًا من علبة المناديل الموضوعة على الكومودينو بجانب السرير واقتربت تمسح وجه «حِكَم»:

ـ وبعدين باقولكوا إيه بقى، أنا ماباحبش الدراما أبدًا، أنا جعانة و«نجية» قالت إن حضرتك مش بتاكلي كويس، أنا هاتصل اعمل أوردر كباب وكفتة ونتعشى كلنا سوا..

رفضت «حِكَم» بشدة في بادئ الأمر، لكنها وافقت في النهاية مع إصرار «عايدة»، وشعرت «نجية» بأن هذا اليوم هو يوم ميلاد سعادتها، ركضت لتسبقهما إلى غرفة المعيشة لتخبئ علبة سجائر «عايدة» والشيشة الصغيرة الموضوعة بجانب الأريكة، وهي تُفكر في ذلك الـ«آسر» الذي قام بتوصيلها، طلبت منه أن يقف بعيدًا عن بيتها حتى لا يُحدث لها مشكلة مع أهل منطقتها أو أخيها، وأذعن لرغبتها، ومكثت تراقبه يبتعد بسيارته ثم أخرجت طرحتها ولفَّتها على رأسها بسرعة وعشوائية حتى وصلت إلى العمارة التي تقطنها.

تذكرت وهي ترتب الوسائد على أريكة «عايدة» أنه أخذ رقمها، وتراقص قلبها من الفرحة، إنها المرة الأولى التي تعطي فيها رقمها شابًّا.

استندت «حِكَم» في مشيتها إلى «عايدة» حتى وصلت إلى غرفة المعيشة، وتساءلت بعفوية أين وضعت «نجية» شيشتها، فدفعتها في كتفها لوجود والدتها، التي استغربت سؤال «عايدة» لابنتها.

وخرجتا من غرفة المعيشة تاركتين «حِكَم» التي جلست وهي تنظر حولها..

ـ انتي بتقولي شيشة قدام ماما؟ دا أنا ما صدقت إنها وافقت إنها تقعد، بتهزري!

ـ خلاص بقى ماخدتش بالي، انتي ماكنتيش بتردي خالص ليه؟

ـ اسكتي يا «عايدة»، قابلت واحد النهارده في عيد ميلاد «لينا» ووصلني كمان.

ـ يا مجنونة! وماخُفتيش من أمك الصعيدية؟! دي لو عرفت تدبحك، وبعدين انتي ازاي تركبي مع حد ماتعرفيهوش وأول مرة تقابليه؟

ـ ماعرفش بقى، بس هو كمان قالي إن نفس الفكرة يعني، هو أنا كنت هابقى عارفة أي سواق تاكسي أركب معاه؟!

ـ هممممم.. أوك، لأ واد مقنع أوي، بس أيوه يعني هو مين دا؟

ـ ماعرفش حاجة عنه، هو اسمه «آسر»، وعربيته حلوة أوي وهو حلو أوي.

ـ هممم، تمام، أنا كمان عملت مصيبة من كام يوم.. أو، هو أنا ماعملتش، هي اللي اتحدفت عليا.

ـ انتي يا بنتي انت وهي، انتو قاعدين بتتودودوا عندكو في إيه؟! هتسيبوني قاعدة بطولي في الأوضة دي؟ قوّموني أروَّح أحسن.

ضحكت «نجية» و«عايدة» على صوت «حِكَم» الذي وصل إليهما في المطبخ.

ـ هاكمّلك بعدين، أمك هتعلقنا، روحيلها عقبال ما أطلب الأكل.

ومر الوقت عليهن، أكلن جميعًا، وشعرت «حِكَم» بطاقة تعود إلى جسدها ببطء.

وجلسن بعدها يتسامرن، وأحبت «حِكَم» حكايات «عايدة» وتأثرت ودمعت عيناها عندما حكت عن أمها وما عانته في الحياة من بعدها، ثم علت ضحكاتهن على النوادر التي قابلتها «عايدة» في مسيرتها، وأخبرتها «عايدة» بصراحة بأنها تدخن الشيشة وأنها الشيء الذي تقتل به وقتها في البيت وحدها، قالت لها أيضًا إنها تدخن السجائر ولكن ليست بشراهة..

وتقبلت «حِكَم» للمرة الأولى «عايدة» كما هي، وشعرت للحظة أنها كابنتها، وأشفقت عليها لأنها وحيدة في هذه الحياة، بل إن في كثير مما قالته، كانت تتذكر نفسها مع اختلاف كل شيء بينهما، وكأنها النسخة الأكثر تحررًا وجرأة منها..

وفاجأت «حِكَم» «عايدة» و«نجية» قائلة:

ـ طب هاتي سيجارة بقى عشان أنسى اللي الولية دي عملته فيا..

اتسعت حدقتا «نجية» وفُتح فمها في دهشة، بينما ضحكت «عايدة»:

ـ يا سلام، من عينيا يا طنط، كمّرتيها فين يا «نوجة»؟

مدت «نجية» يدها تحت الأريكة لتخرج علبه السجائر وهي لا تزال في حالة من الذهول..

أخذت «حِكَم» السيجارة وأشعلتها:

ـ أنا كنت كل فين وفين باخد سيجارة من أبوكي الله يرحمه.

ـ بابا؟!

سحبت نفسًا عميقًا منها ثم استطردت:

ـ الله يرحمه يا «نوجة»، رغم إنه كان قاسي، بس بعد موته حسيت إن ماكانش فيه حد في حنيته في الدنيا، أبوكي ماكانش مقفل يا بت، كان راجل صعيدي آه، وغشيم، بس كان راجل، عمره ما في يوم مد إيده عليا، وعمره ما في يوم قصر معايا في حاجة، يلَّا، أهو مشي وسابني، بس إيه دا؟ انتي يا بت صحيح عرفتي منين إن هي بتدخن وجريتي خبيتي حاجتها؟

ضحكت «عايدة» بصوت مرتفع ثم نظرت إلى «نجية»:

ـ مامتك مش سهلة خالص يا «نوجة»، بجد مش سهلة أبدًا..

ترددت «نجية» لتجيب والدتها:

ـ ما هو صراحة، بصراحة بقى، أنا جيت لـ«عايدة» كذا مرة بس من غير ما أقولك.

ـ يا نهار أبوكي اسود.. كنتوا مقرطسني كمان؟!

ومرَّ الوقت عليهن حتى سمعن أذان الفجر، وظهرت خيوط الصباح الأولى، ففتحت «عايدة» الشرفة وأغلقت نور الغرفة، بينما ظلت أحاديثهن، وحكت «حِكَم» قصة زواجها للمرة الأولى أمام ابنتها التي رأت في أمها إنسانًا جديدًا لا تعرفه، فقد سمعت كثيرًا ممَّا لم تكُن تعرفه عنها من قبل..

وبدأ الجميع في التثاؤب، فقامت «حِكَم» وابنتها لتعودا إلى بيتهما، وأغلقت «عايدة» الباب خلفهما ثم دخلت إلى غرفتها لتنام بهدوء وراحة لم تعهدهما من قبل، وقد شعرت في هذه الليلة بدفء الأسرة يحتويها، وهو الأمر الذي حُرمت منه لسنوات طويلة.

***

كيد النسا يشبه الكي

من مكرهم عُدت هارب

يتحزموا بالحنش حي

ويتعصبوا بالعقارب

ابن عروس

الفصل الرابع

لقد استخارت الله ثم استخارت قلبها..

جاءت إلى هنا منذ سنوات بعيدة، طفلة بفستان زفاف وضفيرة تنسدل من طرحته، تمحو بفستانها الطويل آثار خطواتها فلا ترى طريقًا للعودة.

أضحت امرأة تخاف كل شيء، ليس لها بيت آخر، غريبة عن الجميع، لكنها استوطنت وجوه أهل حي السيدة زينب، التي لم تتوقف يومًا عن مراقبتها من شرفة بيتها.

جاست شوارع السيدة في أعماقها، حتى أصبحت ترى عروق يدها وكأنها تشكل خريطة للطرق الوحيدة التي تعرفها.

وسمعت في منامها صوت السيدة زينب يشدُّ أزرها ويأمرها بالتحرُّر من عبوديتها وجهلها، فاستيقظت وهي تحدث حالها:

أنا امرأة جاهلة، كان كل همي إطعام أهل بيتي ومشاهدة مسلسلات سخيفة، أشارك أبطالها مآسيهم ولا أرى نفسي في انتصاراتهم..

أنا امرأة جاهلة، ليس لأنني لم أقرأ جريدة أو أتابع نشرة أخبار، ولا يهمني ما يحدث حولي في العالم من تغير المناخات والحروب والاكتشافات النادرة، بل لأنني لم أعرف نفسي يومًا.

أفنيت عمري أتجنَّب أن أفكر أو أن أعترض، وكأنَّ التفكير من المحرمات، والاعتراض إثم. رحل زوجي تاركًا لي كل شيء، ينبض قلبي بحسرتي وحزني عليه، لكنني للمرة الأولى أدرك أنني لم أنسَ يومًا إهاناته لي التي كان تصيب روحي بآلام مبرحة، لقد مرت روحي بكل ضروب الأسى، لكنني لم أعترض في لحظة من عمري.

لم يكُن ضعفًا، أنا لست ضعيفة، كنت جاهلة بقوتي.

أنا امرأة جاهلة، لم تكُن تعرف الاعتراض.

إنني اليوم أواجه نفسي وألبِّي نداء السيدة زينب، سأذهب إلى مقامها لأحدثها بكل ما في قلبي وأبكي، سأتحرر من كل قيودي، وسأواجه الحياة، للمرة الأولى منذ مولدي.

***

مر أسبوعان منذ لقاء «نجية» و«آسر»، ومنذ اليوم الأول كان لا يكف عن الاتصال بها، وكانت نادرًا ما تجيب اتصالاته في بادئ الأمر، استمعت إلى نصيحة «عايدة» بأن تتعامل معه بحذر، وتذكَّرت كلماتها عندما قالت لها إنه من الضروري أن تخبر «لينا» أن صديقها قام بإيصالها ويحاول التودد إليها، حتى لا تظهر في صورة خبيثة أمامها.

شيء ما دفعها إلى عدم إخبار «لينا»، خاصة أن الأخيرة أصبحت لا ترسل إليها على «واتساب» أو تتصل بها منذ ليلة عيد ميلادها، وقررت «نجية» الاتصال بها دون أن تذكر أي شيء عن «آسر»، فأجابتها «لينا» بمرحها المعتاد عندما أخبرتها «نجية» بافتقادها إياها:

ـ وانتي كمان وحشتيني جدًا يا «نوجة»، معلش بقى آخر السنه مسحولة جدًا، أخيرا هاتخرّج كمان كام شهر، ادعيلي بليز.

وارتاحت «نجية» لرد «لينا» ودعت لها بالتوفيق، ثم قالت «لينا»:

ـ im sorry جدًا.. يوم عيد الميلاد ماكنتش مركزة معاكي خالص، وانتي ماكنتيش تعرفي حد كان مفروض أعرّفك على كل الناس وكدا، «آسر» هزَّأني جامد جدًا عشانك.

اضطربت «نجية» عندما ذكرت «لينا» اسمه ثم أجابتها بتلعثم:

ـ آاا.. «آسر» مين؟

ـ إيه يا بنتي؟ «آسر»! «آسر» اللي كان قاعد جنبي.

ـ آه آه افتكرت، دا.. دا زميلك في الجامعة؟

ـ نووو، دا story تانية، هاحكيلك عليها بعدين.. المهم، أنا لازم أقفل دلوقتي عشان هاتغدَّى ونازلة، أكلمك تاني، أوك؟

أغلقت «لينا» بينما ظل الهاتف على أذن «نجية» بلا وعي منها، حتمًا لم يقُل لها إنه يحدِّث «نجية» وإلا كانت قد قالت لها ذلك في مكالمتهما، فكَّرت فيما قالته لها «عايدة» مرة أخرى، أكان من الأفضل أن تخبرها؟

ألقت الهاتف أمامها على السرير فرنَّ جرسه لتجد اتصالًا منه..

ما الذي يريده مني؟

تساءلت.

***

ـ هو «عادل» مش هيبطل شغل الوساخة دا أبدًا؟!

ـ فيه إيه بس؟

ـ إيه هو اللي فيه إيه يا «حسن»؟

ألقى «علي» بالملف الذي في يده إلى أخيه:

ـ اتفضل، شوف ساحب كام من حسابات المصنع آخر أسبوعين بس..

أخذ «حسن» الملف ونظر في أوراقه.. أغلقه مرة أخرى وشرب من فنجان قهوته.. واستطرد «علي» بعد لحظات الصمت وهو يتابع رد فعل أخيه على ما رآه في الأوراق:

ـ إيه رأيك بقى؟ أنا كنت قاعد مع مدير الحسابات النهارده وقالي إن الشهر اللي فات واخد قدهم مرتين منه! هو إيه؟ سبيل؟! دا مابيشتغلش بربع اللي بياخده.

ـ أنا ماعرفش يا «علي» انت على طول متحامل على اخوك كدا ليه!

انفعل «علي» بشدَّة:

ـ أنا يا أخي اللي ماعرفش انت مالك مطاطي كدا ومابتقولش حق ربنا، هو جرى إيه؟! دا انت شايف بعينك! دا أنا اللي ليا أعلى نسبة ماباخدش منكم نص اللي هو بياخده!

ـ ما تاخد يا «علي»، حد قالك حاجة؟!

استشاط «علي» غيظًا من رد أخيه:

ـ لأ انت مجنون بقى! أنا ماعرفش والله اتهفّيت ازاي في عقلي لما شاركتكم، شراكة تقصَّر العمر، هو فيه حاجة اسمها ما تاخد؟! هو مش فيه عمال متكومين ليهم أجور بتدّفع ومواد ومكن بيتصرف عليهم ملايين، وفيه فلوس ليك في السوق عند تلات ارباع محلات مصر؟ كل دا إيه يعني؟! لأ إحنا نمشّي بقى مدير الحسابات اللي قاعدلنا دا ونصرف براحتنا، ما هي بقت عربخانة.

ظل «حسن» يطرق بإصبعه على المكتب الذي ترأسه «علي»، وفي قرارة نفسه لا يتقبل ما يقوله..

منذ صغره كان أكثر تعلقًا وانصياعًا لأخيه الكبير، وكان لا يشعر بانتماء لأخيه «علي» مثلما كان يشعر مع «عادل»، وضاق صدره من الخلافات التي لا تنتهي بين «علي» و«عادل»، لكنه

يعلم أيضًا أن لولا وجود «علي» في المصنع وعلاقاته الجيدة في السوق، لما وصلوا إلى ما هم عليه الآن..

فُتح باب المكتب ليدخل «عادل»..

ـ أهو البيه شرّف أهو.

تأفف «عادل» وهو يجلس على الكرسي المقابل لـ«حسن» وتبادل معه نظرات تعبر عن ضيقه، ألقى مفاتيح سيارته بعنف على المنضدة التي أمامه ثم نظر إلى «علي» بضيق ونفاد صبر:

ـ خير؟ فيه إيه المرة دي؟

ـ لا يا اخويا مفيش، أزعجنا سيادتك معلش!

سحب «علي» بأطراف أنامله الملف الموضوع أمام «حسن» ثم دفعه في اتجاه «عادل»:

ـ إن أمكن وسمح وقت معاليك بس نفهم يعني.

فتح «عادل» الملف وقلَّب ورقاته سريعًا وبلا اهتمام، ثم ألقاه على المنضدة، وعينا «علي» تتفحصان هيئته باستياء، ينظر إلى قميصه المفتوح حتى منتصفه والسلسلة الفضية الطويلة التي تدلت على صدره..

ـ أيوه، مش فاهم برضه فيه إيه!

ـ يا أخي أنا ماعرفش التناحة دي انت وارثها من مين!

ـ الله! جرى إيه يا «علي»؟ ما تركِّز في كلامك كدا!

خبط «علي» بكفيه المكتب وعلا صوته:

ـ أنا مركّز كويس أوي، انت تقريبًا اللي جايلنا شارب لك كاسين ع الصبح ومش داريان بعمايلك السودا.

هب «عادل» ليقف وهو يشيح بيديه في الهواء:

ـ جرى إيه يا «علي»؟ انت معدي حدودك بزيادة، اعقل كلامك قبل ما تنطقه.

توتر «حسن» ووقف ليهدئ أخاه خوفًا من تطاول الأيدي:

ـ بس يا «علي»، مايصحش اللي انت بتقوله دا، دا أخوك الكبير برضه.

ـ كبير على نفسه، أنا هنا ماليش اخوات، أنا قدامي اتنين شُركا ليا في مالي اللي عمّال يتبعزق يمين وشمال.

ـ خلاص فضها يا عم، إيه اللي مالي مالي؟ انت هاتذلّ اللي جابونا؟! ما هو مالنا إحنا كمان!

ـ مال مين يا «عادل»؟ ما تفوق، ياكش تكون ناسي إنكو خليتوه خرابة وكنتوا هتبيعوه، لولا إني دخلت شيلتلكوا الدنيا ووقفتلكوا المصنع على رجله من تاني.

ـ شاكرين أفضالك يا سيدي، حلو لحد كدا، سيبها بقى وتخرب على دماغنا، إحنا أحرار..

قام «علي» وخرج من المكتب وقد شعر بألم لم يشعر به من قبلُ في صدره، يأخذ أنفاسه إراديًا وكأن رئتيه ترفضان العمل، وشعر بنبضاته السريعة تُحرك قميصه.

لم يكُن يود أبدًا أن يصل به الحال مع أخويه إلى هذا الحد، لكنه لا يستطيع تقبل الوضع الحالي بين استهتار أخيه الكبير وسلبية الأصغر..

وعلى الرغم من تهديداته الدائمة بفض شراكتهم، فإنه لم ولن يطاوعه قلبه أن يترك أخويه أبدًا، وشعر بعجز لأنه لا يستطيع الإمساك بزمام الأمور، فلن يتغير «عادل» مهما حدث.

ركب سيارته وهرع إليه السائق الذي جلس يشرب الشاي مع أفراد الأمن بالمصنع:

ـ ع السيدة يا حاج؟

ـ لا مش قادر أروح المحل النهارده، اطلع ع البيت.

***

جلست «نجية» تنظر إلى «عايدة» وهي تُفكر:

ـ أيوه يعني هتعملي إيه؟

ـ مش عارفة والله يا «نوجة»، الموضوع غريب.

ـ هو انتي خايفة منه ولا إيه يا «ديدي»؟ ما تقوليله ماتجيش هنا تاني، زعقي، اعملي أي حاجة هيخاف وهيبطل، انتي ضعيفة كدا ليه؟

مكثت «عايدة» تفكر في وصف «نجية» لها بالضعف، تعلم جيدًا أن هذه الكلمة تغيب عن قاموسها تمامًا، تتشكَّل حروفها أمام عينيها مُجتمعة تتفكَّر فيها وكأنها بلغة بائدة اندثرت.

الضعف صفة غريبة عنها.. لم تعهدها طوال عمرها..

ـ يا هبلة مش ضعف، أنا عمري ما حسيت إني ضعيفة، ومش خايفة منه، بس عندي مليون إحساس جوايا مش مفهوم.

عارفة يا «نجية»، وأنا صغيرة، لما كنت عايشة عند خيلاني في المنصورة، حبيت ولد جارنا كان أكبر مني بكتير أوي، اللي هو أنا كنت في إعدادي مثلًا، وهو كان متخرج وبيشتغل.

في يوم، جت مامته عزمت بيت خالي على فرح ابنها، وماكانش في دماغي إنه فرحه هو، عشان عنده أخ تاني. أنا عمري ما هانسى اليوم دا، كان تاني يوم في حياتي أعيَّط بقهر بعد

وفاة أمي.

سكتت «عايدة» للحظات ونظرت إلى شيء أمامها لا يراه أحد غيرها، وخبطتها «نجية» على كتفها لتكمل القصة التي قد اندمجت فيها. فأردفت تحكي:

ـ الفرح كان في الشارع تحت البيت.. سبتهم وجريت.. دخلت الشقة وقفلت البلكونات والشبابيك عشان صوت الفرح مايوصلنيش، بقيت أدفن راسي تحت المخدات واعيّط بحرقة، وتاني يوم تعبت ومارحتش المدرسة.

ضحكت «عايدة» ثم استطردت:

ـ طبعًا لما كبرت فهمت إن دا هبل، بس أنا حبيته عشان كان فعلًا بيحبني، بيحبني زي أخته الصغيرة، لو شافني في الشارع بالعب مع ولاد خيلاني يهزّر معايا، يطلّع نص جنيه ويديهولي أشتري حاجة، وانا اتحرمت من حنان أبويا اللي سابنا وهجّ وشوفت موت أمي، فكان دا بالنسبة لي هو كل حاجة حنينة وحلوة.

عمري بعدها، لحد ما خلصت الجامعة، ما فكرت أحب ولا أرتبط ولا الجو دا، كان أكيد بييجي ناس يستهبلوا وكدا، بس عمري ما كنت بادّي فرصة لحد.

احتياجي للحنية وانا طفلة اتقلب لخوف من الحرمان وانا كبيرة.. بقيت أخاف أقرّب من حد ويسيبني ويهرب في عز ما انا محتاجة له..

تنهدت «عايدة»:

ـ وطبعًا بعد ما اتمردت وسبت المنصورة واشتغلت هنا، رجعت تاني محتاجة إن حد يكون جنبي، بس كان بتحصل حاجة من اتنين، يا إمّا واحد عايز يعرفني عشان ينام معايا وخلاص كأني واحدة رخيصة، يا إمّا واحد بيكون بجد عايزني بس عمره ماهيقدر يواجه المجتمع بيا، وكأني عار.

أما «عادل»..

نطقت اسمه وسكتت بعدها.. لكن عقلها استمر في التحدُّث..

«عادل» هو الرجل الأول الذي يصارحها بطلبه الزواج بها! رأت نفسها عروسًا، تخيلت فستان زفافها وسمعت في أذنيها صوت الدفوف تزفها وسط الزغاريد.

تحب الأطفال بشدة، وتخيلت أنها ستنجب كثيرًا منهم، فكَّرت في أسمائهم، ورسمت ملامح تُشبه صور طفولتها.. رأت نفسها تركض خلفهم لإطعامهم، تسهر بجانبهم تقص قصة العصفور التائه التي كانت ترويها لها أمها.. تخيلت حياة كاملة بكلمة واحدة قالها لها.

ومكثت «نجية» تتابع «عايدة» في صمتها وحيرتها، أشفقت عليها وقالت:

ـ طيب خلاص، ما توافقي يا «ديدي»؟

ـ مش بالسهولة دي برضه، أنا ماعرفش حاجة عنه فعلًا، يعني مثلًا هو مش صغير.. أكبر مني بكتير، مع إنه مش باين عليه.. وارد يكون متجوز أساسًا.. وبيني بينك، تصدقي؟ حتى لو عرفت مش هتفرق كتير.. بس قصدي فيه حاجة جوايا مخوفاني مش عارفة إيه هي، رغم إني حاسة إنه بيخاف عليا، بدليل إنه قالي أسيب شغلي، بس...

حتى لو وافقت، مين هيقفلي؟ ماعنديش أهل، أنا كل أهل أمي في المنصورة ماعرفش عنهم حاجة من سنين.

ضحكت «نجية» فجأة لتقول:

ـ هههههه اسكتي، من شويّة قبل ما اجيلك، لقيت ماما بتقولي: البت «عايدة» طيبة أوي، فقلتلها: ها، رضيتي عنها أخيرًا؟ راحت هابة فيا وقايلالي: أبدا، مش هارضى عنها غير لما تبطل الرقص والمسخرة دي.

فتخيلي لو عرفت بقى إنك هتتجوزي وتقعدي، مش بعيد تمثل دور أمك قدامه، وأمي ست جدعة جدًّا والله.

ـ ربنا يخليهالك.. هي عاملة إيه؟

حكت «نجية» لـ«عايدة» حال أمها الذي تبدَّل فجأة منذ إغمائها، تشعر بغرابة شديدة وكأن «حِكَم» أصبحت امرأة أخرى لا تعرفها «نجية».. اختلف كل شيء فيها.

وضحكت «عايدة» عندما وصفت «نجية» أمها قائلة: «دي كأنها اتلبست»، وعلَّقت على وصفها هذا:

ـ بركاتك يا ست «سنية»..

أحيانًا يا «نوجة» بنحتاج ناخد قلم على وشنا عشان نفوق لنفسنا، ونشوف الناس على حقيقتها، أمك تقريبًا ماكانتش تعرف حد في الدنيا من بعدكم غير الست دي..

هي ما اتلبستش ولا حاجة، دي فاقت لنفسها، والحِمل على مامتك على فكرة مش هين. كفاية أخوكي ومواويله، عارفة يعني إيه يكون ابنك ضناكي اللي انتي مخلفاه يهينك ويسيب لك البيت، وعايش عند ناس تانية؟! مريب أوي. أنا مش متخيلة أصلًا ازاي الناس مستحملة حد غريب عنهم عايش معاهم كل دا، بيصرف ازاي؟ وبيعمل إيه؟

امتعض وجه «نجية» بشدة لسماع سيرة أخيها.. وتذكرت تطاوله على «حِكَم» منذ أيام قليلة، ونظرات الشر في عينيه.. كان «عدوي» بمثابة الكابوس الوحيد في حياتها التي تبذل قصارى جهدها ألَّا تلقاه في صحوها.. لا تشتاق إليه أبدًا، ولا تشعر بأي مودة تجاهه..

وتعجبت «عايدة» لملامح «نجية» التي تبدَّلت قائلة لها إن الأخ مهما بدر منه من أفعال هوجاء، فهو في نهاية الأمر بمثابة السند لها. فاحتدمت «نجية» وقالت معارِضة لرأي «عايدة»:

ـ لا يا «عايدة»، انتي فاهمة غلط خالص، ممكن يكون فيه ناس من لحمك ودمك ويئذوكي عادي، بدل ما يبقوا سند ليكي.. أخويا دا ماشوفتش منه غير كل الأذية، ومعاملة وحشة، وزعيق وقلة أدب، مالوش ذكرى واحدة حلوة في بالي.

آهٍ لو يدرك قساة القلوب من حولنا أن كل الأفعال القاسية لن تُمحى، وأن الإساءات الكُبرى تظل مدفونة في أعماقنا في أماكن لا نعلمها! وستدق الذكريات المريرة ناقوسها كلما ظننا أننا قد نسيناها.

أدركت «عايدة» حنق «نجية» الشديد وما تحمله من مشاعر متأججة، وقررت أن تشتت انتباهها بموضوع آخر:

ـ طيب احكيلي بقى.. أخبار المحل إيه، فيه جديد؟

ـ والله يا «ديدي» شكل «حِكَم» ناوياها وهتفتحه خلاص.

***

ـ طيب نفسي أعرف انت ليه ماكنتش بترد عليا بقالك يومين؟

ـ سوري يا بيبي، مش فاضي.

سحبت «لينا» الهاتف من يد «آسر»:

ـ طيب بصلي وأنا باكلمك.. ممكن؟! مش أسلوب!

ابتسم «آسر» ببرود وبلا رد على كلماتها، رفع يده يشير إلى النادل:

ـ الشيك بعد إذنك. ها يا بيبي، قوليلي أنا معاكي.

مد يده إليها ثم أردف:

ـ بس هاتي تليفوني الأول عشان جايلي مكالمة مهمة..

ناولته «لينا» الهاتف:

ـ اتفضل، بس بليز مش كل شويّة تمسكه، احكيلي بقى انت مش فاضي عندك إيه اللي مخليك بتكون أون لاين وبابعتلك ومابتردش.

ـ باشتغل يا بيبي.

ـ بتشتغل على الواتساب؟!

تأفف «آسر» وجز على أسنانه ولم يرد.

ـ أوه بجد! قد كدا أنا خنيقة ومضايقاك؟!

ـ لا يا «لولي» مش فكرة خنيقة، أو هي بصراحة، آه خنيقة شويّة، أو شويتين، مش فاهمك يعني إيه الجديد! أنا طول عمري باكون مشغول، باكون أون لاين وأوف لاين، يعني مش باركّز ومابحبش اللي بيركّز معايا، إحنا طول عمرنا صحاب ومابنخنقش على بعض.

ـ آها، صحاب، طبعًا أكيد، عندك حق، أنا زوّدتها شويّة، سوري.

نسمح أحيانًا لأنفسنا أن نظل عالقين في علاقات لا مفهوم لها، بل ونمنح أنفسنا الحق في انتظار أشياء لن تأتي..

منحت «لينا» نفسها حق امتلاك إنسان لم يكُن أبدًا ملكًا لها، تعاتبه بثقة، وتغضب منه لإهماله، وهو في حقيقة الأمر لم يهتم منذ بادئ الأمر.

***

اعتدل «عدوي» من نومته ليجلس على السرير بجانب «سحر» التي رقدت بجسد عارٍ منهك، مالت قليلًا لتأخذ العلكة التي ألصقتها على الجدار بجانب السرير، وضعتها في فمها ثم جلست تداعب «عدوي» وقد التفت يداها حوله من الخلف:

ـ إيه يا واد مالك، ماعرفتكش كدا؟!

تأفف «عدوي» وهو يزيح يدها ليقول:

ـ ماليش يا ستي.

لوت «سحر» شفتيها ورفعت حاجبها وهي تنظر إليه بسخرية ثم ضربته بكف يدها على ظهره وهي تقول:

ـ مسممم.. ماشي، يمسيك بالخير في شبابك يا أبو العيال.

ـ أهو أبو العيال دا وديني عايز الحرق، أم صوت ترزيع الطاولة نخر دماغي، كان مخليني مش عارف أركز.

رنت ضحكة خليعة منها:

ـ هممممم.. مسممممم، طب باقولك إيه، ماتيجي ندخل أوضة العيال جوه، شباكها ع الشارع الوراني ومش بيوصلها أي صوت من القهوة، أهو يمكن تركز أكتر.

ـ جرى إيه يا ولية، واحدة واحدة، ماكنتش فاكرك كدا.

ـ خلاص يا اخويا على راحتك!

قام «عدوي» من جانبها وارتدى ملابسه، وخرج إلى الصالة.. شغل التليفزيون ثم أشعل سيجارة، وخرجت خلفه تسير بجسدها السمين وهي ترتدي جلبابها ولمت شعرها المجعد

برابطة رأس كبيرة حمراء يتدلى منها خرز لامع.

ـ هو انتي بعتّي الواد «محمود» فين من صباحية ربنا كدا؟

ـ بعته مطرح ما بعته.

ـ اوعي يا سحر يكون عارف حاجة!

ـ يا نهار اسود، دا كان دبحك، هيعرف إيه؟

ـ لا ويدبحني أنا ليه؟ يدبح اللي يخصه!

ضربته على صدره ضربة قوية وهي تضحك:

ـ واهون عليك يا واد؟!

ـ لا، تهوني ونص، كفاية القرف اللي أنا فيه، مش ناقص.

اقتربت منه ومالت بجسدها الممتلئ على جسده النحيل فكادت تطبق على أنفاسه:

ـ ماعرفتش لسَّه ناوي تعمل إيه في ورث أبوك.

ـ هاعمل إيه يعني، أديني مرزوع، بافكّر أرجع النهارده، كفاية قعدة هنا لحد كدا، الحكاية بوَّخت بزيادة.

ـ يا لهوي! ترجع إيه؟ لأ دا أنا أموت لو سبتنا! والله أحدف لك نفسي م البلكونة أقع عليك أفطسك لو بس فكرت!

ـ جرى إيه يا «سحر»؟ ما هو مش عقل برضه، مش هاعيشلكوا هنا، وبعدين أنا عايز أروح آخد فلوس من أمي، وعلى الله تقولي معييش.

ـ يا واد وهو أنا قصرت معاك في حاجة؟ عايز فلوس لإيه؟ وبعدين فلوس إيه اللي تاخدها منهم؟ دا انت صاحب الفلوس، دا انت اللي تحط كله في جيبك وهما اللي ييجوا يطلبوا منك، الواد هو اللي بيقُش.

انتفخ كالعادة بكلماتها.. ولكن لا حيلة لديه؛ ففي زيارته الأخيرة، صرخت فيه أمه عندما حاول أن يأخذ محفظتها بالقوة من حقيبة يدها، والتمت الجيران ووقف بينهم كفأر بداخل مصيدة.

أدرك حينها أن الأمر قد خرج من يده وأنه لو فكر في التعرُّض لأمه مرة أخرى، لن يسلم من كل أهل السيدة زينب.

***

وقفت «حِكَم» برأس مرفوع وبجانبها ابنتها تنظر إلى اللافتة المعلقة فوق المحل، تقرؤها مرات كثيرة.

رفع «عبده» الباب الحديدي ليفتح المحل، ثم تقدمت «حِكَم» بخطوات مرتعشة نحو الباب الزجاجي لتفتحه.

وقفت بعدها في منتصف محلها تنظر حولها على الأرفف والملابس المرصوصة فوقها، شعرت بأنفاس «بَكر» ورائحته تحوم حولها، أخذت نفسًا عميقًا للغاية، وتمتمت:

ـ يا معين.

ـ أخيرًا؟! ألف ألف مبروك.

التفتت خلفها فوجدت «علي» واقفًا يحدثها من خارج المحل.

ـ الله يبارك فيك، اتفضل يا حاج «علي».

صعد «علي» الرصيف ودخل المحل وهو يضع يديه في جيبه، ثم أخرج يده بسرعة وسعل بشدة:

ـ ياه، المكان ريحته تراب أوي!

أمسك بيده قطعة ملابس يتحسس قماشتها:

ـ تخيلي، أنا قدام جوزك بقالي ييجي خمسة وعشرين سنة، أول مرة أدخل المحل بتاعكم!

ـ تنوره وتآنسه في أي وقت يا حاج.

نفض «علي» يده، وما زالت عيناه تتفحصان الملابس من حوله:

ـ المهم، أنا هابعت حد من العيال عندي ييجي يقف مع «عبده» عشان يظبطوا الدنيا ويجردوا الحاجة وبعدين هاقعد معاكي أفهمك كام حاجة كدا.

شكرته «حِكَم» و«نجية»، وربت بيده على كتف الأخيرة ثم خرج.

ظل «عبده» واقفًا يتابع حديثهم، متعجبًا من علاقه «حِكَم» وابنتها الجيدة بـ«علي»، يتذكر كُره «بَكر» له ومنافستهما الدائمة، وضاق صدره لأنه شعر للحظة أنه مهمش، لا يراه أحد.

ونظر إلى «حِكَم» سارحًا في اندهاش، لا يستوعب عقله أنه بعد كل هذه السنوات ستترأسه امرأة، يتخيلها على كرسي سيده العملاق وبجانبها الشيشة.

وقال مُحدِّثًا «حِكَم»:

ـ طب باقول إيه يا أبله «حِكَم»، دلوقتي انتي هتقعدي على كرسي الحاج بره ولا هنا؟

ـ لأ بره إيه؟ هاقعد في الشارع كدا؟ دخّل لي الكرسي هنا.

ـ لا ماا دا مابيدخلش، مالوش مكان جوه.

ـ خلاص مالوش لزمة، ابقى اتصرَّف فيه، ونجيب كرسي تاني هنا.

انزعج «عبده» من كلماتها، ونظر إليها بتبرُّم، كيف يتخلص من كرسي سيده؟! كيف تجرؤ تلك المرأة التي لا تعرف شيئًا أن تقول هذا؟! كاد يصرخ في وجهها، لكنه ابتلع غضبه..

كظم غيظه ثم قال:

ـ أوامرك.

***

لم يصدق «عدوي» أذنيه وهو يستمع إلى ما تقوله «سحر»..

لقد خلعت «حِكَم» ثوب انكسارها القديم، ساعدتها «عايدة» و«نجية» بتشجعيهما المتواصل بضرورة فتح المحل وبدء حياة جديدة، بمواجهة العالم وعدم الاكتراث لكلام الآخرين، وكان أكثر من وقف بجانبها هو «علي» الذي أحضر لها بضاعة كبيرة من مصنعه وبأحدث الصيحات ولم يكترث لأن محلها منافس له في الأصل، بل جلس معها ومع ابنتها ليخبرهما أسرار التجارة وكيف تسير الأمور في سوق الملابس.

جلست «سحر» تحكي لـ«عدوي» وهي تلف له سيجارته ما وصل إليها من أن والدته تقف كل يوم في المحل ومعها «عبده»، ويقومان برص البضاعة الجديدة التي أحضرها لهم الحاج «علي».

وأصبح كالمجذوب يتوعَّدهما ويسب بأقذر الألفاظ، ومنعته «سحر» من الخروج حتى لا يصدر منه تصرف أهوج:

ـ اهدا بس، الأمور مابتجيش كدا يا واد!

فصرخ «عدوي» الذي استشاط عقله واستعرت بداخله نيران الحقد:

ـ طب والله لاطربقه على دماغ اللي جابوهم، الست اتهفّت، نازلة تقف في المحل! الناس يقولوا عليا إيه؟ مش راجل!، ساب أمه تنزل وهو قاعد زي الخروف، دا أنا هاولّع فيهم وفي اللي جابوهم.

ودخل «محمود» بلا مبالاة على صراخ صاحبه الذي جلس بالشرفة ومعه أمه، وقد سمعت كل العمارات المجاورة صراخه ووقف البعض بالشُرفات المقابلة لهم يتابعون الأمر بفضول.

ـ يا واد اهدا، ما تسكّته يا «محمود»!

حاول «محمود» جذب «عدوي» من يده، فدفعه الأخير في صدره:

ـ سبني يا «قورة» والله لاخربها فوق دماغهم.

ـ الله! انت هتتغاشم عليا أنا ليه دلوقتي؟!

فتدخلت «سحر»:

ـ طب اقعد بس هاقولك كلمتين، مش أنا قايلالك من الأول سيبلي أنا الموضوع دا؟

اسمع كلامي تكسب.. ليك عليا مش هيصبح عليهم النهار إلا وامك سايبة المحل، ومش بعيد تسيب السيدة كلها.

***

تشم المرأة رائحة ميول زوجها، مخاوفه وأحلامه، أفكاره ونزواته، وكانت «هدى» ذات حاسة شم قوية للغاية، تحفظ زوجها عن ظهر قلب، لكنها لم تشعر للحظة منذ زواجهما بالغيرة تتسلل إلى قلبها مثلما حدثت بعدما شعرت باهتمامه بـ«حِكَم»، لم تسمح لعقلها ولو

للحظة واحدة أن يطاوعها في هذه الفكرة، وكانت كلما مرت بخيالها نفضتها بشدة، ونظرت بثقة في المرآة تلاعب خصلات شعرها المصبوغ باللون الأشقر..

وعقلها يقول: حتمًا لن يلتفت أبدًا إلى هذه المرأة المُهلهلة، من هي؟ ومن أنا؟!

تمر بخاطرها أفكارها التي أقنعت نفسها بها في بادئ الأمر، اعتقدت أن كل هذا الاهتمام لأجل المحل، لكن ظنونها خابت حينما حاولت استدراجه ذات مرة في الكلام، ووجدت أنه لا يطمح بأي شكلٍ إلى شراء محل «حِكَم»؛ فهو مصدر دخلها الوحيد! بل وقطَّب جبينه حينها ونهرها بشدة مستنكرًا، كيف تفكر في أمر كهذا!

فاشتعلت الغيرة بداخلها تأكل من روحها كالنار في الهشيم.

وعلى الرغم من غيرتها الشديدة تلك، فإنها لم تحاول أبدًا إظهارها، حتى يحكي لها أي شيء يتعلق بـ«حِكَم». وهو في حقيقة الأمر يحكي بالفعل كل شيء لزوجته، على الرغم من اعتراضاته الدائمة على أسلوبها والأشياء التي تستفزه منها، إلا أنه كان يعود ليسرد يومه معها بكل تفاصيله وأحداثه. وكانت عادةً لا تكترث لحكاياته ومشكلاته في تجارته، وتنشغل عنه بأشياء أخرى، حتى ظهرت «حِكَم».

جلست «هدى» وقد بدأت ملامحها تبوح قليلًا بضيقها مما تسمعه..

تتساءل بغيظ: ما سر كل هذا الاهتمام بامرأة لا تمتُّ لنا بأي صلة قرابة ولا نعرف عنها شيئًا؟ لقد مضت أعوام طوال لم تخلُ من شكوى «علي» ومقته زوجها، فكيف به الآن يحمل على عاتقه هم أسرة الرجل الذي لم يتقبله يومًا؟!

ـ طيب مش شايف يا حبيبي إن ماكانش ينفع تديهم من نفس البضاعة اللي عندك؟

ـ مين قالك إني عملت كدا؟ المصنع بيطلّع مليون حاجة، وكان فيه تشكيلة جديدة شغالين عليها مش موجودة عندنا واديتلهم منه.

لم تصدق أذنيها!

ـ أوه! كمان؟! انت مدّيهم الجديد عشان هما يبيعوا أحسن منك!

ـ ماحدش بيبيع أحسن من علي صابر يا «هدى»، أنا مش عاملهم حاجة مخصوص، واللي عندهم بنورده لمحلات تانية في السيدة ونص محلات الموسكي.

أنا باقول إني ادّتها اللي مش عندي، عشان اللي عندي مش عند حد.

ارتاحت «هدى» قليلًا لرده، وعادت لتسند ظهرها إلى الأريكة وهي تضع قدمًا فوق أخرى:

ـ enfin الحمد لله، خلاص كدا بقى بيتهيألي انت عملت اللي عليك وزيادة، نخلص من همهم ومالناش دعوة بيهم.

خلع «علي» نظارته الطبية وهو ينظر إليها متمعنًا، وقد أمسكت هاتفها بعد ما قالته لتقرأ الرسائل التي وصلتها من مجموعة من صديقاتها، فضحكت وهي تقول:

ـ فظيعة «ماجي» دي، كل النكت اللي بتبعتهالنا ع الجروب بتموّتني من الضحك.

وكأنه لا يسمعها، ظلت عيناه تتفحصانها من أعلى رأسها حتى أخمص قدميها اللتين طلت أظافرهما باللون الأحمر القاتم. ولم تلاحظ بدورها نظراته، مكثت تضحك وترد على الرسائل.

ـ هو انتي يا «هدى» ليه دايمًا ضد أي خير باعمله؟

رفعت رأسها تنظر إليه وقد توقفت أنفاسها للحظة وثبتت يداها، وأصبحت كتمثال لا يتحرك:

ـ أفندم؟

ـ بجد والله، أنا من يوم ما اتجوزتك، عمرك ما ساعدتيني أو شجعتيني في أي مساعدة للناس، مع إن لولا وقفتي جنب ناس كتير ماكنتش وصلت للي وصلتله دا.

رمت هاتفها جانبًا وأشارت بإصبع الاتهام على نفسها:

ـ أنا يا «علي» باقف في وش أي خير بتعمله للناس؟ دا إمتى دا؟!

ارتدى «علي» نظارته التي كانت لا تزال في يده وأشاح بوجهه عنها.

ـ رد عليا، إمتى؟

ـ أي خير باعمله، أي مساعدة باعملها لأي حد، لازم دايمًا تحسسيني إنه هم على قلبك، تفضلي تقلبيلي وشك، وتقوليلي مالناش دعوة بالناس، انتي إنسانة أنانية يا «هدى»، مابتحبيش الخير لغيرك.. من يوم ما اتجوزتك مابتشوفيش إلا نفسك وكل الناس عندك ولا تسوى، من يوم ما اتجوزتك بتحاولي تشوهي الحاجة العدلة اللي ورثتها من أبويا، أبويا اللي في يوم من الأيام كان هو سندكم بعد ما أبوكي فلس ومات.

استشاطت «هدى» وصاحت بأعلى صوتها لتجيبه بحدة وانفعال لم تشعر بهما من قبل:

ـ انت بتعايرني بعد كل السنين دي؟ وصل بيك الحال تقولي كدا؟! كل دا عشان الهانم بتاعة السيدة؟ باللي انت بتقولهولي دلوقتي دا بتثبت لي إني عندي حق، فيه حاجة غلط!

صرخ فيها بأعلى صوته:

ـ الغلط في دماغك اللي متركبة شمال، يا شيخة بلا قرف.

تركها وخرج من الغرفة.. وشعرت بأنها على وشك الانفجار، فرت دمعة وحيدة من عينها، مسحتها باستنكار، إن الحزن يضيف أعمارًا فوق أعمارنا، وبكاء العينين سيبرز تجاعيدها ويرهقها.

قالت تحدِّث نفسها:

أكرهك يا «حِكَم».

قالتها بصوت مرتفع، نعم.. هي تكرهها بشدة.

فكرت أن تذهب إليه، لكنها ترددت..

لن تنفع حيلها معه في هذه اللحظة، لقد خرج منفعلًا للغاية، ستنتظره حتى يهدأ وستتودد إليه. ستقول له إنها دفعت مبلغًا كبيرًا لإحدى الجمعيات الخيرية كي يدرك أنها محبة للخير وليس كما وصفها، لتتبدَّل نظرته فيها، سترضى أمامه بكل شيء يريده، ستوافقه على كل ما يفعل وما يقول..

إلا «حِكَم»، ستفعل كل شيء حتى تمحو تلك المرأة من حياتهم.

***

نظرت «نجية» حولها بخوف، ثم فتحت باب سيارة «آسر».

ـ كل دا عشان أشوفك؟

أمرته «نجية» أن يتحرك بسرعة حتى لا يلمحها أحد من أهالي الحي، ومكث ينظر إليها متفحصًا ملامح وجهها التي أحبها منذ أن وقعت عيناه عليها.

ـ مبروك الحجاب.

تجنَّبت النظر إليه وهي تُفكر:

ـ «آسر».. بص قدامك وانت سايق..

أنا محجبة على فكرة، بس حبيت يعني يوم عيد الميلاد أبقى بشعري.

ابتسم لها «آسر»، فذابت في ابتسامته المميزة.. وتغزَّل فيها قائلًا لها إنها جميلة للغاية في كلتا الحالتين، توردت وجنتاها كعادتها، ثم أخبرته، مُحاوِلةً الهروب من خجلها، بأن كل ما ستمنحه من الوقت هو ساعة واحدة فقط، خوفًا من والدتها التي قد تعود في أي لحظة من المحل.. وقال لها ردًّا على ذلك:

ـ انتي عندك كام سنة؟! أنا حاسس إني خاطف عيلة!

ـ ٢٣.

ابتسم وهو ينظر إلى حمرة وجهها:

ـ «نوجي».. لو لقيت شغل يناسبك عندنا في الشركة، توافقي تشتغلي؟

وثبت في جلستها لتواجهه بسعادة، حدثته بالأمس في مكالمتهما عن رغبتها الشديدة في العمل، وكيف أنها منذ تخرجها وهي تشعر بحالة من الملل..

أومأت برأسها والسعادة تتراقص في عينيها..

بش وجهها واتقد حماسها بشدة ثم فتحت النافذة وأسندت ذراعيها إليها.. ورفعت عينيها تتأمل السماء.

لم يشأ «آسر» أن يوقظها من أحلام يقظتها، استمتع بمشاهدتها وهي جانبه بهدوء وفتح مسجل السيارة..

فغنى «منير»: «صوتك أرق من النايات، صوتك غنا مالي السكات، صوتك مفيش أي شعر يقدر حبيبتي يوصفه».

اتسعت ابتسامتها على كلمات الأغنية وأغمضت عينيها للحظات، بينما ظل «آسر» يراقب تقاسيم وجهها في هدوء بالمرآة الجانبية دون أن تلمحه.

***

وقف «عدوي» متربصًا يتابع «عبده» وهو يغلق المحل، مكث بعدها يلقي المفاتيح في الهواء وهو يمشي ويتلقفها مرة أخرى.. وما إن اقترب من آخر الشارع، حتى شده «عدوي» من قميصه وباغته بلكمة في وجهه، فسالت الدماء من بين أسنان «عبده».

مسحها بكفه ونطر يده في الهواء ثم ضحك بسخرية..

فضربه «عدوي» مرة أخرى في منتصف بطنه، فهبَّ عليه «عبده» الذي بدا مستسلمًا في بادئ الأمر ودفعه ليسقط أرضًا، نظر «عدوي» إلى عيني «عبده» بفزع وزحف بيديه خوفًا من رد فعل آخر مفاجئ.

اقترب منه «عبده» ومد يده يرفعه، ناوله «عدوي» يده المرتعشة بتردد ونظرات القلق والرهبة تقفز من عينيه:

ـ إياك فاكرني هاكشّ منك زي المرة اللي فاتت! انسى.. أنا ماردتلكش أول ضربة عشان انت بس ابن الحاج «بَكر»، لكن لو فكرت تيجي في طريقي تاني، أنا زي ما قلت كدا، مليش أصل، ومليش كبير.

اقترب منه ينظر مباشرة إلى عينيه وشعر «عدوي» وكأن الهواء الذي يخرج من فم «عبده» لهيبٌ يحرقه، واستطرد يقول بصوت بدا هادئًا:

ـ اللي بينّا لو وصل لحد انت اللي هتروح في ستين داهية مش انا، أنا كنت عيل أهبل مش فاهم لما كشيت منك آخر مرة، بس وقتها ماكنتش اعرف إن أبوك ماسابلكش الهوا..

وتصدق؟ الحاج «بَكر» عمر نظرته ما خيّبت في حد، أبوك كان عارف إنك واد وسخ، فسابك عريان، فين لبسك يلا؟ أنا عينيا شايفاك حتة واد عريان مايسواش ربع جنيه.. انت اللي تبعد عن طريقي أحسن لك، مش أنا.

وقف «عدوي» مرتعدًا وهو ينفض سرواله في ذهول مما يقوله «عبده» له، وبدأت خطواته تتسارع للخلف مبتعدًا وهو يقذف بكلماته:

ـ وربنا المعبود لاهاودّيك في ستين داهية يا كلب، أنا هاوريكوا كلكو.

ركض «عدوي» يشعر بثقل جسده النحيل الذي امتلأ ببغضه لـ«عبده»؛ فوجود «عبده» في السابق بجانب والده حال دون أن يلجأ إليه أبوه ولو لمرة واحدة كي يساعده.. والآن يؤدي الدور نفسه مع أمه، يقف في المحل ويدير شؤونه لها.

ليس هناك كلمات قد تصف مدى حقد «عدوي» ومقته «عبده»، لقد توغَّر صدره من مدى سخطه عليه وتمنى لو أن تضربه صاعقة من السماء.

***

مر أسبوعان على «حِكَم» منذ أن بدأت إدارة أمور محلها، شعرت فيهما بأحاسيس لم تختبرها من قبل، وكانت تسير في بادئ الأمر إلى محلها بخطوات مترددة منكسرة، ولكن سرعان ما أصبحت أكثر ثقة بنفسها تسير برأس مرفوع تحيي كل من تلمحهم بابتسامة تنير وجهها.

وأحبت التجارة وشعرت بلذة المكاسب التي تعود إليها، وكانت بشاشة وجهها من أسرار ارتفاع مبيعاتهم، فكانت تستقبل الزبائن بترحاب غير مسبوق وتطلب من «عبده» أن يلبي كل ما يريدون، وتعرض عليهم ما لم يفكروا في شرائه.

وبدأ العاملون لدى الحاج «علي» بالشكوى من أن تلك المرأة ليست هينة، وتخطف الزبائن منهم، وكان «علي» يضحك على ما يقولونه ويتابعها في صمت، ويلقي عليها التحية إذا ما التقت أعينهما، قائلًا للعاملين لديه إن لديهم بدلًا من المحل عشرة، واتركوا المرأة في حالها تكسب من الرزق الحلال.

وكان وجود «علي» في المحل المقابل لـ«حِكَم» من أسباب شعورها بالأمان في مقرها؛ فقد كانت تُفكر في إغلاق المحل مُبَكرًا حتى لا تعود متأخرة إلى بيتها وكي تسلم من شر ألسنة الناس، فقام «علي» في اليوم التالي بإحضار كهربائي ليقوم بتركيب كاميرات مراقبة لها بالمحل، وأحضر لها جهاز كمبيوتر محمول، وأخبرها بأنها تستطيع مراقبة المحل عند عودتها إلى بيتها في أي وقت تريده. رفضت «حِكَم» أن تقبل كل هذا إلا بعد أن تدفع ثمنه، لكنه أصر قائلًا إنه هدية لفتحها المحل.

جلست أمامه مذهولة لا تفقه شيئًا فعلَّمها، وظل «عبده» يتابع أحاديثهما ويشعر بغيظ من أن «حِكَم» لا تأمن له مثلما كان يفعل سيده، وينظر شزرًا إلى «علي»، يود أن يصفعه ويطرده خارج المحل، لكنه لا يستطيع؛ فلا حق له في ذلك.

وكانت تعود إلى بيتها وتفتح جهازها، وتظل قابعة تراقب كل مَن يدخل المحل، تسب «عبده» إذا دخل أحد الزبائن وخرج دون أن يشتري شيئًا.

وهجرت مطبخها وأصبحت قلَّما تطبخ، واعتمدت على وجبتها الوحيدة التي تأكلها كل ليلة مع ابنتها وجارتهما «عايدة» التي أصبحت وكأنها فرد من أسرتها.

لكنها لم تهنأ طويلًا؛ فسرعان ما نفذت «سحر» خطتها اللئيمة.

خرجت من بيتها وهي ترتدي عباءتها الضيقة التي تظهر مفاتن جسدها الممتلئ، تتصنَّع الوقوف أمام معظم المحلات المجاورة لـ«حِكَم»، لتفتح حوارات لا فائدة منها.. وقالت في وقفتها أمام أحد الباعة:

ـ عايزاك بقى تفرجني على أحسن جلاليب عندك.

وبدأ البائع يعرض عليها تصاميم مختلفة، أمسكت واحدًا تستعرضه على جسدها وهي تقول:

ـ حلو دا؟

أجابها البائع وهو يتفحص جسدها:

ـ الحلو هيبقى أحلى وأحلى عليكي يا ست الكل.

ضحكت بميوعة وقالت:

ـ امممم ماشي.. هتديهالي بكام بقى؟ وقبل ما تنطق سعر، لازم تحط في اعتبارك تكسبني زبونة عندك، اسأل عليا، أنا كنت طول عمري زبونة الحاج «بكر» الله يرحمه وباجيبله زباين ياما.. لحد ما اللي تتسمى دي مسكت محله ووسّخته..

وتعجب الرجل بفضول البائعين لتردف:

ـ يا لهوي، دا انت شكلك الوحيد اللي في السيدة ماتعرفش مشيها البطال!

رفع البائع حاجبيه وهو يستمع إليها، وباع لها الجلباب بثمن بخس.

وانطلقت بعد ذلك، تقف أمام المحلات الأخرى، تقول بين كلماتها مُقاطعتها لمحل «بَكر»؛ لأن امرأته سيئة السمعة ولها علاقة آثمة مع السيد علي صابر!

ومن ثَمَّ تترك البائع الذي سرح في مؤخرتها وهي تمشي مبتعدة قائلة:

ـ يلّا، ربنا يعافينا ويستر على ولايانا.

وظلت هكذا تنتقل من محل إلى آخر.. تمضغ علكتها بميوعة وهي تلقي بكلماتها الشريرة.

وانتشر الخبر بين كل أرجاء حي السيدة كالسرطان..

فبعض الناس يحبون الفضائح، ويشعرون بمتعة للخوض في الأعراض.

لا تعنيهم الحقيقة في شيء؛ فالسيرة الحسنة مُملة، لن تسمح بالإثارة لخيالاتهم.. أما الشائعات التي تمس الشرف، فستدفع البعض إلى تخيل أبطالها عارين تمامًا، تشعل خيال الناس بمشاهد مثيرة عن ضحاياها، ليتخيلوا بعدها كيف ينام هؤلاء، كيف تبدو أجسادهم العارية في استحمامهم تحت المياه، بل وكيف يتغوطون!

وبدأ البعض في خلق حكايات وقصص حول «حِكَم» وتناسوا اسم الحاج «علي» الذي قيل إنها على علاقة به؛ فالكل يخافه في حي السيدة، واكتفوا بذكره في سرهم..

أما علانية..

فقد قيل الكثير والكثير عنها.. وقال البعض إنها تخطف الزبائن الرجال من زوجاتهم، ونسج آخرون في خيالاتهم قصصًا عن أنها راودتهم عن أنفسهم ذات مرة!

بل قال البعض الآخر إنها، في آخر الليل، تغلق المحل لساعات عليها هي وصبيها «عبده».. والله وحده العالم ما يحدث بينهما!

ووصل إلى سمع «عبده» هذا الأمر فهاج وماج وركض ليضرب أحد صبية المحلات المجاورة الذي قال عنه ذلك.. واحتدم الأمر وتطاولت الأيدي، وتدخَّل الناس، منهم مَن يحاول فض العراك ومنهم من يزيد الأمر سوءًا.. وظهر الحاج «علي» بصوته صارخًا فيهم من بعيد.

فانفض العراك، وأمر «عبده» بالعودة إلى المحل وقد شُقَّت ملابسه ونال من الضربات كثيرًا، أطاعه «عبده» وعاد يعرج من ألم ضربة شديدة أصابت قدمه.

ووقف «علي» كالأسد في غابة من البشر ينظر إلى الجميع بغضب، ثم بصق عليهم ورحل.

***

نمى إلى سمع الحاج «أشرف»، جار «حِكَم»، كل ما يُقال عنها في أنحاء السيدة. ولم تكُن «حِكَم» تدري بعدُ..

فطرق بابها، وما إن فتحت له مبتسمة بعفويتها المعتادة، نظر إليها بوجه متجهم نظرة اشمئزاز.

وقف بعيدًا بتعمد وكأن عتبة بابها بها مرض مُعدٍ، ليخبرها بصوت مرتفع أنه ليس من الأصول أن يُقال عنها ما يُقال، وأشار بإصبعه إلى الباب الذي خلفه، قائلا: إن جارتنا الراقصة لم تجلب لنا العار الذي جلبتِه أنت!

فبُهتت وانهارت في وقفتها لا تفهم ما يعنيه.. واعتقد في بادئ الأمر أنها تدَّعي عدم الفهم، مُتمتمًا في نفسه: آه من مكر النساء!

فبكت أمامه دموعًا كالسيل وهي تقسم ببراءتها، وأنكرت كل ما يقال، وقالت له:

ـ ورحمة «بَكر» يا حاج ما عملت حاجة.. دا انت عارفني من وانا عيلة! والله والله ما أعرف أي حاجة عن كل اللي بتقوله دا.. ليه بس كدا؟ دا أنا عمري ما أذيت حد! والله ما عملت حاجة.. ليه يا رب بس كدا؟ ليه يا رب؟!

صدَّقها، ورقَّ قلبه على حالها وقد بدت أمامه في انهيار تام، ولمح ارتعاش يديها ورأى في نظرة عينيها من بين دموعها الغزيرة طهارتها.

استعاذ الله ثم اقترب منها خطوتين ليخبرها بأن ألسنة الناس لن ترحم وأنها يجب أن تحذر..

فالكل أصبح يتحدث عنها بالسوء.

ولم يتم كلمته الأخيرة حتى سمع صراخ زوجته من الدور العلوي، تنهره على وقوفه وتحدثه مع امرأة لعوب كتلك التي تقف أمامه، وخرجت «نجية»، التي كانت في غرفتها تتحدث بالهاتف، تهرول إلى أمها التي كانت لا تزال واقفة أمام جارهم، ومن بعدها بلحظة فتحت «عايدة» الباب وقد وصل صوت صياح الجارة إليها، ونظرت في قلق إلى وجه «حِكَم» الباكي، ثم هرعت تحتضنها وتحاول أن تفهم أي شيء.. وشعرت برعشة جسد «حِكَم» بين يديها، فأمرت «نجية» أن تسندها لتجلس على أقرب كرسي.. ساعدتها ابنتها لتجلس على كرسي طاولة الطعام، أسندت رأسها على يدها وظلت تبكي بحرقة شديدة.

تنظر من باب بيتها المفتوح على «عايدة» التي وقفت تحدث الحاج «أشرف» كي تفهم منه أي شيء، ولا تزال صرخات زوجته ووصلة ردحها مستمرة.

وانفعلت «عايدة» فجأة وقالت له:

ـ مايصحش كدا يا عمو، ما تسكّت مراتك!

لكنه لم ينبس بكلمة..

ظل أغلب السكان داخل بيوتهم لا يكترثون لموقعة السُّلَّم تلك، بينما فتحت «سنية» باب بيتها ووقفت بعكازتها تنادي جارتها في الأعلى مستفسرةً عن كل هذا الصياح لتجيبها زوجة «أشرف» بأن أوساخ العمارة اجتمعوا ليسكنوا الطابق الثالث!

فاستشاطت «عايدة» على كلمات الجارة، ورفعت رأسها تنظر من بئر السلم إلى المرأة التي لم يتوقف صياحها، توبخها على ما تقوله، وتهددها بقص لسانها الذي لم يسلم منه أحد، فازداد صراخ المرأة وانفجرت بوابل من السباب على «عايدة» و«حِكَم»!

وكادت «عايدة» تصعد إليها فصرخت فيها «حِكَم» متوسلةً، وسحبتها «نجية» من يدها لتفادي المشكلات.. بينما ظل «أشرف» وسط كل هذا صامتًا، يقف مكتوف اليدين، ثم أشاح بيديه في الهواء بلا حيلة، وصعد إلى زوجته وهو يتمتم:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله.

***

ـ أنا موافقة.

ـ أيوه كدا، هو دا الكلام.

ـ بس بشرط..

وافقت «عايدة» على الزواج بـ«عادل»، واشترطت عليه أن يخبر زوجته وأبناءه؛ فهي لن تتحمل ذنب اختطاف رجل من أسرته، وقالت له إنها ترفض الانتقال من بيتها بحي السيدة.

أشعل «عادل» سيجارته ثم نظر إلى «عايدة» مستهزئًا يقول:

ـ أنا جايبلك فيلا في التجمع وانتي تقوليلي السيدة؟ لأ ماينا‌سبنيش، لا باحبها ولا باحب اللي فيها.

ـ وأنا مابحبش غيرها يا «عادل»!

زفر «عادل» في ضيق، وأومأ برأسه موافقًا على طلبها.

ـ وأول شرط؟

ـ ماخلاص بقى، حاجة عليكي وحاجة عليا، انتي مالك بمراتي وعيالي؟ أنا وهي حياتنا ميتة من سنين، أنا سايبها على ذمتي بس كدا عشان أم العيال، ماتشغليش بالك.

لا يكذب «عادل» في هذا الأمر؛ فحياته مع زوجته أم أبنائه قد انتهت بالفعل منذ سنوات طويلة، ولا يعلم عنها شيئًا ولا يتذكر المرة الأخيرة التي رأى فيها أبناءه، بل ولا يعرف هم في أي عام دراسي.

وكانت زوجته على علم تام بكل نزواته وسلوكاته السيئة، لم تطلب منه الطلاق ولو لمرة واحدة.. قررت أن تكرِّس حياتها لتربية أبنائها دون أن تكترث لأفعال أبيهم المشينة وإهماله إياهم.

شبكت «عايدة» أصابعها وهي تنظر إليه، تحاول بشتى الطرق أن تنفض من رأسها قلقها المبهم منه، ثم سألته:

ـ هو انت إيه اللي خلاك عايز تتجوزني؟

ـ دا إيه السؤال العبيط دا؟ عجبتيني، هاتجوزك ليه يعني؟!

رد كاف أفقدها الرغبة في إكمال حديثها معه.

مكثت تنظر إلى عينيه من بين دخان سجائره، تقرأ فيهما الرغبة الجارفة، وتؤرقها فكرة أنها لا تشعر بالأمان الكافي معه.. ولكن، لعل ظنها فيه يخيب، فلو لم يكُن إنسانًا جادًّا لحاول استمالتها والوصول إلى ما يريده منها بلا زواج، كأغلب الذين قابلتهم منذ عملها في الملهى الليلي.

***

مسحت «حِكَم» دموعها التي لم تجف منذ ما حدث معها وقامت لترتدي طرحتها، وخرجت خلف ابنتها التي أخبرتها بأن هناك ضيفًا ينتظرها بالصالة.

وتوترت فور أن رأت «علي» جالسًا، وجهه مكفهر وبيده سبحته يسبِّح بها.

مسحت دمعة أخيرة سالت من عينها ومدت يدها تسلم عليه.

ـ اقعدي يا «حِكَم».

جلست «حِكَم» على الأريكة المقابلة له وبجانبها ابنتها، فأردف «علي»:

ـ ماكنتش أعرف إنك ست خِرعة كدا.

اندهشت «حِكَم» من وصفه لها، وكادت ترد، لكن تعاستها أمسكت بلسانها فأومأت برأسها إيجابًا.

استطرد «علي» وقد بدت لهجته أكثر حدة:

ـ الست الصعيدية الأصيلة مايهمهاش، تفوت في الجبل وتحط صباعها في عين التخين، واللي يدوس لها على طرف تقطع له رجله، واللي يقول عليها كلمة تقطع له لسانه!

ـ إحنا مش عايشين بطولنا في الدنيا يا حاج، كلام الناس مابيطلعش من الهوا.. أنا اللي غلطت برضه وزوّدتها بوقفتي في المحل، وانا اللي استاهل إن دا يحصلّي.

ربتت «نجية» على كتف أمها الباكية، فنهرها «علي»:

ـ بطَّلي عياط يا «حِكَم»، تستاهلي اللي حصلك عشان عملتي إيه؟! عشان نزلتي تشوفي حالك ومالك؟ إيه أجرمتي؟! انتي فكرك لمّا تقولي لا أنا هاقعد كدا وتسيبي حتة عيل ماتعرفيهوش هو اللي يمشي المحل انتي قطعتي لسان الناس؟ دا انتي بتثبتي لهم إن كلامهم صح.

اتسعت حدقتا «حِكَم» بذعر.

ـ أيوه، اسمعي مني، أنا راجل في السوق من يوم ما فتحت عيني ع الدنيا، لما تجري تستخبي انتي كدا بتثبتي لهم إن كلامهم صح، انتي تنزلي وتقفي واللي يقول نص كلمة باللي في رجلك تضربيه..

انتي عارفة يا «حِكَم»؟ أنا ماكنتش ناوي أقولك، بس لما لقيتك ست خايبة، قلت لازم تعرفي، عارفة مين اللي لسّن عليكي يا ست «حِكَم»؟

زفر «علي» أنفاسه الثائرة.. أخفض رأسه وأخذ يسبح بسبحته لثوانٍ.. وبدا آسفًا على ما سيقوله لها يفكر بتردُّد في رد فعلها، لكنه قرر أخيرًا التحدث:

ـ مرة وسخة كدا خليت رجالتي يدوروا وراها، لقيتها الست اللي ابنك قاعد عندها.

صُعقت «نجية» مما قاله «علي» ولطمت «حِكَم» وجهها بقوة من هول ما سمعت:

ـ أم «محمود»؟! أم «محمود»؟!

ألقى «علي» السبحة بعصبية على الطاولة التي أمامه.. وانفعل ليرد عليها:

ـ أم زفت ولا طين! أيوه، ها، إيه رأيك؟ ردي عليا!

حربك صعبة يا «حِكَم»، اللي جبتيه من بطنك عارف إن أمه بتتوسَّخ وراضي، ومش بعيد يكون هو اللي زاققها! إن ماعرفتيش تقفي في وش كل دا، هيتداس عليكي وهتنوليهم اللي هما عايزينه.

وقف «علي»، واتجه نحو باب البيت وتبعته «نجية».

نظر إلى «حِكَم» وهي جالسة تضع يدها على خدها، ويهتز جسدها ذهابًا وإيابًا في حسرة وهي تتمتم وتحدث حالها: «ابني أنا اللي يقتل شرفي؟!»، تنهد وقد فهم تمتمتها، وقال لها قبل أن يخرج:

ـ ربنا يصبَّرك يا «حِكَم» على ابتلائك في اللي من دمك، بس عايزك تفتكري كويس إن «بَكر» ماكانش هيسيبلك كل ماله من بعده، إلا عشان هو عارف ومتأكد إن ماحدش غيرك هيكبّره.. لو الراجل دا غالي عندك، نفذي وصيته.

***

خرجت «حِكَم» من بيتها تركض كالمجنونة في الشارع ويسمعها كل مَن يمر بجانبها وهي تحدث نفسها بصوت مرتفع غير مصدقة ما قيل لها، ولا تعرف كيف وصلت إلى بيت «سحر»، ووقفت أمام الباب تخبط بكلتا يديها، حتى انفتح الباب.

وقفت «سحر» وقفة مائلة تنظر إلى «حِكَم» التي سال أنفها من كثرة البكاء نظرة ساخرة:

ـ أيوه يا اختي، فيه حاجة؟

برزت العروق في وجه «حِكَم» وبدت عيناها كالجمرتين من شدة احمرارهما ولم تدرِ بنفسها وهي تدفع «سحر» التي كانت تعترض طريقها ودخلت لتقف في منتصف الصالة تصيح باسم ابنها.

فوضعت «سحر» يدها في وسط جسدها لتقول لها بصوت يعلو صياحها:

ـ هو إيه يا اختي دا؟! هي وكالة من غير بواب؟!

مسحت «حِكَم» دموعها بكمها والتفتت تنظر إليها بغيظ:

ـ انتي تتكتمي خالص، ماتخلينيش أقلع اللي في رجلي واضربك بيه!

فمشت «سحر» خطوة ليصبح نصفها خارج البيت وصاحت:

ـ الحقوا الولية اللي جاية تقل أدبها عليا في بيتي!

خرج «عدوي» في هذه اللحظة من إحدى الغرف بوجه نائم، وهو يهرش شعر رأسه الأشعث وقد بدا كالمخمور.

ـ الحق يا «عدوي» أمك اللي اتهفّت على كبر.

كادت «حِكَم» ترد عليها صارخة، لكن «عدوي» تدخل بصوت غليظ اهتزت له ضلوع أمه التي احتمى بداخلها ذات يوم:

ـ انتي إيه اللي جايبك هنا؟ غوري بقى مش عايز أشوف حد فيكو.

وارتعشت «حِكَم» وجفت دموعها في لحظة وذهلت لرد ابنها القاسي:

ـ بتقول لامك غوري؟! أمك يا «عدوي»؟!

وصرخت وهي تشير إلى «سحر»:

ـ أمك اللي بَعتّ واحدة ماتسواش توسخني في كل مكان، تعمل كدا فينا يا ابني؟ دا السيرة تقعد لأختك وليك من بعدي يا ابني!

واقتربت منها «سحر» تدفعها خارج البيت، وسط ذهول «حِكَم»، وعدم رد «عدوي»:

ـ يلَّا من هنا يا اختي، دا إيه الولية اللي جاية ترمي بلاها علينا دي؟!

وطاوعتها «حِكَم» ومشت خارجة من البيت وهي تنظر إلى ابنها الذي طأطأ رأسه:

ـ قلبي وربي غضبانين عليك يا ابن بطني.

وأغلقت «سحر» الباب خلفها وهي تقول لـ«عدوي»:

ـ شوف البجاحة! لهفوا فلوسك وجايين يهزّؤوك كمان، دي أمك دي ولية قادرة بصحيح.

ثم خبطته بقوة على كتفه ليسير أمامها قائلة:

ـ ادخل يا اخويا قدامي، كُل شوية حاجة تقل مزاجك ولا اللي مبصوصلي فيك!

***

ارتدت «نجية» قميصًا أبيضَ وفوقه سترة نسائية سوداء اللون استعارتها من «عايدة» على بنطال أسود واسع، واختارت طرحة حريرية بألوان متعددة.

ووقفت أمام المرآة لتضع أحمر شفاه خفيفًا..

رن هاتفها فرمت أحمر الشفاه من يدها وردت بسرعة:

ـ حاضر، حالًا نازلة.. اقف بس في آخر الشارع زي المرة اللي فاتت.

وركضت «نجية» على الدرج بسعادة غامرة، وفي الشارع أيضًا، حتى إنها كادت تقع مرتين..

حتى وصلت إلى سيارة «آسر» الذي وقف منتظرًا:

ـ وحشتيني على فكرة..

سرت قشعريرة في جسد «نجية» فور أن سمعت ما قاله «آسر»، وشعرت أن قلبها سيتوقف من سرعة نبضه، نسيت «نجية» كل شيء كانت تحضِّره في ذهنها لمقابلة العمل التي ستذهب إليها، وتعرقت يداها حتى إنهما كادتا تقطران ماءً.

هي أيضًا تشعر تجاهه بما قاله لها، هي أيضًا تفتفده عندما لا تراه، على الرغم من مكالماتهما الليلية الطويلة..

حكت له بالأمس كل شيء عن حياتها، صرَّحت له بمكنونات قلبها، ما تحبه وما تكرهه، أفصحت بالكثير عن طفولتها التي لم تحبها وسبب ابتعاد أقرانها من الطالبات عنها، حكت

له عن «عايدة»، جارتها الراقصة، التي كانت سببًا لتغيير نظرتها في الحياة، وعن أمها وأخيها، وكل ما مرت به في حياتها.

وكان ينصت إليها تمام الإنصات، لا يود أن تنتهي محادثتهما.

لكن الشيء الوحيد الذي لم يُذكر في مكالمتهما هو «لينا»، تجنَّبا ذكر اسمها، وكانت «نجية» على الرغم من هذا التجاهل المتعمد تشعر بشيء من الغصة؛ لأنها لم تخبرها بعلاقتها بـ«آسر» وشعرت للحظة بأنها تعيد الخطأ نفسه الذي ارتكبته في مراهقتها، وأنها لا تصلح أن تكون صديقة أمينة.

ظلت «نجية» في حالة من الصمت حتى وصلا إلى مقر الشركة، حتى إنها للمرة الأولى التي لا تفتح فيها نافذة السيارة وتنظر منها كعادتها.

وقفت أمام الشركة تنظر في رهبة وتردد، والتفتت إلى «آسر» الذي وقف خلفها:

ـ مش حاسة إني عايزة أدخل.

ـ مش حاسة إني عايزة أدخل؟! إيه الجملة دي؟!

ـ قصدي يعني متوترة كدا.

مد يده بلا استئذان ليمسك يدها ويجذبها متجهًا نحو مدخل الشركة، فسحبت يدها..

فتح فرد الأمن الباب وألقى التحية على «آسر»..

سارت خلفه كقطة تحتمي في صاحبها ثم مرَّ بمكتب جانبي:

ـ بابا جوّه؟

ـ أيوه يا مستر «آسر»، مستني حضرتك..

فتح الباب وخلفه «نجية» التي بدأت تشعر برغبة شديدة في دخول الحمام!

مكثت واقفه على الرغم من طلب «آسر» منها أن تجلس، تنظر إلى اللافتة الموضوعة فوق المكتب وقد كُتب عليها «رئيس مجلس الإدارة».

نظر إليها والد «آسر»، الذي كان منشغلًا بمكالمة هاتفية مهمة منذ دخولهما وهو يشير بيده لها آمرًا بالجلوس فأومأت برأسها بحركة سريعة وجلست.

مرَّ نصف ساعة ولم يُنهِ مكالمته، بينما جلست تهز قدميها في توتر ويتابعها «آسر» الذي قام من على الكرسي المقابل لها واتجه نحو الثلاجة الصغيرة الموجودة في مكتب أبيه، فتحها وهو يشير إليها أي مشروب تختار فرفضت «نجية».

ـ نجية بَكر راوي العدوي.

ابتلعت ريقها وهي تلقي النظرات باستغراب بين «آسر» ووالده الذي أنهى مكالمته ثم قرأ اسمها من ورقة موضوعة أمامه..

أدرك «آسر» استغرابها، فقام من كرسيه ومال على أذنها ليخبرها بأنه قام بعمل سيرة ذاتية لها.

ـ بتقولها إيه يا ولد؟

ـ لا يا Boss مفيش حاجة.

ـ ها يا «نجية»، ازيك، «آسر» كلمني عنك كتير وقالي إنك مجتهدة وبتاعة شغل.

ـ آه.. إاا.. إن شاء الله..

تلعثمت في كلماتها ولاحظ ذلك فوضع سيرتها الذاتية جانبًا، وبدأ يحدثها بشكل أكثر ودًّا عن دراستها وما تطمح إليه في المستقبل، وعلى الرغم من تلعثمها الدائم في أثناء حوارهما فإنه بخبرته وباعه في التعامل مع الموظفين، شعر بذكاء متقد في عينيها، كما أحب خجلها واحترامها، وحتى لو كان أحس بأنها لا تصلح للتعيين بشركته، لم يكُن ليرفض طلبًا لابنه «آسر»؛ فهو ابنه الوحيد وفلذة كبده الذي لو عليه لأحضر نجمًا من السماء إليه، ولم يدُم حديثهما طويلًا..

نظر إلى ابنه وغمز له بعينه قائلًا إنه قد وافق على تعيينها بالشركة ولكن سيتم تدريبها أولًا لمدة شهر، وأنارت كلماته وجه «نجية» التي شعرت بأن قلبها يرقص فرحًا..

ثم طلب منها «آسر»، بعد خروجهما من الشركة، أن يدعوها على الغداء احتفالًا بوظيفتها الجديدة، فأومأت برأسها موافقة بلا تفكير.

***

لا تدري «حِكَم» كم مر من الساعات عليها، وهي تجوب شوارع السيدة بلا وِجهة.

تشكو لزوجها الذي رحل عنها ما بدر من ابنها، تُحدثه في عقلها وتطلب منه المشورة.

لكنها لا تجد إجابة.

تبث حزنها وهمومها في أنفاسها التي تخرج منها مُحلِّقة مع هموم البشر الأخرى.. وكأن السماء أصبحت ملبدة بمآسي البشر وأنّاتهم..

وكأن الكون أحيانًا ما يتآمر لصُنع خلفية ملائمة لما نشعر به..

الشمس لم تشرق اليوم. وبدت السماء غائمة، بها سحب كثيفة.

مضت «حِكَم» في مشيها بين الناس ومرت من شارع المحل وقد لحقتها نظرات البعض ولمحت وشوشتهم وسخريتهم.

تساءلت بقهرٍ، كيف يمكن أن تتبدَّل نظرة الناس إليها بين ليلة وضحاها هكذا؟!

خُيِّل إليها أنها تسمع صوت زوجها يهمس في أذنيها:

يفقرك ربنا يا بت «يَمنى»!

وكأنه ينهرها على ضعفها.

ـ أنا بنت «يَمنى»..

همست.

تتذكر مُقارنات «بَكر» لها الدائمة بأمِّها..

نعم، هي ابنة «يَمنى». المرأة الصعيدية القوية.. تسأل نفسها: أورثت شيئًا منها؟

رفعت رأسها تنظر حولها مرة أخرى وهي تمشي بخطوات بطيئة.. ولمحت نظرة ساخرة أخرى في عين رجل مر بجانبها.

نظرت له في عينيه نظرة قوية.. واثقة.. لا تخاف.

فاضطرب الرجل وهرول مبتعدًا عنها في مشيته!

في لحظة فارقة، قررت أن يظل رأسها مرفوعًا.. نظرت حولها بتحدٍّ واختفى خنوعها، فأصبحت الأعين تختبئ منها!

وبدأت تشعر بعد لحظات بقطرات من المطر تهطل فوقها.. وقفت تنظر إلى السماء بارتياح وحبور وابتسمت..

رفعت كفيها لتحمل قطرات المطر فيهما.

***

وقفت «هدى» أمام مرآتها وهي تضع كريمات العناية الليلية بالوجه وترمق بعينيها «علي» الممدد خلفها على السرير وهو يقرأ الجريدة.

ـ أخبار محل السيدة إيه يا حبيبي؟

ـ كويس.

ـ هممم كويس، وأخبار الست «حِكَم» إيه؟

ـ كويسة.

ـ هممم تمام، شغلها ماشي يعني كويس، وعارفة تتعامل؟

نظر إليها «علي» تاركًا ما كان يقرؤه:

ـ مالك يا «هدى»؟ عايزة توصلي لإيه؟

التفتت إليه:

ـ إخص عليك يا «علي»! أوصل لإيه؟! أنا باطّمن عليك يا حبيبي، ما هو انت طول عمرك علطول بتحكيلي اللي بيحصل في يومك وشغلك، وشايفاك بقالك فترة قاعد ساكت كدا ومابتتكلمش، فقلت أسألك أنا.

ـ بتسألي على شغلي أنا ولا على شغل «حِكَم»؟

قامت من الكرسي الموضوع أمام تسريحتها ثم أزالت الغطاء لتنام بجانبه وربتت على كتفه وهي تقول:

ـ ما كل اللي بيهموك يهموني يا «علي»، طبيعي باسأل عشان عارفة إن انت كنت شايل همها من يوم ما جوزها مات.

قلب ورقة الجريدة وهو يقول:

ـ فيكي الخير.

أشاحت بوجهها عنه والتفتت إلى الجهة الأخرى، أغلقت ضوء الأباجورة التي كانت بجانبها، ثم أغلق «علي» بعدها بلحظات الضوء الذي بجانبه هو الآخر.

خلع نظارة القراءة ليضعها بجانبه وهو يقول:

ـ تصبحي على خير.

الروتين ممل حقًّا، لكنه أرحم من الخوف من خسارته.

ظلت «هدى» بعين مفتوحة طوال الليل تُفكر في زوجها، كيف تسلل شعور الخوف من خسارته إليها إلى هذا الحد؟ ولِمَ تخاف كل هذا الخوف من فقدانه؟ كل هذا بسبب «حِكَم»! كادت تقضم أظافرها الاصطناعية من توترها، وكانت الأفكار تجول في عقلها بلا توقف، تُفكر، اللعنة على «حِكَم».

لقد تبدَّل حال «علي» معها منذ خلافهما الأخير، أصبح لا يتحدث كثيرًا.. لِمَ هذه المرة؟ تساءلت..

لطالما عارضته واختلفت معه كثيرًا، وكان يعود إليها ساردًا أحداث يومه.

ما الذي طرأ عليه؟!

ودَّت لو يخبرها بأي شيء.. أي شيء.. ولكنه لم يُرِح قلبها.

التفتت تنظر إليه في ظلام الغرفة، وقد غطَّ في نومه في لحظات قليلة، وظهر صوت شخيره العميق، فقامت من نومتها وأسندت رأسها إلى ظهر السرير.

الشك يأكلها، وظلت مستسلمة له، تتآكل طوال الليل.

***

وافقت «عايدة» على الزواج بـ«عادل»، لكن العقبة التي كانت أمامها هي: كيف ستتم هذه الزيجة؟ ومن سيقابل من أهلها؟ ولم يستطِع عقلها تقبُّل فكرة أن تذهب معه إلى المأذون ليتم زواجهما في صمت، بلا زغاريد أو دموع فرحة في أعين المقربين منها.

فكرت للحظة أن تحاول الوصول إلى والدها الذي لا تعرف عنه شيئًا منذ فترة طويلة، لكنها شعرت بأنه لا يستحق أن يفرح لها على الرغم من أنها تشك بأنه قد يحمل أي مشاعر تجاهها من الأساس.

إن الفرحة الحقيقة ثمينة، يجب ألَّا تُمنح لمن لا يستحقونها بلا ثمن.

تعلم أن أباها لا يستحقها.

وحكت «عايدة» كل ما يجول بخاطرها لـ«نجية»، فقامت الأخيرة فجأةً من أمامها وخلفها نداءات «عايدة» التي لم تفهم لِمَ وثبت هكذا.

وعادت إلى بيتها تركض، لتجد والدتها التي كانت منكبة على أوراق تراجعها تخص حسابات المحل.

سحبتها «نجية» من يدها لتخبرها بأن هناك أمرًا ضروريًّا لا يحتمل التأجيل، وطاوعتها «حِكَم» وهي تحاول فهم لِمَ تسحبها ابنتها هكذا.

دخلتا بيت «عايدة»، الذي كان بابه لا يزال مفتوحًا، نظرت إليهما «عايدة» التي لم تفهم من البداية سبب خروج «نجية» المباغت.

ـ اتفضلي احكيلها.

نظرت «عايدة» إلى «نجية»، بينما وقفت «حِكَم» مكتوفة اليدين تنظر إليهما في استفهام:

ـ ما تقولي يا بت انتي وهي فيه إيه! ورايا شغل عايزة أخلصه.

ضحكت «عايدة» على ما قالته «حِكَم» ثم قالت لـ«نجية»:

ـ «حِكَم» مابقتش فاضيالنا يا «نوجة» خلاص.

ثم أشارت بكف يدها على المكان الخالي بالأريكة بجانبها لكي تجلس «حِكَم»، وحكت لها «عايدة» كل شيء، ففرحت «حِكَم» لها من قلبها وقبَّلتها قبلة أم لابنتها، لكنها سكتت فجأة لتقول:

ـ بس مين اللي هيقفلك يا بنتي؟ هتكلمي أبوكي ولّا هتعملي إيه؟

خبطتها «نجية» في كتفها:

ـ أُمال أنا ناديتك ليه؟ ما احنا بقى نقف لها.

ـ دا من غير تفكير، بس برضه مايصحش عريسها ييجي مايلاقيش راجل واقفلها، دا عشانها هي، إحنا مهما كنا ستات لوحدنا، ولو مالاقلهاش حد من أولها هتدخل رخيصة.

انفعلت «عايدة»:

ـ ليه يا طنط؟ هو لو مفيش راجل يعني واقف معايا وانا باتجوز يبقى كدا أنا رخيصة؟ يا ستي اعتبروا أبويا ميت.

ـ فيه خال، فيه عم، فيه أخ، ماينفعش يا «عايدة»، ماينفعش..

عوجت «نجية» شفتيها في امتعاض، وهي تقول: «جبتك يا عبد المعين»!

سكتن جميعًا وقد بدت عليهن الحيرة، ثم نظرت «حِكَم» إليهما سارحة، وقالت لهما إنها تُفكّر في شيء ربما سيحل هذا الأمر.. تبادلت «نجية» و«عايدة» النظرات بينهما باستغراب، فقالت «حِكَم»:

ـ لازم يظهر لك ضهر، حتى لو ضهر عيرة، بالك لو اتجوزتي كدا بطولك، في أول مشكلة تحصل ما بينكم أول حاجة هيقولهالك اللي ماشفتلك راجل.

سكتت «عايدة» وقد شعرت بأنها لا تحمل رفاهية الاعتراض؛ فهي في قرارة نفسها تعلم أن ما تقوله «حِكَم» صحيح، خاصة مع شخص مثل «عادل» لا تعرف شيئًا عنه سوى ما يقوله لها.

وبدأت «حِكَم» تستفسر منها عن كل شيء، وكانت أغلب إجابات «عايدة» عنها: «ماعرفش».

فانفعلت «حِكَم» متعجبة وسألتها كيف ستتزوج شخصًا لا تعرف عنه أي شيء؟ لتجيبها «عايدة»:

ـ ماعرفش!

ضحكت «نجية» عليهما ثم قالت:

ـ يا ماما، مش مهم تعرف، تتجوزه بقى وخلاص.

ـ إيه اللي تتجوزه وخلاص؟ اتهفيتي في دماغك انتي رخرا؟ إياكي تكوني يا بت بتفكري زيها! تروحي تجيبيلي واحد لا له أصل ولا فصل وتقوليلي هاتجوزه، مالكيش دعوة بالمجنونة دي، أنا باحذرك أهو!

ـ الله يا طنط! فيه إيه بس؟ قلبتي عليا ليه؟

التفتت «حِكَم» تحدث «عايدة»:

ـ يا بنتي أنا ماقلبتش عليكي، أنا خايفة عليكي.

ـ ماتخافيش.

تنهدت «حِكَم» ودعت لها أن يبارك لها الله في زيجتها، وأنها طالما ستترك عملها في الملهى الليلي، فحتمًا كل ما سيأتي بعده خير.. ومكثت تحدثها عمَّا تحتاج إليه في زيجتها وأنها يجب أن تجهز نفسها في أسرع وقت وطلبت منها أن تأتي إلى المحل لتختار كل ما تريد.. وقالت ضاحكة:

ـ ولّا تجيبي قمصان نوم ليه؟ خدي بقى بدل الرقص اللي متكومة عندك دي.

ضحكن جميعًا، وقالت «نجية»:

ـ تخيلي يا «ديدي»، إحنا بقالنا قد إيه بنقعد مع بعض كل يوم، وعمري ماشفتك بترقصي...

فقاطعتها «حِكَم»:

ـ أيوه يلَّا، شغَّلي حاجة وارقصي رقصة الوداع.

ضحكت «عايدة» ثم قامت لتحضر طرحة ربطتها على خصرها وشغلت موسيقى رقص شرقي..

وصفقت لها «حِكَم» و«نجية» وقد انبهرتا برقص «عايدة» وتمايلات جسدها المتناغمة مع الموسيقى، وزغردت «حِكَم» بعفوية وسعادة وهي تصفق، ثم مدت «عايدة» يدها لتباغت «حِكَم» وتسحبها لتشاركها الرقص.. رفضت بشدة، وقد شعرت بخجل شديد، لكن «عايدة» و«نجية» أصرَّتا فوقفت ترقص بحركات بسيطة، وكانت هذه هي المرة الأولى التي ترقص فيها «حِكَم» منذ مولدها!

شعرت وكأنَّ روحها تحلق بسعادة.. أغمضت عينيها وهي تتمايل وتحرك يديها في الهواء وقد بدت ملامحها سعيدة للغاية ووجهها مبتسمًا.

***

وقف «عبده» مع الزبائن وهو منشغل عنهم، عيناه تتابعان «حِكَم» التي وقفت تتحدث مع «علي» أمام محله.

لقد ظنَّ «عبده»، بعد كل ما قيل عنها، أنها لن تجرؤ على الخروج من بيتها مرة أخرى، أو وطء هذا الشارع بقدمها، ولكن لم تمر أيام قليلة ليجدها واقفة أمامه بثقة غريبة، وغير اكتراث للنظرات التي تُلقى إليها وتمتمات البعض، بل وأصبحت نبرة صوتها أكثر وضوحًا وصرامة.

وأُعجب، في قرارة نفسه، بقوتها تلك؛ فقد عرفها لسنوات طويلة امرأة مسكينة لا تفقه شيئًا ولا تخرج من بيتها سوى لتوزيع الأرغفة على مساكين السيدة.

كما تساءل كثيرًا: كيف اختلفت هكذا وقد أصبحت كأنها امرأة حديدية لا تُقهر؟!

لا شيء أقوى ألمًا على المرأة كتشويه سمعتها، تظل وصمة تلاحقها مدى عمرها حتى إن ثبت حسن خلقها! وقد تغلبت على كل هذا.

وفي الوقت الذي مكث ينظر إليهما متلصصًا، كانت «حِكَم» تحكي لـ«علي» أمر جارتها التي لا تجد مَن يقف لها في زواجها، وتعرض عليه ـ إن استطاع ـ أن يحضر عقد زواجها ككبير منطقتها، وهو معروف سيعود خيره عليه وعلى أبنائه من بعده.

ووافق «علي» دون تفكير، وسعدت «حِكَم» بموافقته قائلة:

ـ ربنا يوقفلك ولاد الحلال دايمًا يا حاج «علي».

وتركته «حِكَم» لتعود إلى محلها وهي تُسلِّم على الزبائن الذين يقفون مع «عبده»، بينما جلس «علي» على مكتبه مُنتشيًا من لجوء «حِكَم» إليه.

أحب فيها، منذ اللحظة الأولى التي رآها، صدق حزنها على زوجها وظل ليالي طوالًا يفكِّر، ترى هل ستحزن زوجته عليه عند رحيله مثل هذا الحزن الذي رآه في عيني «حِكَم»؟! كان يبغض أسلوب زوجها «بَكر» ويصفه بالإنسان الغليظ الجاهل، ويفكر فيه حاقدًا، ذلك الرجل الصعيدي القاسي ترك خلفه امرأة كالملائكة تدعو له بصدق ما بقي من عمرها، يحقد عليه في قرارة نفسه ويتمنَّى لو أن امرأته لديها من المشاعر الصادقة نصف ما تحمله «حِكَم» تجاه زوجها.

ومرت بذهنه تساؤلات «هدى» التي كثرت عن «حِكَم» وقد أضحت غيرتها واضحة للغاية، وهو أمر لم يحدث أن شعر به منذ اليوم الأول من زواجهما.

مال برأسه يسترق النظر إليها وهي تقف وسط الزبائن، للمرة الأولى يتفحَّص قوامها المختبئ في ردائها الواسع، وابتساماتها الصادقة لزبائنها..

إنها لا تضع على وجهها أي شيء من المستحضرات التي تضعها زوجته، ولا تفوح منها أفخم الروائح الفرنسية التي تحرص «هدى» على اقتنائها، لكن ملامحها مميزة للغاية، وجميلة بشكل يفوق زوجته، أصلية بلا تغيير.. روحها حقيقية لم تلوثها الصفات الخبيثة..

إنها امرأة لم يُغير فيها الزمن شيئًا أو يُصِبها العالم من حولها بأي زيف.

وإنه قبل أي شيء.. يحبها.

يحبها حبًّا جارفًا لم يشعر به من قبلُ، لا مع زوجته ولا مع أي امرأة أخرى على وجه الأرض، يود أن يفعل أي شيء لإرضائها.

وكان دائمًا يهاجم «هدى» ويُنهي أحاديثه معها خوفًا من أن تتأكد ظنونها وتبوح عيناه؛ فـ«هدى» امرأة ذكية للغاية، وهو على علم كافٍ بذكائها هذا.

كما أنه يعلم أنه لن يستطيع أبدًا البوح لـ«حِكَم» بمشاعره خوفًا من خسارتها.

***

أصبح «عدوي» كالميت، وزاد من أمره سوء تعاطيه للحبوب المخدرة.. وكانت «سحر»، في بادئ الأمر، ترغب في أن تساعده ليحصل على أموال والده.

وظنَّت هي وأسرتها أن شيئًا من الخير سيعود عليهم، لكن بعدما سلم لها نفسه وأصبح عبدًا لعلاقتهما الآثمة، أصبحت لا تكترث لأمر إرثه ويكفيها أنه يلبي رغباتها التي لا تهدأ أبدًا.

وبدأ زوجها وابنها في الاعتراض على وجود «عدوي» معهم؛ فهو أمر زاد على الحد ولا فائدة تعود منه، لكنها كانت تصرخ فيهما كي لا يتدخلا، فهل ستلقيه في الشارع؟!

كانت تقول لزوجها: اعتبره ابنًا آخرَ لك! فامتعض زوجها ليرد: البهائم زادوا واحدًا!

وتطرقت أحاديثهم إلى سمع «عدوي» وهو نائم كالجثة الهامدة إثر تأثير الحبوب التي أصبح يتعاطاها بكثرة، وقام بخطوات مترنحة ليخرج من الغرفة، لكنه وقع على بابها، فركضت «سحر» لترفعه.

وأشاح زوجها بيده في الهواء وقام وهو يتمتم بكثيرٍ من السباب، بينما تأفف «محمود» من اهتمام والدته بـ«عدوي» الذي فاق الحد، وهو الذي تقبَّل الأمر منذ البداية؛ لأنه تصور أن مساندته لـ«عدوي» ستجعله شريكًا في كل الأموال الطائلة التي سيأخذها الأخير.

لكن شيئًا من هذا لم يحدث، وأصبح «عدوي» حملًا ثقيلًا على قلبه.

خرس الجميع ولبوا رغبة «سحر» دون مناقشة؛ فلا دخل لهم إلا منها، ولم يكُن «عدوي» يعلم أن «سحر» لها باع قوي في تجارة الحبوب المخدرة، وهو السبب الخفي لإرسال ابنها خارج البيت وتأخره.

بل هي مَن طلبت مِن «محمود» إقناع «عدوي» بوضع المادة المخدرة في كوب شاي «بَكر»، قائلًا له إنها خلطة أحضروها له من أحد العطارين ستصيب مَن يتناولها بوعكة صحية لأيام، واقتنع «عدوي».

عزَّفته «سحر» في جلساتهما الآثمة أصنافًا أخرى من المخدرات، كالفودو والاستروكس وغيرهما، حتى تُمسك بزمامه، وظن «محمود»، الذي كان يكتفي بتدخين سجائر البانجو مع «عدوي» ولا يقترب من غيرها، أن ما تفعله الأم ليس سوى لمصلحتهم جميعًا، لكنه أدرك بعد كل ما حدث أن «عدوي» وجوده مثل عدمه ولا خير سيعود من ورائه.

***

مكثت «نجية» تنظر إلى اسم «لينا» الذي يضيء شاشة هاتفها، شعرت بشيء من القلق يتسلل إليها وهي تُفكر هل ترد على اتصالها أم لا، وبعد ثوانٍ سكت صوت الهاتف الذي كان لا يزال في يدها، فعاودت الاتصال بها..

ردت عليها «لينا» على الفور وهي تلومها على اختفائها وعدم سؤالها عنها، فتحجَّجت «نجية» بانشغالها في عملها الجديد، وأحست بتعجُّب «لينا» التي ظنت أن «نجية» فتاة ساذجة لا تصلح لأي شيء.

ـ طيب إيه يا «نوجة»، مش هنشوفك؟

ترددت «نجية» وهي تجيب:

ـ أكيد طبعًا، أنا نفسي أشوفك جدًّا.

أنهتا المكالمة بعد بضع كلمات مقتضبة، وقالت «هدى»، التي كانت تجلس بجانب ابنتها منتظرة أن تسمع شيئًا جديدًا:

ـ ها، ماقالتلكيش حاجة؟

ـ لأ خالص، مش فاهمة يا مامّا، انتي خليتيني أكلمها ليه؟

ـ عادي يعني تطمني عليها وعلى مامتها.

ـ لا والله غريبة! من إمتى؟ ما انتي بتكرهيهم، وبعدين على فكرة أنا كمان مارتحتلهاش أوي يوم ما جت عيد ميلادي، فالحمد لله إنها مابقتش تزنّ عليا زي الأول.

وضحكت «لينا» وهي تردف:

ـ لأ وعاملالي مهمة وبتقولّي اشتغلت، كوميدية أوي «نجية» دي.

فانتبهت «هدى» وقالت بحدة:

ـ اشتغلت؟! طبعًا يبقى باباكي اللي جابلها شغلانة، ما هو متبنيهم خلاص! هو أبوكي أكيد بعلاقاته، أنا ماعرفش بجد وقعوا علينا منين دول.

لم تكترث «لينا» لانفعال والدتها وغضبها، أمسكت هاتفها تتصفَّح صفحة «آسر» على «فيسبوك» وتفتح الصورة الجديدة التي يضعها، وقد بدت سعادته واضحة في نظرة عينيه..

ابتسمت وكأن ابتسامته لها وعلَّقت على الصورة بقلوب كثيرة.

***

جلس «عادل» ينظر إلى ساعته بوجه مقتضب وملامح جادة لا تبتسم، وجلست بجانبه «عايدة» وقد بدت فاتنة للغاية ترتدي فستانًا قصيرًا أبيضَ ناعمًا، وله كُمَّان طويلان، ليس به أي تطريز سوى على ياقته.

جلس أمامهما المأذون وبجانبه صديق لـ«عادل» لا تعرفه من قبلُ، تبدو ملامحه مريبة.

خرجت عليهم «حِكَم» تحمل صينية بها كؤوس الشربات وتزغرد بسعادة، ثم وضعتها أمامهم.

امتعض وجه «عادل»، ثم مال على «عايدة» يحدثها:

ـ هو إحنا كل دا مستنيين إيه؟

ـ مفيش، حد من معارفنا بس جاي في الطريق.

قامت «عايدة» من جلستها لتحدِّث «حِكَم» و«نجية» اللتين وقفتا في آخر الصالة تراقبان «عايدة» وعريسها.

ـ هو فين الحاج «علي» دا؟ «عادل» مستعجل!

ـ مستعجل على إيه يا اختي؟ بلا هم، هو ماله قاعد جنبك نافخ ريشه عليكي كدا ليه وقرفان من نفسه؟ بلا نيلة.

تدخلت «نجية»:

ـ يا ماما وطي صوتك بقى هيسمعنا!

ـ يا اختي ولا يسمع، بلا قرف، أنا مش عارفة والنبي دي جوازة ولا جنازة، البت قاعدة جنبه زي الوردة المفتَّحة وهو بُصِّي! بصي والنبي على وشه يا «نوجة»! قاعد زي الغراب ورافعلي حواجبه، دي البت «عايدة» برقبته.. دا كفاية كرشه اللي قدامه مترين.

رن جرس الباب، فحمدت «نجية» الله واتجهت «حِكَم» لتفتحه وهي تقول:

ـ أهو الحاج «علي» وصل أهو.

دخل الحاج «علي» وهو يسلِّم على «حِكَم»، لكن كانت الطامة الكبرى ما إن التقت عيناه عيني أخيه «عادل».

وكاد ينطق، لكنه فضَّل الصمت، وانقلب حاله في طرفة عين.

وابتسم «عادل» نصف ابتسامة بدهاء وهو يهز رأسه بسخرية، وقام من جلسته يمد يده إلى أخيه ليسلم عليه:

ـ ازيك يا حاج «علي»؟

مد «علي» يده يبادله التحية ولم ينطق.

وتعجبت «حِكَم» لتقول:

ـ إيه دا؟ انتو تعرفوا بعض؟

فقال «علي» سريعًا:

ـ آه.. معرفة قديمة.

ففرحت «حِكَم» مستبشرةً وهي تقول إن مَن يعرف الحاج «علي» حتمًا رجل صالح مثله.

مكث «علي» واقفًا يتبادل نظرات تقول الكثير مع أخيه، وقد شعر بوقع الصاعقة عليه.

قالت «حِكَم» هي تشير إليه بالجلوس:

ـ اتفضل يا حاج «علي».. انت مكسوف ولا إيه؟ دا بيتك ومطرحك.

جلس «علي» وكأنه مُغيَّب من هول الصدمة، يفكر هل يقول للجالسين مَن الذي أمامه، وحتمًا لن يسلم من أذى «عادل» وسلاطة لسانه، بل وسيتحدث عنه بالسوء قائلًا إنه ادعى أنه أحد معارف هذه الراقصة، وعلاقته الوطيدة الظاهرة بـ«حِكَم» وأسرتها، التي رحَّبت به فور دخوله وكأنه صاحب بيت مثلما قالت، أم يلتزم بالصمت ويترك كل شيء يحدث كما قُدِّر له.

أخرج «عادل» من جيبه علبة صغيرة وفتحها ليظهر بداخلها خاتم ألماسي لـ«عايدة»، فاقتربت «نجية» و«حِكَم» وهما تزغردان لتتفحَّصا خاتم العروس، بينما رمق «علي» الخاتم بنظرة حسرة وضيق.

وفتح المأذون دفتره يسألهم عن مؤخر الصداق المُتفق عليه، فقال «عادل» بفخر وصوت مرتفع:

ـ مئتا ألف جنيه.

زفر «علي» في صمته وهز رأسه اعتراضًا..

ثم طلب المأذون بعدها البطاقات من الشهود، فقال «علي» بصوت يكاد لا يُسمع إنه نسي بطاقة إثبات شخصيته، ولم يرفع رأسه، ثبَّت عينيه في السبحة التي ظل يُسبّح بها طوال جلستهم، وتوتَّر الجميع من الموقف عدا «عادل» الذي ظل ينظر إلى أخيه بنظرات تشفٍّ واستهزاء.

واحتارت «حِكَم» ماذا تفعل في هذه الزيجة الغبراء، وأرسلت ابنتها «نجية» لتحضر أي شاهد آخر من سكان العمارة أو حتى من الشارع!

ولم يخطر ببال «نجية» سوى الحاج «أشرف» جارهم، أخبرته أنهم يحتاجون إليه لأمر بالغ الأهمية، فارتدى ملابسه سريعًا ونزل معها لا يدري ما الأمر وخلفه صيحات زوجته.

وزاد الحاج «أشرف» من الطين بلة عندما وقعت عيناه على المأذون، واعتقد أنهم طلبوه ليشهد على زواج «حِكَم» و«علي» بعد ما قيل عنهما منذ مُدَّة. وخبطت «حِكَم» «نجية» في كتفها لأنها لم تُفهم الحاج «أشرف» لِمَ يريدونه، بدلًا من أن يتفوَّه بكلمات كهذه!

وتمت الزيجة ورحل الحاج «علي» الذي كان دوره صامتًا منذ دخوله وحتى خروجه من باب البيت.

زُفت «عايدة» بزغاريد «حِكَم» في الممر القصير الفارق بين الشقتين حتى انغلق الباب عليها هي وزوجها.

***

«هذه الدنيا صغيرة كثقب إبرة»..

ظل «علي» طوال طريق عودته إلى بيته يفكر في هذه المقولة، كم هي حقيقية!

يتذكر الخاتم الألماسي الذي استعرضه أخوه أمامهم وهو يتحسَّر على الأموال التي تضيع على زيجاته الفاشلة ونزواته، ويتذكر أبناءه الذين يرجونه لإرسال مصاريفهم.

جلس واجمًا بجانب سائقه وحاول الاتصال بـ«عادل»، فوجد هاتفه مغلقًا.

تمتم باستياء:

ـ طبعًا.. عريس بقى.

عاد إلى بيته وهو في حالٍ يُرثى له، شعرت زوجته بأن هناك أمرًا غريبًا خلف ملامح زوجها، ارتمى على مقعده وهو يتنهَّد وكأنه لا يستطيع التنفس.

اقتربت منه «هدى» تسأله بقلق واضح:

ـ إيه يا «علي»؟ مالك؟ فيه إيه؟

كاد يفصح لها عمَّا حدث..

لكنه عاد وابتلع كلماته التي وقفت في حلقه، «هدى» لا تفهم ولن تفهم، لقد مضت أسابيع كثيرة وهي تعترض على وقوفه بجانب «حِكَم» ومساندته إياها، لقد تسرَّب إليها ما يحاول إخفاءه من مشاعر دفين، وتساءل: إذًا ماذا ستفعل إذا علمت أنني ذهبت إلى بيت «حِكَم» لأقوم بدورٍ ليس دوري؟!

سيشتعل هذا البيت بالنار.. ستتصل بأبنائه بالخارج لتقول لهم والدكم قد فقد عقله وإنه يقوم بأمور مشينة، سيخلق لها عقلها كل شيء خاطئ وستصدقه، ولن تقتنع بنياته مهما قال وفعل.

وكان الأهم من كل هذا وذاك أنه يخاف خسارة بيته، يخاف خسارتها، على الرغم من أنه يمقت عقلها وأسلوبها.

ذلك الشعور الجارف بإدمان ما اعتدناه حتى إن لم نكُن نشعر براحة.

يشعر بعجز وتشتت ويفكر في حيرة من أمره ومشاعره المتناقضة.

فقد كان «علي» طوال حياته مثالًا للوفاء، ولم تمر امرأة أخرى بذهنه حتى التقى «حِكَم».

تذكَّر كلمات الحاج «أشرف» الذي دخل يبارك له ظنًّا أنه العريس، وتذكر نظرة أخيه حينها.

جلس صامتًا ينظر إلى زوجته بضعف وقلق، ولا يجد شيئًا ليقوله لها.

***

ولا بد من يوم معلوم

تترد فيه المظالم

أبيض على كل مظلوم

واسود على كل ظالم

ابن عروس

الفصل الأخير

مرَّ شهران منذ زيجة «عايدة»، وبدت الحياة تسير بثبات واضح وبلا تغيير يُذكر، وأصبحت «حِكَم» بدورها أكثر دراية وحنكة بإدارة شؤون محلها.

سكتت الألسن عنها، ونجحت في أن تُعيد مكانتها بين أقرانها من أصحاب المحلات المجاورة والبعيدة؛ فالناس عادةً ما تتناسى الفضائح القديمة وتبحث عن قصص جديدة ليتحاكوا بها، وأدركت «حِكَم»، بنضوجٍ، أنها لن تستطيع أبدًا أن تمحو ما قيل عنها من العقول المريضة. وقررت المضي قُدمًا بثقة لا مثيل لها.

وعادت ذات يوم لتصادف جارتها «سنية» وهي تصعد إلى بيتها، نظرت إليها «سنية» بغيظ وهي تلقي القمامة أمام باب الشقة وتغلقه بقوة كعادتها، بينما ابتسمت «حِكَم» في طريق صعودها براحة ورضا، وهمست:

ـ شكرًا يا أبلة «سنية»!

وكانت حقًّا تشعر بالشكر والامتنان لهذه المرأة المُسنة التي كان لها دور قوي في ما أصبحت عليه «حِكَم» الآن.

منذ لحظة إغمائها أمام باب شقتها اختلفت حياتها، كانت الإغماءة بمثابة صحوة، رأت فيها كل الأشياء والأشخاص على حقيقتهم.

وبغلق باب «سنية»، انفتحت كل أبواب الحياة لها.

فالعلاقات المسمومة هي أذى مخيف، يقتل أرواحنا بلا دراية منا، وهروبنا منها بمثابة حياة جديدة يمنحها لنا الله مُكافأةً على ما عانيناه.

أخرجت «حِكَم» مفتاح الشقة لتُدخله في هدوء، ثم اتجهت نحو غرفة ابنتها وفتحت الباب فأغلقت «نجية» الهاتف بسرعة.

شعرت «حِكَم» بأمر مريب وراء اضطراب «نجية» التي تغيَّر وجهها، وقالت وقد بدا عليها الارتباك:

ـ إيه يا ماما، جيتي إمتى؟

ضاقت عينا «حِكَم» وهزت رأسها باستفهام:

ـ كنتي بتكلمي مين يا «نجية»؟

ـ دا... دا واحد زميلي يا ماما في الشغل.

مشت «حِكَم» خطوتين لتجلس على طرف السرير وتحدث ابنتها:

ـ هممممم، زميلي في الشغل يا ماما.

مضت برهة من الصمت تتفحَّص فيها «حِكَم» وجه ابنتها:

ـ طيب، بصي يا «نوجة»، أنا بقالي كام شهر هالكة نفسي في المحل ومش مركزة معاكي خالص، ومارفضتش لما قلتيلي إن جالك شغل، بالعكس اتبسطت لك وقلت بنتي مربياها، أرميها في النار ترجعلي سليمة.

بس ما اتفقناش إن زمايلنا م الشغل يكلمونا ونبقى نايمين بنتنحنح معاهم في التليفونات كدا زي نومتك دي!

ـ يا ماما والله مفيش حاجة، دا بس...

ـ ولو فيه يا «نجية»، ولو فيه يا حبيبتي، تيجي تكلمي أمك وتحكي لها، أمك ست صعيدية آه، بس فاهمة يعني إيه بنت وليها مشاعرها، أنا من صغري دافنة نفسي، عايشة متكتفة وأتاريني أنا اللي كنت مكتفة نفسي، مارضالكيش تعيشي زيي، وتفوقي متأخر زيي..

تنهَّدت «حِكَم» ثم أردفت:

ـ لا أنا ليا غيرك ولا انتي ليكي غيري، حتى أخوكي أهو أذانا وسابنا وكأنه مايعرفناش..

يلَّا الله يسامحه ويهديه.. لو فيه حاجة ماعرفهاش يا «نجية»، عرّفيهالي يا بنتي، ماتخلينيش أعرف من برّه...

لم تُكمل «حِكَم» كلماتها، ظهر صراخ «عايدة» فارتعبت «حِكَم» و«نجية»، وقامتا تركضان بسرعة لتخرجا من باب الشقة وبدأتا في طرق بابها بقوة، وهما تسمعان سباب «عادل» لها وصرخاتها.

ـ يا «عايدة» افتحي، افتحي يا بنتي، يا «عايدة»، افتح يا «عادل»!

وخرج بعض الجيران على صوتها الباكي وصرخاتها، واحتشدوا جميعًا أمام باب بيتها يطرقون الباب، وعرض أحدهم كسره قائلًا:

ـ دا شكله بيضربها جامد!

فتح «عادل» الباب في هذه اللحظة وخرج وهو يدفع كلَّ من أمامه بيده ويلاحقه سبابهم.

ركضت «حِكَم» إلى داخل شقة «عايدة» لتجدها واقعة على الأرض ووجهها ملطخ بالدماء وقد انهارت قواها تمامًا.

***

بدا «عدوي» وكأنه يعيش في مجاعة، برزت عظام وجنتيه وظهرت عظام قفصه الصدري بوضوح شديد إذا ما خلع عنه لباسه، وكأنه هيكل عظمي يكسوه الجلد!

امتصت «سحر» كل ما بقي لديه من طاقة أخيرة، فأصبح بلا فائدة لها، ولا يقوى على أن يقف على قدميه باتزان لثوانٍ معدودة دون أن يترنَّح، فملَّت «سحر» منه، وبدأت تعامله وكأنه خادم لها، حتى إنها ذات مرة طلبت منه أمام زوجها وأولادها أن يدلّك لها قدميها لأنهما تؤلمانها! أو ترسله لشراء أشياء لها من السوق وتنهره إذا أحضر شيئًا خطأً.

وفرشت له الأرض لينام عليها بصالة البيت بعد شكوى ابنها «محمود» منه وضيقه من شخيره وهلوساته في أثناء نومه ورائحته التي أصبحت نتنة.

وبدأت تشعر بثقل وجوده وتخبر زوجها:

ـ عمَّالين نعلف فيه ولا جايب تمن لقمته.

ليعاتبها زوجها «عبد الباقي» قائلًا وهو يركل «عدوي» بقدمه ليفيق من نومته على الأرض:

ـ كله منك، انتي اللي قعّدتيه على قلبنا!

وكانت تقول لابنها:

ـ ما تاخده ترميه عند أمه ولا غوّره في داهية بدل ما هو قاعد كدا.

لكن «عدوي» استشاط غيظًا وصاح يقول:

ـ هتسيبيني بعد كل اللي ما بينّا يا «سحر»؟!

فاضطربت «سحر» قائلة لابنها وزوجها:

ـ لا دي المخدرات لحست عقله! الحقوني الوسخ هيرمي بلاه عليا.

وسرت الدماء تغلي في جسد ابنها بعد كلمات «عدوي» فجذبه بعنف من ملابسه كبهيمة ليلقيه خارج البيت، وظلت كلتا يديه تطرق الباب بعنف وهو يصرخ، لكن أحدًا لم يفتح له.

***

احتضنت «حِكَم» «عايدة» التي ظلت تبكي حتى ابتل جلباب «حِكَم» من دموعها الغزيرة، وظلت تمسح على شعرها بيدها وتحاول تهدئتها..

دمعت عينا «نجية» لحال «عايدة»، ونظرت حولها تشعر وكأنَّ كل شيء في البيت يبكي عليها. وسمعت للمرة الأولى ضجيج الشارع يتسلَّل من الشرفة إليهم، فقدَ بيتُ «عايدة» سحرَه، وأصبح كباقي البيوت، هجرته آهات «فيروز» وأغانيها، حتى المفارش الملونة التي أحبتها «نجية» في السابق أصبحت باهتة وكأنه لا لون لها.

أشفقت «نجية» على «عايدة» وتعجبت كيف تبدَّلت إلى هذا الحد بعد زواجها بهذا الرجل الملعون وكيف أطفأها هكذا!

وقالت «عايدة» بصوت مبحوح من أحبال صوتية أنهكها الصراخ:

ـ استحالة أعيش معاه، دا حيوان.. أنا كنت حاسة امبارح إني هاموت في إيده.

ربتت «حِكَم» على كتفها:

ـ اهدي بس يا بنتي دلوقتي، كل البيوت مقفلة على بلاوي.

ـ مش هاقدر، مش هاقدر، أنا لو كمّلت معاه هاموت، هو أصلًا مش عايزني، دا مجنون، اللي بيعوز حد مش بيبهدله ويهينه كدا، أنا باتهان من أول يوم ومش باحكي لكم، وساكتة وباقول كل الناس في بداية جوازها بتعدي بكل دا، بس مش لدرجة إنه يجيلي سكران كل يوم ويمد إيده عليا من غير ماجي جنبه، لأ وأكتشف إنه على علاقه بواحدة، ويوم لما اواجهه يضربني ويهينّي، ويقولي تعيشي زي الجزمة!

أنا باحمد ربنا إني ماوافقتش أروح وأعيش معاه وأفضل هنا في بيت أمي ووسطكم، مين عارف؟ كان زماني ميتة لو ماحدش لحقني.

نظرت إليها «حِكَم» تشعر بحسرة على حالها، تتمتم:

ـ يا ميلة بختك يا «عايدة».

لم يعُد «عادل» إلى بيته في الليلة السابقة بعد ما فعله، ولم يتصل بـ«عايدة».. أرسلت إليه رسالة تطلب الطلاق، فأجابها بوصلة من السباب.

جلست «حِكَم» وابنتها لمواساة «عايدة» ومرت بضع ساعات لم يشعرن فيها بالوقت، ليسمعن بعدها صوت باب البيت يُفتح.. فوثبت «حِكَم» وهي تشد ابنتها من معصمها لتخرجا من البيت:

ـ أهو شكل جوزك رجع يصالحك، اغسلي وشك بقى كدا والبسي حاجة حلوة.. ربنا يصلح لك الحال يا بنتي.

***

مرَّ الوقت على «نجية» و«آسر» وهما جالسان على طاولة جانبية بأحد المطاعم القريبة من مقر الشركة بالمهندسين، وقد بدا منهمكًا يشرح لها على جهاز الكمبيوتر المحمول أهم الشركات التي يتعاملون معها بالخارج وأحدث الأجهزة التي يتم استيرادها.

كانت «نجية» بدورها سارحة تضع يدها على خدها ولا تستمع جيدًا إلى ما يقوله؛ فقد أصبحت على دراية كافية بعد مرور فترة تدريبها وتعيينها بالشركة، بل وقدمت لأخذ دورة لغة إنجليزية حتى تصبح أكثر تمرُّسًا، وكانت والدتها دائمة التشجيع لها ولا ترفض لها طلبًا وتمدها بكل المال الذي تحتاج إليه لكي تطوِّر من نفسها، وأحضرت لها يوم تعيينها ملابس جديدة بألوان زاهية، وقالت لها «نجية» آنذاك:

ـ إيه كل دا يا ماما؟ دا كتير أوي!

فردت «حِكَم» قائلة:

ـ ما يكتر عليكي حاجة يا بنتي، وبعدين دا انتي بنت الحاج «بَكر» أكبر تاجر ملابس، عايزاكي تبقي أحلى وأشيك واحدة.

وفي حقيقة الأمر لم تبدُ «نجية» بهذا التألق الذي اعتقدته «حِكَم»؛ فكان ذوق ملابسها شديد التواضع وليس كأحدث الصيحات التي ترتديها باقي الموظفات في الشركة.

واستمرت في استعارتها الملابس من «عايدة» دون أن تُخبر أمها، وفور أن أخذت قبضها الأول قررت النزول مع «عايدة» إلى أحد مراكز التسوُّق الحديثة لشراء ملابس بذوق مختلف يتناسب مع الأخريات. وادَّعت أن «عايدة» هي التي أهدتها إليها، حتى لا تشعر «حِكَم» باعتراضها على ذوقها.

ولاحظ «آسر» أنها غير منتبهة، فأغلق شاشة جهاز الكمبيوتر وهو يحدثها:

ـ أنا باكلم نفسي.. صح؟

ـ لا لا أبدًا، أنا معاك أهو.

ـ طيب كنت باقول إيه؟

نظرت إليه «نجية» للحظات ولم تجبه، فانفعل «آسر» للمرة الأولى أمامها، مُتعجبًا من عدم تركيزها معه، وبررت له أنها تعلم كل ما يقوله فقطَّب حاجبيه وقال:

ـ فعلًا؟! فتسيبيني قاعد باكلّم نفسي! مش فاهمك الصراحة، زهقانة يعني وانتي قاعدة معايا؟! وراكي حاجة مهمة؟ أوك.. نقوم نمشي.

ـ لأ والله أبدًا، بس بص، بصراحة أنا مستغربة مقابلاتنا في العموم، الموضوع زاد عن حده شويّة..

مال «آسر» برأسه مستفهمًا..

أخذتها الجرأة وألقت الكلمات في وجهه بلا أي تفكير؛ فقد شجَّعتها «عايدة»، منذ أيام، على ضرورة التحدث معه وفهم وضعها الحالي، خاصة بعد أن صرحت لها «نجية» بأنها أصبحت تحبه وتسهر ليلًا تتكلم معه ساعات طويلة، وحذرتها «عايدة» من تعلقها بشيء غير مفهوم، خاصة بعد حظها العاثر مع «عادل» وقالت لها:

ـ ماتعمليش زيي، تفضلي تايهة في حاجة ملامحها مش باينة، وفي الآخر لما هتزهقي هتقعي في واحد يهينك، لمجرد إنه يبقى ضهرك، افهمي انتي معاه ليه.

واقتنعت «نجية» بكلمات جارتها وأمضت ليلها تتقلَّب في السرير وهي تُفكر، ولم تُجِب اتصاله المعتاد قبل نومها.

ـ «آسر»، أنا بصراحة محتاجة أفهم إحنا ليه مع بعض، يعني.. يعني انت عايز مني إيه، بصراحة بقى؟

ـ مش فاهم يا «نوجي».

ـ إيه اللي مش فاهمه يا «آسر»؟! سؤالي واضح على فكرة.

ـ لأ هو مش فكرة واضح أو لأ، السؤال نفسه غريب، انتي بعد كل دا بتسألي؟! أكيد باين يعني اللي أنا عايزه.. انتي بتهرجي؟!

ـ «آسر».. أنا من فترة قريبة حصل حاجة ومارضيتش أحكيلك..

واحنا بنتكلم ماما كانت واقفة بتسمعني من ورا الباب وبدأت تركِّز معايا، أنا الصراحة حاسة إني باعمل حاجة وهي ماتعرفهاش، ودا محسسني بالذنب.

ـ So، ما تركز، فين المشكلة؟! انتي مش عيلة صغيرة، واحنا مش بنعمل حاجة غلط وماظنش إنها سمعت حاجة غلط أو عيب.

ـ «آسر».. ممكن العادي بالنسبة لكم مش عادي بالنسبة لأمي، وكمان...

ـ أيوه يا «نجية»، اختصري الكلام وخليكي Straight Forward..

عايزاني آجي أتقدملك؟ بالعكس I’m so serious ولمَّحت لك على فكرة أكتر من مرة، بس انتي اللي بتحسسيني إن الدنيا عندكم مش متظبطة، مامتك مش عارف مالها، أخوكي حصلّه إيه، وماعرفش مين راح فين، وقصص كتير ملخبطة في حياتك، فبحس إن انتي اللي مش مستعدة إن دا يحصل دلوقتي، مش أنا.

سكتت ولم تجد شيئًا لترد به، ابتسمت له وقد احمر وجهها بشدة.

لم تكُن تتوقع رده هذا، فما صوَّرته لها «عايدة» كان أكثر تعقيدًا، وخُيِّل إليها أنه يتلاعب بها وبأحاسيسها.

وفكرت للحظات لتدرك أنه محق بالفعل؛ فهي ليست على أتم استعداد لتجعله يطرق بابها، وبدأت تُفكر كيف تفاتح والدتها في الأمر، ومرت صورة أخيها في ذهنها فلعنتها، ولم يتقبل عقلها مقابلته «آسر»، فكيف يقابله وهو إنسان فظ لا يُشرف؟! وتذكرت زيجة «عايدة» وحياتها التي أصبحت مأساه، خافت أن تصبح مثلها، كلمات أمها لا تفارق أذنيها؛ فهي محقة، كل ما تعانيه «عايدة» يحدث لأنها بلا ظهر يحميها، وبلا رجل يقف لها، لا ظهر لها كما كانت تقول عنها «حِكَم».

وخافت من أن تصر أمها على اللجوء إلى أخيها ليقف لها كرجل في زيجتها، لكنها عادت لتخبر نفسها بأنه من المستحيلات أن تفعل بها أمها هذا، وهي التي رأت بعينيها كم الدمار الذي سببه لهما «عدوي» في حياتهما، وقاما من جلستهما دون أن تمنحه إجابة..

اللعنة على الظهور المنكسرة.

***

لم تكُن عودة «عادل» لمصالحة زوجته مثلما ظنَّت «حِكَم».

دخل حينها بوجه عابس ورمق «حِكَم» وابنتها بنظرات ساخرة وهما تخرجان من البيت ولم يرد تحيتهما، ثم دخل بعدها ينظر إلى «عايدة» باحتقار مستهزئًا من دموعها ووجها المُكفهر.

غابت بشاشتها بلا عودة..

وصرخت فيه طالبة الطلاق، فلوى ذراعها خلفها وهددها بأنه لن يُطلقها إلا بعد أن تتنازل عن مؤخر الصداق وأن يأخذ الخاتم الألماسي الذي منحه إياها يوم زواجهما، أفلتت يدها منه وركضت إلى غرفتها لتحضر الخاتم وتلقيه في وجهه.. فصفعها صفعة كادت تُفقدها السمع وأخذ خاتمه ورحل.

طُلِّقت «عايدة» على الفور، وتنازلت له عن مؤخَّره كما أمرها.. شهران كانا بمثابة بوابة على الجحيم، وتنفست الصعداء تحمد الله.

عاد صوت أغاني «فيروز» في غرفة معيشتها، وهام دخان شيشتها في سطح الغرفة، لكنها لم تعد مثلما كانت من قبل، أصبحت ضعيفة، منكسرة.

فهمت أخيرًا ما تعنيه كلمة «ضعيفة».

طرقت «حِكَم» و«نجية» بابها يوم طلاقها، لكنها قالت لهما إنها تفضل قضاء الليلة وحدها، فاحترمتا رغبتها، وأغلقت «عايدة» الباب ببطء، بينما مكثت «حِكَم» واقفة تنظر بشفقة على الباب الذي انغلق وما خلفه من أوجاع وخراب، تُفكر في هذه الزيجة الغريبة التي انتهت في وقت قصير.

مشت خطوتين لتطرقه مرة أخرى، لكنها تراجعت، ودعت الله لها من قلبها أن يزيح عنها همها، ويصلح لها حالها.

وكانت ليلة شديدة البرودة، على الرغم من اقتراب فصل الصيف.

دخلت لترتدي شالًا صوفيًا فوق جلبابها، وخرجت من البيت تسير وهي تُفكر في هذه الدنيا وتقلباتها، مارَّةً بمحلها الذي كان «عبده» على وشك إغلاقه.

وقد بدت الشوارع شبه خالية، وكل شيء هادئ، وتعجَّب «عبده» لمّا رآها تمشي وحيدة بخطوات حائرة، فركض إليها سائلًا لم هي في الشارع في هذه الساعة المتأخرة، وإن كانت تحتاج إلى شيء، أشارت بيدها وعلى وجهها ابتسامة باهتة أن لا شيء، وشكرته، لكنه ظل يراقبها ويمشي وراءها من بعيد حتى وجدها تدخل مسجد السيدة زينب.

وقف لثوانٍ ثم رحل مبتعدًا في الاتجاه الآخر.

وبدا المسجد خاليًا، ولا أحد سواها، وقفت «حِكَم» أمام ضريح السيدة زينب، تبوح لها بلا صوت، وترفع رأسها تحدِّث الله.

شعرت بأن «عايدة» أضحت ابنتها التي لم تنجبها، فدمعت عيناها لأجلها، ثم أسندت رأسها إلى القضبان الحديدية للضريح، وانهمرت دموعها.

دعت الله من أعماق قلبها أن يصلح حال «عايدة»، وأن يحفظ ابنتها «نجية»، وعُقد لسانها عندما تذكرت ابنها «عدوي»، وكأنَّ قلبها يأبى الدعاء له، لكنها عاندت قلبها وانفجرت في

البكاء تدعو له أن يهديه الله ويبدل حاله إلى أفضل حال.

وقالت بصوت مرتفع وهي تزفر أوجاع روحها:

ـ وحشتني يا ابني.

***

تغيَّر وجه «علي» وتمتم: «لا حول ولا قوة إلا بالله» وهو يسمع من «حِكَم» ما حدث لجارتهم من زوجها، وتردد للحظات ثم أخبرها بما لم تعرفه، وصُعقت «حِكَم» لمَّا عرفت أن هذا النذل «عادل» هو أخوه، ولامت «علي» لومًا شديدًا لأنه لم يخبرها، لكنه أجابها بأنه خاف شره.

وتعجبت «حِكَم» من رده؛ فقد رأته دائمًا بمثابة رجل قوي لا يهاب شيئًا ويهابه كل أهل السيدة، ويركض الجبناء من حوله كالفئران، هذا الرجل الذي كان سندها الوحيد بعد الله في ما وصلت إليه، هذا الذي ألجم أفواه أهل السيدة وقص ألسنتهم عندما تحدثوا عنها..

تراه الآن بنظرة مختلفة لم تفهمها، وسألته بحدة:

ـ وبنت الناس؟ ماعتبرتهاش زي بنتك يا حاج؟ تكون قاعد شاهد على رميتها السودا دي ولسانك مربوط؟!

تنهَّد «علي».. سكت لثوانٍ ثم قال:

ـ فكرت يا «حِكَم»، لكن سِكِتّ، خُفت منه قلت هيروح ويتكلم ويقول دا «علي» بيروح عند «حِكَم» وبيمثل دور مش دوره، أنا طول عمري كنت كبير في المقام عنه بس وقتها للأسف ماعرفتش أقف قصاده.

ـ بيروح عند «حِكَم»؟! بيروح عند «حِكَم»؟! مالها «حِكَم» يا حاج؟ لاهو انت كنت بتيجي بيتي في انصاص الليالي ولا في الدرا، ولا هو أنا اللي كنت م البداية ضربتك على إيدك عشان تقف وتاخد بيدّي؟

لا يا حاج مايصحش أبدًا اللي بتقولهولي دا!

ـ يا «حِكَم» ماتفهمينيش غلط.

ـ ولا افهمك صح يا حاج، مش انت اللي قلتلي لما كل الناس دول غلطوا في شرفي: مايهمكيش يا «حِكَم» وحطي صباعك في عين التخين، خليتني أقف قدام الغرب، وانت ماعرفتش تقف قدام اخوك اللي من دمك!

ـ أنا آسف يا «حِكَم»، وانا دماغي كانت ملخبطة الفترة اللي فاتت وعندي مشاكل كتير ماتعرفيهاش، كنت أتمنى أحكيهالك، بس ماقدرش.

ـ دماغك ملخبطة؟! طب وحال البت اللي اتلخبط على إيد اخوك اللي مايعرفش ربنا؟!

لم يجد «علي» إجابة ليقولها..

تركته يقف أمام محله مبتعدةً عنه، وأشار إليها «عبده» وهو يناديها وقد كان واقفًا يتابع حديثهما غير مكترث لزبائنه كالعادة، فأشاحت بيدها وردت بصوت مرتفع دون أن تلتفت:

ـ بعدين يا «عبده»، دماغي ملخبطة دلوقتي.

***

ـ oh my god! زنانة أوي بجد يا «نجية» انتي!

تجاهلت «لينا» رسائل «نجية» على «واتساب» وهي تقول ذلك لنفسها، لتكتب لـ«آسر»، الذي كان بدوره لا يجيبها.

تأففت ثم أغلقت هاتفها لتضعه بجانبها على الكومودينو، وكادت تغلق الأباجورة الموضوعة بجانبها ولكن هاتفها رن مرة أخرى ليخبرها برسالة جديدة، أخذته مسرعة ظنًّا منها أنه «آسر».

ـ أوفففففف بجد، «نجية»، «نجية»!

وعلى هذا التأفف الشديد، كانت «نجية» في واقع الأمر مُقلة جدًّا في رسائلها مع «لينا»، منذ تقربها من «آسر»، لكنها قررت أن تفصح لها عمَّا يدور بينها وبين «آسر»، خاصة بعد أن أخذت علاقتهما شكلًا أكثر جدّية. رأت أنه ليس هناك وقت أفضل من ذلك لتخبر «لينا»، حتى لا تظهر بصورة خبيثة وسيئة في عينيها.

وكانت «لينا» بدورها تشعر بضيق من رسائل «نجية»؛ لأنها في حالة غضب شديد بسبب إهمال «آسر» إياها، على الرغم من أنها تجده متاحًا على «واتساب» وتشعر وكأن عقلها سيُجن لأنه لا يرد عليها أبدًا.

كتبت وهي تنطق ما تكتبه لـ«نجية» بصوت مرتفع وبأصابع تضغط الأحرف بقوة وعصبية:

تمتمت «لينا»:

ـ لاقياني أون لاين؟! أنا حرة.. إيه دا؟! هي بتراقبني ولا إيه؟!

ثم كتبت لها تسألها إن كانت تريد شيئًا معينًا منها، فقالت لها «نجية» إنها تريد أن تحكي لها موضوعًا مهمًّا جدًّا سيُسعدها، وشعرت «لينا» بالفضول يأكلها عندما قرأت عبارة «موضوع مهم جدًّا»، فقررت أن تتصل بها على الفور. وحدَّثت حالها بأن مكالمتها مع «نجية» ربما ستقتل الوقت حتى تجد ردًّا لن يأتي من «آسر».

ولكن كانت الكارثة الكُبرى والطامة التي وقعت عليها عندما بدأت «نجية» تحدثها عن «آسر» وما حدث بينهما في الشهور السابقة.

وظلت «لينا» تسمع وهي تشد شعرها بعصبية وتخبط الأرض بقدميها.

وجاء قرار «نجية» بالاتفاق مع «آسر»، وعلى الرغم من أنه قال لها مليًّا إنه أمر لا يعني «لينا» في شيء لتعرفه أو لا، لكنها أصرت؛ كونها قد شعرت منذ يوم عيد الميلاد بأنها من

أصدقائه المقربين.

وظلت «لينا» طوال المكالمة ترد بهمهمات وابتسامات مفتعلة وسط دموعها.

بكت «لينا» بصوت مرتفع للغاية ما إن أنهت المكالمة ثم ألقت هاتفها بعنف فانكسرت شاشته، وظلت تصرخ بأعلى صوتها وانتابتها حالة هيستيرية.. خرج صراخها من غرفتها يدوي في أنحاء منزلهم، وركضت أمها وقد ارتعبت على ابنتها فحكت لها كل شيء.

احتضنت «هدى» ابنتها بشدة وهي عاجزة عن تهدئتها، واستشاطت غيظًا وهي تلعن «حِكَم» و«نجية»، وأقسمت أن تحرقهما مثلما احترق قلب ابنتها.

***

ـ أنا حامل.

زغردت «حِكَم» بسعادة لما قالته «عايدة»، وقامت «نجية» تُقبلها، فدفعتها «عايدة» بعيدًا برفق:

ـ وهانزّله.

خبطت «حِكَم» على صدرها:

ـ يانهار أبوكي اسود ومنيّل بستين نيلة يا «عايدة»، تنزّلي مين يا بت؟ مفيش الكلام دا.

ـ أنا خدت قراري..

اقتربت «نجية» لتجلس بجانب «عايدة» وهي تربت عليها:

ـ ليه يا «ديدي»؟ مش كنتي بتفضلي تقوليلي نفسي يبقى عندي اولاد كتير؟ أهو ربنا رزقك بواحد، تعملي كدا؟!

سالت دموع «عايدة» بلا إرادة منها، ووضعت يدها فوق بطنها قائلة:

ـ أنا بالطريقة دي باحافظ عليه، ماقدرش اجيبه الدنيا يتظلم...

فقاطعتها «حِكَم» بعصبية:

ـ وانتي مال أهلك انتي؟ هاتيه بس ومالكيش دعوة.

ـ ماينفعش، مش هاستحمل اجيب حد يشوف اللي أنا شوفته، أنا كان كل أملي في الدنيا أعيش عيشة بسيطة، مع واحد يراعي ربنا فيا، وياخد باله من ولاده ويربيهم معايا، أنا شوفت أمي بتتبهدل ازاي وهي بطولها بتربيني، حتى لما خدتني وسافرنا المنصورة، كانت علطول مهمومة، وحاسة إن فيه حاجة ناقصاني مش بإيديها تجيبهالي، لحد ما ماتت وانا شايفة في عينيها نظرة عمري ما هانساها، وبصي حالي أنا وصلت لإيه؟! فهمت نظرتها دلوقتي.

عارضتها «حِكَم» لتقول:

ـ بطلي هبل يا بت، اعتبري المعفن اللي اتجوزتيه دا مات ولا قطر داسه.

ـ يا ريته كان مات، يا ريته حتى كان طلقني م البداية باحترام، من غير ما يكسر فيا اللي اتبقالي من بعد أمي، عارفة لو كنت حسيت إنه راجل حتى بعد طلاقنا، وهيخاف على اللي في بطني وهيراعيه حتى لو من بعيد، كنت هاخليه، لكن انتي بنفسك عرفتي إن حتى عياله اللي من صلبه راميهم ومابيسألش فيهم، أزوّدهم ليه واحد؟!

اللي هييجي دا هيحتاج كل اهتمامي، هيحتاجني سعيدة، وأنا مابقتش حاسة بأي سعادة.. مابقاش جوايا من المشاعر اللي أقدر أقدمه..

يمر أمام عينيها الشهران اللذان أمضتهما مع «عادل»، كانا لها بمثابة مليوني عام، يقتل فيها ببطء ويقهرها بلا هوادة.

وضعت «حِكَم» يدها على خدها في حسرة وهي سارحة في «عايدة» التي انطفأت وذاقت من الإهانات ما لم تتحمله.. ترحَّمت في سرها على زوجها «بَكر» الذي ظنّت أن دعواته عليها هي قمة الإهانة والمذلة.

لعنت كل الرجال الذين يقهرون زوجاتهم، وبلا وعي منها تمتمت:

ـ يفقرك ربنا يا عادل يا ابن صابر!

***

يعلم «علي» أنه ضعيف مثلما قالت له «حِكَم»..

ولسنوات مضت لا يفعل شيئًا سوى تهديد أخويه بفض شراكة المصنع دون أخذ أي خطوة جدّية، وبث حزنه وما يقبع في صدره ذات يوم لرجل كبير يعرفه منذ أن كان شابًّا صغيرًا؛ حيث كان صديقًا لوالده، وتعجب الرجل العجوز من قصة «علي» وخلافاته مع أخويه، وقال له:

ـ دا اخوك دا شكله عاملك عمل يا ابني..

صدّقه «علي» للحظات.

لكنه عاد ليفكر في أن الخطأ يكمن فيه هو، وفي وصية أبيه له في فراش مرضه، ألا يفترق عن أخويه مهما حدث، وأن يظل بجانبهما وسندًا لهما، وقرر التمرد على هذه الوصية بعد كل الأعوام التي مضت.

فحدّث محاميه ليقوم بالإجراءات اللازمة لفض الشراكة.

وحضر أخوه «حسن» إلى بيته يشكو من أخيه إلى زوجته، التي شعرت بدورها بنار تلتهمها من الغيظ، لكنها طمأنت «حسن» أنها ستتحدث مع «علي» ليبدل رأيه فيما يود فعله.

وعندما واجهته صرخ فيها ألا تتدخَّل، فعلا صوتها على صراخه لتقول:

ـ إيه؟ الست «حِكَم» هي اللي قالتلك تفضّ المصنع ولا إيه إن شاء الله؟! تروح تشوف بنتها القذرة اللي رايحة تلف على زميل بنتي وتخطفه منها!

لم يفهم «علي» ما تقوله «هدى»، ولم يسعَ إلى الفهم، فصاح فيها قائلًا:

ـ هو انتي مش ناوية تشيلي «حِكَم» من دماغك؟! كفاية بقى!

ـ لا مش هاشيلها يا «علي»، ومش هاسمحلها ولا هاسمحلك تضيّع كل اللي اتبنى السنين اللي فاتت دي! خلاص اتجننت وعايز تفرط في المصنع بالسهولة دي يا «علي»؟! أنا مش هاسمح لك أبدًا!

شعر بأن شيئًا يطبق على صدره وبآلام مبرحة تباغته..

صرخ فيها ينهرها بأعلى صوته ثم وقع مغشيًّا عليه.

***

ظلت «حِكَم» وحدها على السرير في غرفتها، وطرقت «نجية» الباب عليها تطلب محادثتها، فأزاحت «حِكَم» الغطاء وهي تشير إلى ابنتها بالنوم بجانبها، وارتمت «نجية» في حضن أمها تحكي لها عن الشاب الذي يريد أن يتقدم لخطبتها، وسعدت «حِكَم» من قلبها:

ـ ياه يا «نوجة»، جه اليوم اللي تقوليلي فيه يا ماما أنا بحب واحد!

تنهدت:

ـ ربنا يسعدك يا بنتي ويريح قلبك.. أهم حاجة يكون ابن حلال.

ـ ابن حلال جدًّا يا ماما وبيحبني أوي.

ـ ابن حلال وبيحبني؟! شوف البت! يا بت اختشي، بتقولي لامك كدا عادي؟! دا لو كان على أيامي أقول كدا لجدتك «يَمنى» كانت تقطعني وترميني للفراخ.

ضحكت «نجية»:

ـ هي عاملة إيه يا ماما صحيح؟ مش بتكلميها خالص؟

أخذت «حِكَم» نفسًا عميقًا:

ـ آخر مرة سمعت صوتها كان آخر مرة شفتها، ساعة دفنة أبوكي..

مكثت في صمت للحظات تُفكر:

ـ عارفة يا «نوجة»؟ البعد دا أذى؛ لأنك لما بتتعودي عليه خلاص، مابتعرفيش ترجعي تاني، بتحسي إن بقى ليكي مكانك اللي ماتقدريش تسيبيه، وكأنك مشيتي في طريق من سكة واحدة..

أنا بعدت أوي عنهم من وانا حتة عيلة بضفيرتين، قعدت ييجي تلاتيين سنة ماسمعش صوتهم..

ضحكت وهي تردف:

ـ أبوكي خطفني.. آاااااه يا قلبي، الله يرحمك يا حاج وينوَّر قبرك، أبوكي كان راجل جدع أوي يا «نوجة»، رغم إنه ناشف وتحسي إن قلبه حجر، بس نظرة عينيه كانت كأنه عيل في مدرسة.

ـ كنتي بتحبيه يا ماما؟

سكتت «حِكَم» ثم سرحت في ظلام الغرفة تفكر في سؤال ابنتها:

ـ تصدقي؟ عمري ما سألت نفسي السؤال دا، بس آه، حبيته طبعًا، لما اتجوزته ماكنتش أعرف يعني إيه أحب، ولا حتى كنت أعرف يعني إيه أكره..

لما عشت معاه بقى هو كل حاجة في حياتي، كان عصبي وخلقه ضيق، بس كان نَفَسه في البيت بيحسسني بالأمان.

الإحساس بالأمان أهم من أي حب، ساعات بنحب حاجات بتئذينا، وبتكسَّر فينا أكتر ما بتقوينا.

عارفة يا «نجية»؟ لمَّا قعدت أفكّر ليه أبوكي كتبلي المحل، اكتشفت إنه كان عايز يعوَّضني عن قسوته، ويخليني أنزل من بعده أشوف الدنيا واعيش اللي ماعشتوش وانا معاه..

لما بافتكر نفسي من كام شهر، كنت زي اللي دُراها غرق ولا عارفة أروح ولا آجي، وأشوف وصلت لإيه دلوقتي، قويت واتغيرت، بافهم.. بافهم إن أبوكي كان سايبلي حاجة أهم م اللي مكتوبة على ورق، كان سايبلي نفسي.

فيه ناس بتموت وواخدة أرواحنا في إيديها، مش عايزانا نعيش بعدها، أبوكي كان عايزني أعيش.

يلَّا.. الله يرحمه وينوَّر قبره.. المهم، قوليلي المحروس بتاعك دا هييجي يقابلنا إمتى؟

ـ وقت ماتقولي يا ماما، بس يعني، أصل أاا...

ـ إيه؟ فيه إيه؟ ماتنطقي!

ـ لا يعني خايفة تقولي زي يوم «عايدة» بقى، ولازم راجل وكدا.

ـ اتكتمي يا بت، هو أنا مش مالية عينك؟! أمك بنت «يَمنى»، بمِيت راجل.

***

افترش «عدوي» الرصيف بجانب صندوق كبير للقمامة، وكانت رائحته النتنة تُنافس الروائح العفنة الصادرة من الصندوق، ونما شعر رأسه وذقنه وأصبح وجهه غير مألوف إن مر بجانبه أحد يعرفه، وقال أحد المارة أمام محل «بكر» لـ«حِكَم» إنه رأى واحدًا يُشبه ابنها في حال يُرثى له، ينام على الرصيف ويأكل بقايا الطعام من الشارع، ويركض خلفه الأطفال ليسخروا منه ويلقوا عليه الحجارة ويسبوه، فلم تصدق ما سمعت وانفطر قلبها عليه، سألت الرجل أين رآه وخرجت باحثة عن ابنها، ولكنها لم تجده. هرعت الى بيت «سحر» تطرق بابها وهي تدعو الله أن تجده، ولكن «سحر» وقفت تُحدثها بصوت مرتفع وفظاظة قائلة إنها ألقت ابنها خارج البيت وأَنِ اغربي عن وجهي، ابحثي عنه بعيدًا من هنا ولا تطرقي باب هذا البيت مرة أخرى.

مشَّطت «حِكَم» الشوارع والحارات في أنحاء السيدة بحثًا عن ابنها، وقد بدا حي السيدة مكتظًّا بالبشر.

ومرت الساعات عليها دون أن تدري ثم عادت إلى المحل باكيةً وجلست منهكة، تشكو إلى «عبده» وتطلب منه الذهاب معها إلى قسم الشرطة كي يُبلِّغا عن ابنها المفقود، وظل «عبده» صامتًا وقد تأثر ببكائها الشديد.. ومكث ينظر اليها للحظات ثم قال:

ـ تبلَّغي عنه ولا تبلَّغي عليه؟

لم تفهم «حِكَم» ماذا يعني «عبده» بكلماته، فجلس على ركبتيه أمامها وهو يقول إن ابنها لا يستحق منها شفقة أو مغفرة، وإنه نال ما يستحقه من الحياة..

وبدأ يحكي لها بلسان مرتعش قصة كوب الشاي الذي قدَّمه لـ«بَكر» قبيل وفاته بساعات وظل يقسم لها إنه لم يكُن يعلم ما به ولا يعلم حتى هذه اللحظة، وإنه لم يكُن ليضر سيده وولي نعمته أبدًا..

شعرت «حِكَم» وكأنَّ الأرض قد توقَّفت عن الدوران وأنها حتمًا في كابوس ستفيق منه لاحقًا لتجد أن كل هذا لم يحدث..

كوب الشاي، الذي أحبته طوال عمرها، أودى بحياة الرجل الذي عاشت في كنفه منذ نعومة أظافرها.

لقد كرهت كل أكواب الشاي، كرهت «عبده» وتمنَّت من الله لو أن تكره ابنها.

وبينما هي تمشي كالتائهة وسط الزحام، تُحدِّث نفسها بقهر لا مثيل له، مرَّ بجانبها في الاتجاه المعاكس ابنها يسير مترنحًا بشعر طويل أشعث وذقن كثيفة، وقد ذهبت المخدرات بعقله وأصبح يتكلم مع أشخاص لا يراهم أحد سواه..

والتقيا في لحظة، لكن أحدًا منهما لم يعرف الآخر.

***

صوت رنين الأجهزة مخيف، وتلك الشاشة التي تُظهر نبضات القلب، قد تودي بحياة الأحياء الذين يتابعونها رهبة من أن ينتظم الخط ويغيب مَن ينتظرونه كي يفيق ممَّا فيه.

ذبحة صدرية كادت تودي بحياة «علي».

جلست زوجته بجانبه تنظر إلى الأجهزة والأسلاك التي ترسل الإشارات من جسده.

واقتربت يدها تلامس يده، وعلى الرغم من أنه في سُبات عميق، شعرت أنه يُبعد يده عنها.

ولا تدري ماذا حل بهم، كل ظنونها تدور حول «حِكَم»، حتى هذه الذبحة الصدرية التي أصابت زوجها، تلوم عليها «حِكَم»، فلم يهدأ شر أخيه «عادل» وجاء في زيارة للمستشفى ليلة سقوطه، ينظر إلى أخيه «علي» نظرة باردة، ووقف مدعيًا التأثر وهو يواسي الزوجة، ويُخبرها كم تغير «علي» وينصحها أن تخاف غدره، ثم وقف يحكي بكلمات مختصرة كيف

أن «علي» كاد يزج به في زيجة فاشلة براقصة لولا ستر الله الذي نجاه! وأَنِ انتبهي على زوجك من تلك المرأة التي تُدعى «حِكَم»!

جلست بجانبه على الكرسي تجز على أسنانها وهي تنظر إلى وجهه بتمعُّن، وتلعن كل شيء إلا نفسها..

ورن هاتفها، فخرجت سريعًا من غرفة «علي» بالمستشفى لتجيب بكلمات مقتضبة:

ـ تمام، زي ما اتفقنا.

***

تُفكر في حالها وتشعر بضعف وقلة حيلة..

أزاحت في الشهور السابقة كل القيود التي استسلمت لها طوال حياتها، وانكسرت الأصفاد الوهمية التي تطوق يديها، لكنها عادت مرة أخرى ليذبل جموحها سريعًا وتنطوي مجددًا..

دفنت بداخلها كل ما قاله لها «عبده»، ورفضت البوح به لأي أحد.. سبَّب لها ابنها ألمًا أبديًّا لن تنساه.

حمل ثقيل قررت أن تحمله وحدها.

ورفضت محايلات «نجية» و«عايدة» بأن تجلس معهما، أمضت ليلها في تعاسة وحزن عميق.

ورمقت جهاز الكمبيوتر الموضوع بجانبها، ثم فتحته وظلت بلا هدف تنظر إلى المحل المغلق الخالي من البشر في منتصف الليل، وكأنها تتابع فيلمًا صامتًا من مشهد واحد لساعات، بدا لها أن ما تراه أصبح حملًا ثقيلًا عليها، وكأن زوجها ترك لها كابوسًا من بعده لتعيشه.

مضت ثلاث ساعات دون أن تدري وهي تشاهد الشاشة بصمت، ترى فيها مآسيها، وزوجها الذي رحل عنها.

لكنه القدر.. لمحت ضوءًا خافتًا بدأ يظهر وحركة مريبة، ومن ثَمَّ ظهر رجل ملثَّم لا تعرف كيف دخل المحل، وبدت لها أن حركته سريعة، ارتعبت وهي تراه وقد بدأ يسكب شيئًا من قارورة كبيرة يحملها في كل أرجاء المحل ثم يشعل النار..

لتقفز صارخة وكأنَّ سقف البيت قد وقع فوق رأسها، ركضت لتخرج من باب بيتها بجلبابها حافيةً وبلا طرحتها ومن خلفها ابنتها و«عايدة» اللتان ذُعرتا من صرخاتها..

ولا تدري كيف وصلت في دقائق معدودة وهي تلهث، وقفت تنظر إلى المحل الذي اشتعل والتهمته النار؛ فقد كانت تلك الدقائق كافية لحرق كل شيء، وخرجت ألسنة النيران منه حتى تفحَّمت اللوحة الكبيرة المعلقة «العدوي للملابس الجاهزة».

بكت بدموع كافية لإطفاء هذا الحريق، ولم تكُن تعلم أن هذا الأمر من تدبير زوجة «علي» التي أقسمت على أن تحرق لها كل شيء، وحل ضوء النهار عليها وهي جالسة على الرصيف وقد تلطخ وجهها بلون أسود من رماد النيران، تتابع في سكونٍ ظاهرٍ المطافئ التي وصلت بعد أن تفحَّم المحل وكل ما فيه، ولم ترد على نداءات ابنتها وأهل الحي الذين استيقظوا على صراخها، وحضرت الشرطة لأخذ أقوالها، فأجابت بكلمات مقتضبة، ولم تُخبر بما رأته بعينيها.

لم يكُن يعنيها مَن فعل هذا ولِمَ.

عادت إلى بيتها تزحف على الأرض زحفًا بقدميها الحافيتين وبجانبها ابنتها و«عايدة»، تسير وسط حيرتهما وقد أنهكتها آلامها النفسية والجسدية.

دخلت غرفتها وهي لا تجيب عن أسئلتهما، وكأنها لا تسمعهما.

أغلقت الباب عليها ثم ارتمت على سريرها تنظر إلى سقف الغرفة وتسمع صوت زوجها في أذنيها بوضوح وهو يقول:

ـ يفقرك ربنا يا بت «يَمنى».

تفر دموعها غزيرة راحلة منها إلى وسادتها، فترى وجهه أمامها، تتذكَّره في شبابه، سمرة وجهه، وبنيانه القوي، ترى نفسها طفلة وتتذكَّره وهو يعطيها الدجاجة التي كادت تهرب منها، يقترب قائلًا لها ما اسمك؟

تمسح «حِكَم» دموعها بيديها، ثم تهمس بصوت مبحوح وهي ملقاة على سريرها وكأنه يسألها مجددًا لترد:

ـ «حِكَم».

***

جُنَّ «عبده» بعدما حدث في محل «بكر».

يتذكَّر كوب الشاي الأخير، وملامح سيده التي بدا عليها الإنهاك والحزن آنذاك، كانت تلك هي المرة الأولى التي يلمح فيها حزنًا كهذا في عيني «بَكر»، كيف طاوعته نفسه أن يُطيع «عدوي»؟! خمسة آلاف جنيه لم يأخذها كانت ثمن رحيل الرجل الذي آواه واحتضنه منذ طفولته.

وقف أمام المحل وقد استشاط غيظًا من الدمار الذي حلَّ به، وكل من يمر بجانبه يربت على كتفه مواساة له، يخبط على رأسه بيديه بعنف وكأنه يود كسره حتى تتوقف أفكاره وتساؤلاته!

مشى مبتعدًا بين الناس، حتى وصل إلى أمام مسجد السيدة زينب، رفع رأسه ينظر إلى هذا الصرح المنيف بمئذنته، عبر الباب الحديدي ومنه الى مدخل المسجد ثم سار بخطوات

مترددة.

نظر يمينه إلى الرصيف الذي كانت تجلس عليه العجوز التي تؤويه في صغره، ورأى امرأة مسكينة تبيع المناديل، رفعت يدها تشير إليه ليشتري منها فتأمَّل قسمات وجهها البائس وخُيِّل إليه أنها المرأة نفسها التي في ذكرياته، بل وللحظة رأى نفسه طفلًا صغيرًا جالسًا بشعره الأشعث ووجهه المتسخ.

أشاح بوجهه عنها، وسار إلى باب المسجد، وأوطأ قدمًا بداخله بينما بقيت الأخرى ثابتة مكانها.. وقف للحظات وبداخله رهبة ورفض، شيء في عقله يُخبره أنه يجب ألَّا يدخل، شيء من ماضيه لا يتذكره، وصوت لا يميزه ينهره بشدة!

لم يخرج «عبده»، طوال عمره، من حي السيدة إلا عندما سافر لدفن «بَكر».

شعر بضيق غريب وقبضة في صدره، لقد ملَّ الحياة بلا هوية، انهارت قواه ليجلس على باب المسجد دون أن يدخله، ورفع رأسه ينظر إلى السماء.

وصوت «بَكر» في أذنه وهو يقول له: يومًا ما، سيخبرك قلبك.

اكتفى من كتمانه طوال عمره لتساؤلاته التي لم يجرؤ على البوح بها لأحد أبدًا، والكتمان حتمًا كارثي، بركان خامد..

لكنه انفجر، وانسالت حممه لتأكل من روحه، طفا دخانها في عقله وشعر بمرارة رماد في فمه..

حتى إنه شعر باحتراق سائر جسده، ومع كل هذا الذي فيه، فضَّل الكتمان، ولمن يبوح؟!

رحل من السيدة زينب بلا عودة..

قال بعض الناس إنهم رأوه يأخذ كرسي سيده العملاق، الذي كان لا يزال محتفظًا به في أحد المخازن القديمة، في سيارة نصف نقل، وقال بعضهم الآخر إنه ذهب باحثًا عن أهله.. لكن أحدًا لم يعرف أين ذهب «عبده».

***

عقد «علي» حاجبيه بضيق بعد عودته وتعافيه؛ فقد حزن بشدة لمصاب «حِكَم»، لكنه لم يجرؤ على الاتصال بها ومواساتها منذ حديثهما الأخير.

كما أنه استسلم لبكاء زوجته وتوسلاتها أن يقطع علاقته بـ«حِكَم»، وأومأ برأسه لزوجته باستسلام وقد قرر الاحتفاظ بحبه لـ«حِكَم» في قلبه إلى الأبد.

وقف صبيانه حوله، كلٌّ منهم يحكي له قصة مختلفة عن حريق محل «بَكر».

وبينما هو يفكر وينظر بأسى إلى المحل الذي تحوَّل إلى رُكام، سمع صوتها من بعيد وقد أتت ببعض العاملين ليقوموا بإزالة كل آثار الحريق، فمال برأسه في جلسته ليجدها، قام من على مكتبه ووقف ينظر إليها دون أن يخرج من محله..

وقد وقفت بثقة وبصوت مرتفع وسط الرجال تأمرهم بما يفعلون.

والتفتت لتجده فابتسمت وسلَّمت عليه من بعيد.

نظر إليها «علي» بفخر وسعادة، وهو يومئ برأسه لرد تحيتها وتمتم بداخل نفسه:

ـ قدها يا «حِكَم».

في المصائب، عادةً ما يمنحنا الله أطواق نجاة، وكان طوق نجاة «حِكَم» هو قلبها، قلبها الذي آمن بالحكمة الكامنة خلف كل شيء، وأنها لكي تصل إلى ما تريده في هذه الدنيا، يجب أن تتقبَّل ما فيها من خير وشر.. فلا شر يدوم، والخير باقٍ لا محالة.

وتقبّلت «حِكَم»، فانتصرت.

***

تمت بحمد الله

٢٠ نوفمبر ٢٠٢٠م

1. الغلاف
2. ١٨٦ عمارات امتداد رمسيس ٢ أمام أرض المعارض مدينة نصر
3. إهداء
4. الفصل الأول
5. الفصل الثاني
6. الفصل الثالث
7. الفصل الرابع
8. الفصل الأخير